

علم اللغة

تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وافي

دكتور في الآداب من جامعة باريس

أستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الثانيـــة — مزيدة ومنقحة

١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤ م

الناشر : مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر لصاحبها محمود الخضري

بعض كتب أخرى للمؤلف

١ — Contribution à une Théorie Sociologique de L'Esclavage

٢ — Distinction entre La Femme et L'Homme dans L'Esclavage

حصل بهما على شهادة الدكتوراه بدرجة الشرف الممتازة من جامعة السربون

٣ — فى التربية : (قررت وزارة المعارف تدريسه بدار العلوم)

٤ — البطالة ووسائل علاجها (نال جائزة « المباراة الأدبية »)

٥ — فقه اللغة (يدرس بجامعة فؤاد الأول ودار العلوم)

٦ — الاقتصاد السياسى (يدرس بجامعة فؤاد الأول)

٧ — مواد الدراسة (يدرس بدار العلوم)

٨ — لمحة فى تاريخ الأدب اليونانى (تحت الطبع)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان .

وبعد فمنذ عهد بعيد ، وبخاصة منذ أن كشفت اللغة السنسكريتية ، لم تنفك موضوعات علم اللغة موضع عناية عدد كبير من أعلام الباحثين فى أمم الغرب . وقد بذل فى هذا السبيل جهود قيمة مشكورة بلغ بفضلها هذا العلم درجة راقية من النضج والكمال ، فوضحت حدوده ومناهجه ، وهذبت أساليبه وطرق دراسته ، وتميزت فروعه بعضها من بعض ، واختص فى كل فرع منها عدد كبير من العلماء ، فتوفروا على دراسته ، وقتلوا مسائله بحثا . ومن ثم أصبحت مراجع هذا العلم من أكثر مراجع العلوم عدداً ، وأوسعها نطاقا ، وأدقها بحثا ، وأجلها قيمة .

وعلى الرغم من ذلك ، لم يكتب فيه باللغة العربية — على ما أعلم — مؤلف يعتد به ؛ اللهم إلا بعض كتب قديمة تمثل هذه البحوث فى أدوار طفولتها الأولى ، بل فى أدوارها السابقة للطفولة ، ولا تكاد اليوم — وقد أيفع هذا العلم — تنقع من صدى ولا تسمن من جوع .

حيال هذا ، رأيت أن الواجب يحتم علىّ — وقد وقفت قسطا من جهودى على هذا العلم ، وقمت بتدريسه مدة طويلة — أن أقوم بأول محاولة فى هذا السبيل ؛ فكتبت هذه العجالة ، معتمداً فيها على طائفة كبيرة من أوثق المصادر الإفرنجية التى يرى القارىء بعضها مشارا إليه فى ثنايا تعليقاتنا وبعضها مدونا بقائمة المراجع فى آخر الكتاب .

ولم آل جهدا أن أوفق بين غرضين ليس من اليسير التوفيق بينهما : أحدهما أن لا أغادر ناحية من النواحى البارزة فى هذا العلم إلا عرضت لها مناقشا أهم ما قيل فيها ومدليا بما يصح الركون إليه بصددها ، وثانيهما مراعاة الإيجاز فى علاج الموضوعات حتى لا أتجاوز النطاق الذى رسمته لهذه العجالة والذى ينبغى أن تكون عليه أول محاولة .

والله أسأل أن يتيح متابعة ما بدأته وتنقيحه وتكملته وأن يهىء لنا من أمرنا رشدا .

على عبد الواحد وافى

تمهيد

فى التعريف بعلم اللغة

(١) البحوث اللغوية وما يدخل منها تحت علم اللغة

ترجع أهم البحوث اللغوية إلى الموضوعات التالية :

١ — البحوث المتعلقة بنشأة اللغة الإنسانية ، والأشكال الأولى التى ظهر فيها التعبير ، والأدوار التى اجتازها حتى وصل إلى مرحلة الأصوات ذات الدلالات الوضعية ، والأسس التى سار عليها الإنسان والنماذج التى احتذاها فى وضع الكلمات وفى تعيين مدلولاتها ، ونشأة مركز اللغة فى النوع الإنسانى . . . وما إلى ذلك من البحوث التى تعالج اللغة فى أدوار نشأتها الأولى . — ويطلقون على هذا الفرع من البحوث اللغوية اسم « **أصل اللغة** » أو « **نشأة اللغة** » Origine du Langage

وكل ما يذهب إليه الباحثون بهذا الصدد — كما سيظهر لك فى الباب الأول من هذا الكتاب — يتألف من آراء فردية ظنية تعتمد فى بعض نواحيها على الحدس والتخمين وفى نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمىّ . وهكذا شأن جميع البحوث التى تعرض لأصول النظم الإنسانية .

ولذلك يرى كثير من العلماء إخراج هذا الموضوع من نطاق علم اللغة وإلحاقه بالبحوث الفلسفية الميتافيزيقية ، لأن منهج البحث فيه لا يتفق فى شىء مع ما ينبغى أن تكون عليه مناهج البحث فى العلوم . — وهذا الرأى هو السائد الآن ؛ ولذلك لا يكاد المحدثون من علماء اللغة يعرضون لهذا الموضوع ، وإن عرضوا له تناولوه على أنه دخيل على مادتهم ومثال من البحوث اللغوية فى أدوارها الأولى .

٢ — البحوث المتعلقة بحياة اللغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر وسعة وضيق وعظمة وضعة ، وما تتعرض له من انقسامها إلى لهجات ، وتفرع لغات عامية من كل لهجة من لهجاتها ، وتعدد مظاهرها تبعاً لتعدد فنونها ووجوه استخدامها ، وما تقوم به

من صراع مع غيرها ، وما ينجم عن هذا الصراع من انتصار أو هزيمة ، واحتلالها مناطق جديدة أو تخليها عما كانت تملكه ، وما يؤول إليه أمرها من شيخوخة وهرم وفناء ، وما تتمثل فيه ظواهر انحلالها من اختفاء من عالم المحادثة والكتابة ودروس آثارها ، أو اختفاء من المحادثة وحدها ، أو اختفاء من المحادثة والكتابة مع بقائها فى فى المعاجم والمؤلفات . . . وعوامل كل ظاهرة من هذه الظواهر ونتائجها والقوانين الخاضعة لها . — ويطلق على هذا البحث اسم « حياة اللغة » Vie du Langage

ومن أهم فروع هذا البحث وأوسعها نطاقا فرع يسمى « الدياليكتولوجى » Dialectologie أى علم اللهجات . وموضوعه دراسة الظواهر المتعلقة بانقسام اللغة إلى لهجات وتفرع اللغات العامية من كل لهجة من لهجاتها . . . وما إلى ذلك .

٣ — دراسة الأصوات التى تتألف منها اللغة وبيان أقسامها وفصائلها ، وخواص كل قسم ومخارجه ، وما تعتمد عليه من أعضاء النطق ، وطريقة إحساس السامع بها ، واختلاف النطق بالحروف واختلاف الأصوات التى تتألف منها الكلمة فى لغة ما باختلاف عصورها والأمم الناطقة بها ، والعوامل التى تنجم عنها هذه الظواهر ، والنتائج اللغوية التى تترتب على كل منها والقوانين التى تخضع لها . . وما إلى ذلك . ويطلقون على هذا البحث اسم « الفونيتيك » phonétique أى « علم الصوت » .

٤ — دراسة اللغة من حيث دلالتها ، أى من حيث إنها أداة للتعبير عما يجول بالخاطر . — ويطلق على هذا المبحث اسم « السيمنتيك »[1] Sémantique أى « علم الدلالة » . — ومن « الفونيتيك » و « السيمنتيك » (علم الصوت وعلم الدلالة) يتألف أهم فروع علم اللغة وأدقها وأكثرها نضجاً .

وينتظم علم الدلاله بحوثاً كثيرة استقل الآن كل منها عما عداه وأصبح موضوع شعبة دراسية قائمة بذاتها . وأهم هذه البحوث ما يلى :

(ا) البحث فى معانى الكلمات ، ومصادر هذه المعانى ، واختلافها فى لغة ما باختلاف عصورها والأمم الناطقه بها ، وموت بعض معانى الكلمة ونشأة معان جديدة ، والعوامل المختلفة التى ترجع إليها هذه الظواهر ، والنتائج اللغوية التى تترتب على كل منها ، والقوانين

---

(١) يرجع الفضل فى وضع هذا الاسم إلى الأستاذ بريال M. Bréal

التى تخضع لها فى سيرها . . . وما إلى ذلك . — ويطلق على هـــذا البحث اسم « **لكسيكولوجيا** » Lexicologie أى « **علم المفردات** » .

(ب) البحث فى القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات وتصريفها ، وتغير أبنيتها بتغير المعنى وما يتصل بذلك . — ويطلقون على هـــذا البحث اسم « **المورفولوجيا** » Morphologie أى « **علم البنية** » وهو ثلاثة أنواع :

« **المورفولوجيا التعليمى** » أى « علم البنية التعليمى » ، وهو الذى يدرس القواعد السابق ذكرها فى لغة ما لمجرد جمعها وترتيبها وتنسيقها حتى يسهل تعلمها وتعليمها ومراعاتها فى الحديث والكتابة . ومن هذا النوع علم الصرف فى اللغة العربية .

« **المورفولوجيا التاريخى** » أى « علم البنية التاريخى » ، وهو الذى يدرس هذه القواعد فى لغة ما دراسه تاريخية تحليلية ، فيدرس الأشكال التى كانت عليها فى أقدم مراحل هذه اللغة ، وما طرأ عليها من تغير فى مختلف العصور والأمم ، وعوامل تطورها ونتائجه ، والقوانين التى تسير عليها فى مختلف مظاهرها . . . وما إلى ذلك .

« **المورفولوجيا المقارن** » أى علم البنية المقارن ، وهو الذى يدرس القواعد السابقة دراسة تاريخ وتحليل ومقارنة فى فصيلة من اللغات الإنسانية أو فى جميع اللغات . فهو يمتاز عن الشعبة السابقة بالموازنة التى يجريها بين اللغات فيما يتعلق بقواعد البنية فى كل منها .

هذا ، والقسمان الأخيران هما اللذان يدخلان فى نطاق علم اللغة . أما القسم الأول وهو « المورفولوجيا التعليمى » فليس من بحوث علم اللغة ، بل من بحوث القواعد التعليمية .

(ح) البحث فى أقسام الكلمات (تقسيمها إلى اسم وفعل وحرف . . . الخ) وأنواع كل قسم ووظيفته فى الدلالة ، وأجزاء الجملة وترتيبها وأثر كل جزء منها فى الآخر (من ذلك مثلا تأنيث كلمة أو تذكيرها أو جمعها أو تثنيتها ... تبعاً لحالة كلمة أخرى فى الجملة) وعلاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض وطريقة ربطها ، وتقسيم العبارة إلى جمل وترتيب هذه الجمل وطريقة وصلها أو فصلها . . . وما يتصل بذلك . ويطلق على هـــذا البحث اسم « **السنتكس** » Syntaxe أى « **علم التنظيم** » وينقسم إلى نفس الأقسام الثلاثة التى

انقسم إليها « المورفولوجيا » أو « علم البنية » أى إلى تعليمى وتاريخى ومقارن .

« **فالسنتكس التعليمى** » أى علم التنظيم التعليمى ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم فى لغة ما لمجرد جمعها وترتيبها وتنسيقها حتى يسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها فى الحديث والكتابة . — ومن هذه الشعبة بعض أبواب النحو والمعانى فى اللغة العربية .

« **والسنتكس التاريخى** » أى علم التنظيم التاريخى ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم فى لغة ما دراسة تاريخية تحليلية .

« **والسنتكس المقارن** » أى علم التنظيم المقارن ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم دراسة تاريخ وتحليل ومقارنة فى فصيلة من اللغات أو فى جميع اللغات .

والقسمان الأخيران هما اللذان يعدان من فروع علم اللغة . أما «السنتكس التعليمى» فليس من بحوث هذا العلم .

هذا ، ومن « المورفولوجيا » و « السنتكس » أى علم البنية وعلم التنظيم يتألف ما يسمونه « **الجرامير** » Grammaire أى القواعد . — ومما تقدم يتبين لك أن دراسة الجرامير بفرعيها تكون تارة تعليمية وتارة تاريخية وتارة مقارنة ، وأن القسمين الأخيرين وحدهما هما اللذان يدخلان فى نطاق علم اللغة .

(د) البحث فى أساليب اللغة واختلافها باختلاف فنونها (الشعر ، النثر ، الخطابة ، المحادثة ، الكتابة ، المسرح . . . الخ) وباختلاف العصور والأمم الناطقة بها ، والطرق التى تسلكها الأساليب فى تطورها ، والقوانين الخاضعة لها . . . وما يتصل بذلك . — ويطلق على هذا البحث اسم « **الستيليستيك** » Stylistique أى « **علم الأساليب** » .

وهذا البحث يمكن أن يدرس على نفس الوجوه الثلاثة التى أشرنا إليها فى البحثين السابقين .

فاذا درس على الوجه الأول ، بأن كان الغرض منه مجرد جمع القواعد المتعلقة بأساليب لغة ما وبتنسيقها وترتيبها ليسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها فى المحادثة والكتابة ، أطلق عليها اسم « **الستيليستيك التعليمى** » «أى علم الأساليب التعليمى» . — ومن هذا النوع بعض أبواب المعانى والبيان والبديع فى اللغة العربية .

وإذا درس على الوجه الثانى ، بأن كان الغرض منه دراسة الأساليب فى لغة ما

دراسة تاريخية وتعقبها فى مختلف مراحل هذه اللغة وفى مختلف الأمم الناطقة بها وشرح تطورها والقوانين الخاضعة لها بهذا الصدد ، أطلق عليه اسم « الستيليستيك التاريخى » أى « علم الأساليب التاريخى » .

وإذا درس على الوجه الثالث ، بأن كان الغرض منه دراسة الأساليب فى عدة لغات دراسة تاريخ وتحليل ومقارنة ، أطلق عليه اسم « الستيليستيك المقارن » أى علم الأساليب المقارن .

والنوعان الأخيران هما اللذان يدخلان فى نطاق علم اللغة . أما دراسة الأساليب على الوجه الأول فليست من بحوث هذا العلم بل من بحوث « علوم البلاغة » .

٥ — البحث فى الأصول التى جاءت منها الكلمات فى لغة ما ، بأن نبحث مثلا عن الأصول الإغريقية واللاتينية ... وغيرها التى انحدرت منها كل كلمة من الكلمات الفرنسية . — ويطلق على هذا البحث اسم « الإتيمولوجيا » Etymologie أى « أصول الكلمات » .

ويختلف هذا البحث عن البحثين السابقين (الفونيتيك والسيمنتيك) فى أنهما يدرسان أموراً كلية ويرميان إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها ظواهر الصوت أو ظواهر الدلالة ، على حين أن هذا المبحث يدرس أموراً جزئية وليس من أغراضه ولا من شأن دراسته الوصول إلى قوانين ؛ فهو يبحث عن الأصول التى جاءت منها كل كلمة من كلمات اللغة على حدتها .

ولكن الصلة وثيقة — على الرغم من ذلك — بينه وبين المبحثين السابقين . فدراسته تفيدهما كثيرا ، كما أنه ينتفع كثيراً بدراستهما . وذلك أن معرفة أصول الكلمات (موضوع هذا البحث) يساعد كثيراً على الوقوف على تطور الأصوات وتطور الدلالات وعلى كشف القوانين الخاضع لها هذا التطور فى مظهريه ، أى يعين المبحثين السابقين (الفونيتيك والسيمنتيك) على الوصول إلى أغراضهما . كما أن الوقوف على القوانين التى يخضع لها كل من الصوت والدلالة فى تطورهما (وهو موضوع المبحثين السابقين) يساعد على معرفة أصول الكلمات ، أى يساعد هذا البحث على الوصول إلى أغراضه .

هذا، ومن أهم شعب الإيتيمولوجيا شعبة تسمى « الأونوماستيك » Onomastique وموضوعها البحث عن أصول الأعلام بمختلف أقسامها : أعلام الأشخاص والقبائل والعشائر والجبال والأنهار والأمصار ... وما إلى ذلك. ومن أهم فروع « الأونوماستيك » فرع يسمى « التوبونوماستيك » Toponomastique وموضوعه البحث عن أصول أسماء الأمكنة على اختلاف أنواعها.

٦ — بحوث اجتماعية ترمى إلى بيان العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية وأثر المجتمع ومدنيته ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية .. فى مختلف الظواهر اللغوية.

وإلى هذه البحوث تحتاج معظم الفروع السابقة. لأن نشأة اللغة الإنسانية والأشكال الأولى التى ظهر فيها التعبير والأدوار التى اجتازها حتى وصل إلى مرحلة الأصوات ذات الدلالات الوضعية ... (موضوع الفرع الأول)؛ وحياة كل لغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر وقوة وضعف وسعة وضيق، وانقسامها إلى فنون وإلى لهجات وتفرع لغات عامية منها، وما تقوم به من صراع مع غيرها وما ينجم عن هذا الصراع، وما يؤول إليه أمرها من شيخوخة وهرم وفناء ... (موضوع الفرع الثانى)؛ والتطورات التى تحدث فى أصواتها ومعانيها وأساليبها وقواعدها ... (موضوع الفروع الثالث والرابع والخامس) كل أولئك وما إليه ترجع أهم عوامله إلى ظواهر اجتماعية.

فموضوعات البحث الذى نحن بصدده تمتزج بموضوعات الفروع السابقة جميعها وتفسر ظواهرها. ولذلك لا يكاد يخلو منها مبحث من مباحث علم اللغة.

غير أن علماء الاجتماع قد أخذوا على القدامى من علماء اللغة بهذا الصدد مآخذ كثيرة، ترجع إلى تقصيرهم فى بيان العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية، وانحرافهم أحياناً عن جادة الصواب فى هذه السبيل، وتفسيرهم لبعض الظواهر اللغوية تفسيراً خاطئاً يبعد بها عن المجتمع وشئونه. ولذلك أنشئوا فرعاً خاصاً فى علمهم سموه « علم الاجتماع اللغوى » Sociologie Linguistique وعالجوا فيه الظواهر اللغوية بطريقة تكشف عن العلاقات التى تربطها بمختلف الظواهر الاجتماعية، وتكفل سد ما فى البحوث القديمة من نقص وإصلاح ما بها من أخطاء. وقد أوغل بعضهم فى هذا السبيل حتى كاد ينكر أن لغير العوامل الاجتماعية أثراً فى شئون اللغة.

ومهما يكن نصيب نظرياتهم من الصواب، فهي قد أعطت هذه البحوث شخصية متميزة، وجعلتها موضوع فرع مستقل، وجعلت كثيراً من علماء اللغة أنفسهم ينزلها هذه المنزلة ويفرد لها دراسة خاصة. ولذلك سنوجه إليها قسطا كبيراً من عنايتنا في معظم فصول هذا الكتاب.

٧ — بحوث نفسية تدرس العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها من تفكير وخيال وتذكر ووجدان ونزوع .. الخ، وتبين أثر كل طائفة منها في الأخرى؛ وتشرح ما تؤديه اللغة من وظائف معتمدة في أدائها على ظواهر نفسية كالإيحاء والتأثير؛ وتعرض لما يعتمد عليه كسب الطفل للغة من قوى نفسية . . . وهلم جرا.

ولا تقل أهمية هذه البحوث في دراسة اللغة عن أهمية البحوث الاجتماعية السابقة. وذلك أن أهم العوامل التي تؤثر في الظواهر اللغوية لا تخرج عن طائفتين: ظواهر اجتماعية عامة وظواهر نفسية فردية[١].

فموضوعات البحث الذي نحن بصدده تمتزج بموضوعات الفروع السابقة جميعها وتحتاج إليها هذه الفروع في تفسير ظواهرها وتعليلها. ولذلك لا يكاد يخلو منها مبحث من مباحث اللغة.

غير أن علماء النفس قد وجهوا لهذه البحوث قسطا كبيراً من عنايتهم، وجعلوها موضوع فرع مستقل من علمهم سموه «علم النفس اللغوى» Psychologie du Langage. وتوفّر على دراسته عدد كبير من أعلامهم، فبلغوا به درجة راقية من النضج والكمال. وقد تأثر بهم كثير من علماء اللغة أنفسهم، فأفردوا لهذه الموضوعات دراسة خاصة.

بقي من البحوث اللغوية ما يسمونه «الفيلولوجيا» Philologie. — وهو بحث غير محدود النطاق ولا متميز الحدود. وذلك أن مدلول هذه الكلمة قد اختلف كثيراً باختلاف العصور وباختلاف الأمم، ولا يزال العلماء يختلفون في فهمها وإطلاقها. فأحياناً تطلق ويراد بها ما يشمل معظم البحوث السابقة. — ويكاد يتعين هذا

---

(١) تتأثر الظواهر اللغوية كذلك بالظواهر البيولوجية والفيزيولوجية والجغرافية كما سنذكر ذلك بتفصيل عند كلامنا عن علاقة علم اللغة بما عداه. ولكن أهمية هذه العوامل أقل كثيراً من أهمية الظواهر الاجتماعية والنفسية.

المعنى إذا وصفت بما يدل على عموم بحوثها ، فقيل مثلا « فيلولوجيا مقارنة » Philologie comparée .

وأحيانا تطلق ويراد بها دراسة لغة أو لغات من حيث قواعدها وتاريخ أدبها ونقد نصوصها [١] .

وأحيانا تطلق ويراد بها دراسة الحياة العقلية ومنتجاتها على العموم فى أمة ما أو فى طائفة من الأمم .

وهى بمعنيها الأخيرين تقابل ما نسميه أدب اللغة وتاريخ أدبها .

***

ويطلق على جميع البحوث السابقة – ما عدا الفيلولوجيا بمعنيها الأخيرين وما عدا المورفولوجيا التعليمى والسنتكس التعليمى والستيليستيك التعليمى – اسم «علم اللغة» [٢] «Linguistique» ou «Science du Langage» .

وقد اخترنا هذا الاسم لكتابنا لأن موضوعاته ستكون شاملة لكل البحوث التى تدخل تحت علم اللغة [٣] .

***

هذا ، وقد وضع المؤلفون من العرب أسماء لبحوث تشبه بعض البحوث السابقة . فوضعوا اسم « الصرف » لبحوث من فصيلة « المورفولوجيا التعليمى » ؛ واسم « النحو » لبحوث من فصيلة « السنتكس التعليمى » ؛ واسم « البلاغة » لبحوث من « الستيليستيك التعليمى » ؛ واسم « أدب اللغة وتاريخ أدب اللغة » لبحوث من نوع الفيلولوجيا بمعنيها الأخيرين .

---

(١) كانت إذا أطلقت فى عصر إحياء العلوم لا تنصرف إلا إلى دراسة اللغتين الإغريقية واللاتينية دراسة قواعد وأدب . ولكن الآن لا تفيد هذا المعنى إلا إذا قيدت فقيل « فيلولوجيا كلاسيكية » Phil. Classique .

(٢) يخرج كذلك بعض المؤلفين من نطاق علم اللغة البحث الخاص بنشأة اللغة . وقد أشرنا فيما سبق لمذهبهم هذا وذكرنا وجهة نظرهم (انظر ص ٤) .

(٣) يتفق كتابنا فى خطته العامة مع المنهج الحديث للسنة الرابعة لدار العلوم . فقد حرصت اللجنة التى عهد إليها بوضع المنهج فى هذه المادة والتى كان لى شرف العضوية فيها أن تكون مسائله فى السنة الرابعة شاملة لجميع البحوث التى يطلق عليها اسم علم اللغة ؛ وجعلت هذه الدراسة العامة بمثابة تمهيد وأساس للدراسة الخاصة بفقه اللغة العربية الذى رأت إرجاءه إلى السنة الخامسة .

غير أنهم لم يطلقوا هذه الأسماء إلا على ما يتعلق من البحوث السابقة باللغة العربية وحدها .

ومهما يكن من شيء فقد علمت أن «المورفونوجيا التعليمي» و «السنتكس التعليمي» و «الستيليستيك التعليمي» و «الفيلولوجيا» بمعنيها الأخيرين ، ليست من علم اللغة فى شيء .

أما بحوث علم اللغة نفسه فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة أشهرها اسم «فقه اللغة» (١) .

وهذه التسمية هى خير ما يوضع لهذه البحوث ؛ فان فقه الشيء هو كل ما يتصل بفلسفته وفهمه والوقوف على ما يسير عليه من نواميس . فقد قال صاحب المصباح : «الفقه فهم الشيء» وقال ابن فارس : «كل علم لشيء فهو فقه» .

وقد كنا نود أن نسمى كتابنا باسم «فقه اللغة» لولا أن هذا الاسم قد خصص مدلوله فى الاستعمال المألوف ، فأصبح لا يفهم منه إلا البحوث المتعلقة بفقه اللغة العربية وحدها .

(٢) أغراض علم اللغة

يرمى هذا العلم من وراء دراسته للظواهر اللغوية السابق بيانها إلى أغراض وصفية تحليلية يرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

١ — الوقوف على حقيقة الظواهر اللغوية والعناصر التى تتألف منها والأسس القائمة عليها .

٢ — الوقوف على الوظائف التى تؤديها فى مختلف مظاهرها وفى شتى المجتمعات الإنسانية .

٣ — الوقوف على العلاقات التى تربطها بعضها ببعض والعلاقات التى تربطها بما عداها من الظواهر : كالظواهر الاجتماعية والنفسية والتاريخية والجغرافية والطبيعية والفيزيولوجية والبيولوجية والأنتروبولوجية . . . وهلم جرا .

٤ — الوقوف على أساليب تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور .

٥ — كشف القوانين التى تخضع لها فى جميع نواحيها والتى تسير عليها فى مختلف

(١) سيأتى تفصيل ذلك فى الفقرة الخاصة بتاريخ البحوث اللغوية .

مظاهرها (القوانين التى تسير عليها فى تكونها ونشأتها وأدائها لوظائفها وعلاقاتها المتبادلة وعلاقاتها بغيرها وتطورها . . . وما إلى ذلك) .

وهذا الغرض الأخير هو الأساسى لبحوث علم اللغة ؛ بل يكاد يكون غرضها الفذ ؛ وذلك أن الأغراض السابقة ليست فى الواقع إلا وسائل للوصول إليه . فعلم اللغة لا يعرض لحقيقة الظواهر اللغوية والوظائف التى تؤديها والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض والتى تربطها بغيرها والتطورات التى تعتورها . . . لا يعرض لهذا كله لمجرد الوصف وسرد الحقائق التاريخية ، ولكن ليصل على ضوئه إلى كشف القوانين الخاضعة لها هذه الظواهر .

(٣) قوانين العلوم

وبهذه المناسبة لا نرى مندوحة عن ذكر كلمة عن قوانين علم اللغة التى قررنا أنها الغرض الأساسى من دراساته . ـ وسنمهد لهذا بالكلام عن قوانين العلوم على العموم فنقول :

تطلق كلمة القوانين فى العرف العلمى على الأصول العامة التى تبين ارتباط الأسباب بمسبباتها والمقدمات بنتائجها اللازمة ؛ أو بعبارة أخرى التى تنبىء بحدوث نتائج معينة لازمة إذا حدثت أسباب خاصة وترجع النتائج الحادثة إلى أسبابها . فما يقرره علماء الرياضيات والطبيعيات والاقتصاد وغيرهم من القواعد التى تبين علاقة السببية بين أمرين أو أكثر يصدق عليه اسم قوانين . وذلك كقوانين ضرب عدد فى عدد [١] وقوانين الربح [٢] وقانون تساوى المثلثين [٣] فى الرياضيات ، وقانون الجذب العام وقانون أرشميدس [٤] وقانون بويل [٥] فى الطبيعيات ، وقوانين العرض

---

(١) مثال ذلك : إذا ضربت أربع وحدات فى خمس وحدات كان الحاصل عشرين وحدة .

(٢) مثال ذلك : ربح مبلغ ما يساوى حاصل ضرب رأس المال فى الزمن فى السعر مقسوما على مائة ،

(٣) مثال ذلك : ينطبق المثلثان كل على الآخر تمام الانطباق إذا ساوى فى كل ضلعان والزاوية المحصورة بينهما نظائرها فى الآخر .

(٤) كل جسم مغمور فى سائل يكون مدفوعا من أسفل إلى أعلى بقوة تساوى وزن السائل الذى يحل محله .

(٥) فى درجة الحرارة الواحدة تكون حجوم مقدار معين من غاز مناسبة للضغوط الواقعة عليه تناسبا عكسيا .

والطلب[١] وقانون جريشام[٢] فى الاقتصاديات . . . وهلم جرا .

هذا ، وقد فطن الإنسان منذ عصور سحيقة فى القدم إلى خضوع الكواكب والنجوم فى سيرها وبزوغها وأفولها لقوانين ثابتة مطردة ، هدته إلى ذلك مشاهداته اليومية وملاحظته لاطراد النظام الذى تسير عليه هذه الأجرام . وعلى هذه المشاهدات أسس أول علم عرفه بنو الإنسان وهو علم الفلك .

ومع ارتقاء الفكر الإنسانى أخذ الاعتقاد بخضوع الظواهر لقوانين ثابتة يتسع نطاقه قليلا قليلا حتى شمل كل نواحى الطبيعة وكل مظاهر الحياة ، وحفز الباحثين على إنشاء علوم الطبيعة والكيمياء والجغرافيا والبيولوجيا والفيزيولوجيا والتاريخ الطبيعى ... وما إلى ذلك من البحوث التى لم تدع ظاهرة من ظواهر الطبيعة ولا ناحية من نواحى النمو حتى كشفت عما يسيطر عليها من قوانين .

ولم يمض على ذلك أمد طويل حتى تمكن العلماء من الوقوف على القوانين الطبيعية الخاضعة لها الرياح والعواصف والأمواج . . وما إلى ذلك من الظواهر التى كانت مضرب الأمثال فى التقلب وعدم الاستقرار والتى كان الشعراء يجعلونها رمزاً للتحرر من ربقة القواعد والقوانين . فأنشئوا « الميتيورولوجيا » (علم الأحوال الجوية) و « الأسيونوجرافيا » علم أحوال المحيطات ، وتمكنوا فى بحوثهم الجغرافية وغيرها من الكشف عن القوانين الخاضعة لها التيارات البحرية والزلازل والبراكين .

وقد كان لزاما بعد هذا كله أن تتجه الأفكار شطر الإنسان والمجتمع الإنسانى وأن يتساءل الباحثون عما إذا كانت الأعمال الإنسانية الفردية والاجتماعية خاضعة لقوانين شبيهة بالقوانين الخاضعة لها ظواهر الطبيعة . غير أنهم قد طال تساؤلهم وترددوا كثيراً بهذا الصدد . وذلك أن كلا من الظواهر الفردية والاجتماعية تبدو حرة طليقة غير خاضعة لما نسميه بالقوانين ، فالأولى تبدو أنها من صنع الفرد يسيطر عليها ويسيرها وفق ما يراه ، والأخرى تبدو أنها من صنع المجتمعات تخلقها خلقاً وتغير فيها حسب ما تشاء وتشاء لها أهواؤها . فتذكر الفرد أمراً من الأمور ونسيانه لأمر آخر ، وارتفاع ثمن سلعة ما أو انخفاضه ، واختلاف مدلول كلمة ما فى عصرين أو اختلاف حروفها

---

(١) يرتفع الثمن كلما زاد الطلب أو قل العرض وينخفض الثمن كلما قل الطلب أو زاد العرض . — كلما ارتفع الثمن قل الطلب وزاد العرض وكلما انخفض الثمن زاد الطلب وقل العرض .

(٢) إذا اجتمع نقدان فى التعامل أحدهما ردىء والآخر جيد فإن الردىء يتغلب على الجيد ويطرده من السوق .

وأصواتها فى جيلين متعاقبين . . . هذه الأمور وما إليها من الظواهر الإنسانية الفردية والاجتماعية تظهر للنظرة الأولى أنه لا سيطرة عليها لغير إرادة الأفراد والمجتمعات وأهوائهما ، ويصعب بداءة ذى بدء الاعتقاد بخضوعها لقوانين ثابتة مضطردة كالقوانين الخاضع لها القمر فى تزايده وتناقصه أو النهار والليل فى اختلافهما باختلاف الفصول .

لمثل هذه الشبهات لم ينفك الباحثون يقدمون فى هذا السبيل رجلا ويؤخرون أخرى ، حتى ظهر فى أواخر القرون الوسطى العلامة ابن خلدون وألف مقدمته الشهيرة التى أثبت فيها بالأدلة القاطعة أن أعمال المجتمع وظواهر العمران خاضعة فى مختلف نواحيها لقوانين لا تقل فى صرامتها واطرادها عن القوانين الخاضعة لها الظواهر الطبيعية . ـ غير أن آراءه وبحوثه فى هذه الناحية لم يتح لها ما كانت أهلا له من الذيوع والانتشار وما كان يعوزها من التنقيح والتهذيب إلا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين . فقد ظهر فى هذين القرنين فى مختلف بلدان أوروبا وبخاصة فى فرنسا طائفة من قادة الفكر لم تدع مؤلفاتهم أى مجال للريب فى خضوع الظواهر الاجتماعية بمختلف أنواعها لقوانين يمكن استنباطها من ملاحظة هذه الظواهر فى مختلف أحوالها وفى شتى الأمم والعصور . ومن ذلك الحين أخذ المشتغلون بدراسة الظواهر الاجتماعية يوجهون كل عنايتهم إلى كشف القوانين الخاضعة لها ، وأخذت العلوم الاجتماعية تظهر شيئاً فشيئاً وينمو عددها قليلا قليلا ويتكون من فروعها مجموعة حديثة بجانب المجموعتين القديمتين وأعنى بهما العلوم الرياضية والطبيعية .

(٤) قوانين علم اللغة

على هذا الأساس قام علم اللغة كما قام غيره من العلوم الاجتماعية ، واتجهت عناية الباحثين فيه إلى كشف القوانين الخاضعة لها الظواهر اللغوية فى مختلف أشكالها ومناحيها . وقد اهتدوا إلى طائفة كبيرة من هذه القوانين منها ما يتعلق بالأصوات ، ومنها ما يتعلق بالدلالات ، ومنها ما يتعلق بحياة اللغة ، ومنها ما يتعلق بوظائفها . . . ، بعضها خاص يصدق على لغة معينة ، وبعضها عام ينطبق على فصيلة من اللغات ، وبعضها أعم يصدق على جميع اللغات . ـ وسيمرّ بك فى كل باب من أبواب هذا الكتاب أمثلة كثيرة من هذه القوانين ؛ وسترى على ضوئها أن الظواهر اللغوية لا تسير وفقاً لإرادة الأفراد والمجتمعات ، أو تبعاً للأهواء والمصادفات ، وإنما تسير وفقاً لنواميس لا تقل فى ثباتها

وصرامتها واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك والطبيعة . ـ فقد يكون فى استطاعة الفرد أو فى استطاعة الجماعة اختراع لفظ أو تركيب ؛ ولكن بمجرد أن يقذف بهذا اللفظ أو بهذا التركيب فى التداول اللغوى وتتناقله الألسنة يفلت من إرادة مخترعه ويخضع فى سيره وتطوره وحياته . . . لقوانين ثابتة صارمة لا يستطيع الفرد ولا الجماعة إلى تعويقها أو تغييرها سبيلا . فالكلمة الجديدة أو التركيب الجديد أشبه شىء بحجر يقذف به القاذف فى جهة معينة بقوة خاصة ، فإنه بمجرد أن يفارق يده يخضع فى سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره على تعطيلها أو وقف آثارها .

ومن هذا يظهر أنه ليس فى قدرة الأفراد والجماعات أن يقفوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يحولوا دون تطورها على الطريقة التى ترسمها قوانين علم اللغة . فمهما أجادوا فى وضع معجماتها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها وضبط قواعدها وأصواتها وكتابتها ، ومهما أجهدوا أنفسهم فى إتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقاً وفى وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة فى محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف . . . ، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير فى السبيل الذى تريدها على السير فيه سنن التطور والارتقاء والتى ترسمها قوانين علم اللغة .

ومن ثم يظهر كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالمية (إسبرنتو Espéranto) يتحدث بها الناس من مختلف الأمم والشعوب . وذلك أن هذه اللغة الصناعية ، على فرض إمكان اختراعها وإلزام الناس باستخدامها [١] ، لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع فى أصواتها ومدلولاتها وحياتها وتطورها لجميع القوانين التى تخضع لها اللغات الطبيعية والتى خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان ، فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين فى التكوين الطبيعى لجسومهم وأعضاء نطقهم ، وفى الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفى قواهم الإدراكية والوجدانية ، وما دامت سنة الطبيعة تقضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له فى كل هذه الأمور ، فلا بد أن تختلف هذه اللغة الصناعية فى كلماتها وأصواتها ودلالاتها

(١) هذه الأمنية ، وإن كانت ممكنة نظريا ، يحول دون تحقيقها عمليا صعوبات جمة سنعرض لها فى الفصل الخامس الذى سنقفه على هذا الموضوع .

وتراكيبها . . . باختلاف العصور وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وتختلف أقسامها باختلاف فنونها ، وتنقسم إلى لهجات يختلف كل منها عما عداه ، وتتفرع منها لغات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالا تاماً وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من اللغات ؛ وهكذا لا يمضى زمن قصير أو طويل حتى يتولد من هذا العلاج نفس المشكلة التى حاولنا القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » ؛ « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » .

(٥) قوانين « الفونيتيك » وقوانين « السيمنتيك »

غير أن علماء اللغة لم يصلوا بعد إلى استنباط قوانين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إلا فى الشعبة الخاصة بدراسة الأصوات (الفونيتيك) . أما فى الشعبة الخاصة بالدلالة (السيمنتيك) فكثير مما كشفوه لم يصل بعد فى دقته وضبطه وعمومه إلى المستوى الذى يستحق فيه اسم « القوانين » .

والسبب فى ذلك راجع إلى أن الظواهر الصوتية فى مختلف أشكالها ترجع أهم عواملها إلى أعضاء النطق وطريقة أدائها لوظائفها وتأثرها بالظواهر الجغرافية وأساليب انتقالها بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع وما إلى ذلك . وعوامل هذه طبيعتها من الممكن تحديد آثارها وتحديد العلاقات التى توجد بينها وبين مختلف الظواهر اللغوية . فطبيعة الظواهر التى تدرسها هذه الشعبة تسمح باستنباط قوانين دقيقة مضبوطة .

وليس الأمر كذلك فى الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة (موضوع السيمنتيك) . وذلك أن العوامل التى تؤثر فى معانى الكلمات وفى قواعد اللغة وأساليبها فتؤدى إلى اختلافها وتطورها ... وما إلى ذلك ، يرجع أهمها إلى ظواهر اجتماعية وتاريخية وسياسية وجغرافية وثقافية . . . وهلم جرا . وعوامل هذا شأنها ليس من اليسير تحديد آثار كل منها وتحديد العلاقات التى تربطه بالظواهر اللغوية . ـ فلا ينبغى أن ننتظر من علم اللغة أن يصل فى هذه الناحية إلى قوانين ثابتة صارمة عامة إلا بعد زمن طويل ومجهود جبار .

(٦) الشعبة التى ينتمى إليها علم اللغة

تمهيد فى تعريف العلم والفن وأمثلتهما وأقسام كل منهما

ترجع جميع شعب البحوث إلى قسمين : بحوث علمية وبحوث فنية .

ويطلق العلم Science اصطلاحاً على كل بحث موضوعه دراسة طائفة معينة من الظواهر لبيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض والتى تربطها بغيرها وكشف القوانين الخاضعة لها فى مختلف نواحيها .

ويطلق الفن Art اصطلاحا على كل بحث موضوعه بيان الوسائل التى ينبغى الالتجاء إليها للوصول إلى طائفة معينة من الغايات العملية .

فالبحث فى جسم الإنسان مثلا يختلف الحكم عليه باختلاف ما يرمى إليه من أغراض . فإن كان الغرض منه شرح أعضائه وأجهزته وبيان العناصر التى تتألف منها ، ومعرفة الوظائف التى تقوم بها ، والوقوف على تطورها ونموها ، وتوضيح العلاقات التى تربطها بعضها ببعض والتى تربطها بغيرها ، وكشف القوانين التى تخضع لها فى تكونها ونشوئها وتطورها وأدائها لوظائفها . . صدق عليه أنه « علم » . — وإن كان الغرض منه بيان الوسائل التى ينبغى الالتجاء إليها لشفاء الجسم مثلا مما عسى أن ينتابه من مرض واختلال ، صدق عليه أنه « فن » . — ومن ثم يعدون « الفيزيولوجيا » علماً ، لأنها تدرس جسم الإنسان من وجهة النظر الأولى ؛ على حين أنهم يعتبرون « الطب » من طائفة الفنون ، لأنه يدرس جسم الإنسان من وجهة النظر الثانية .

وكذلك البحث فى القوى العقلية ، فالحكم عليه يختلف باختلاف الطريق التى يسير فيها والغرض الذى يرمى إليه . فإذا كان موضوعه وصف هذه القوى وشرحها ببيان حقيقتها والعناصر التى تتألف منها ، والوظائف التى تؤديها ، والمراحل التى تجتازها فى نموها ، والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض والتى تربطها بغيرها ، والقوانين الخاضعة لها فى مختلف نواحيها . . . كان جديراً باسم « العلم » . — وإن كان الغرض منه بيان الوسائل التى ينبغى الالتجاء إليها للتأثير فى هذه القوى وتربيتها وتهذيبها . . . صدق عليه أنه « فن » . — ومن ثم كانت بحوث « السيكولوجيا » (علم النفس) من طوائف العلوم وكانت « البيداجوجيا العامة » (التربية العامة) شعبة من شعب الفنون .

ومن هذا يتبين أن أهم فارق بين العلوم والفنون أن الأولى نظرية وصفيه تحليلية

ترمى إلى شرح ما هو كائن ، على حين أن الأخرى عمليه تطبيقية يهمها بيان ما ينبغى أن يكون[1] .

هذا ، وتنقسم الفنون قسمين رئيسيين :

١ — فنون يقينية Arts rationnels ، وهى ما كانت بحوثها الفنية مؤسسة على بحوث علمية ومستمدة منها . وذلك كفن الطب الحديث ، فإنه مؤسس على علم «الفيزيولوجيا» ، وكفنون التربية الحديثة ، فإن الخطط التى ترسمها للتأثير فى جسم الطفل وعقله وخلقه مؤسسة على بحوث علم النفس وعلم وظائف الأعضاء وما إليهما .

٢ — فنون غير يقينية Arts irrationnels ، وهى ما كانت بحوثها الفنية غير مؤسسة على بحوث علمية . وذلك كفنون السحر والشعوذة والطب القديم وما إلى ذلك من الفنون التى تعتمد فيما تقرره على العقائد أو الأساطير أو الخرافات أو على محض التجارب .

أما العلوم فتنقسم باعتبار الظواهر التى تدرسها إلى ثلاث طوائف رئيسية :

١ — العلوم الرياضية ، وهى العلوم التى تدرس خواص الكم من حيث إنه معدود أو مقيس ، كالحساب والجبر والهندسة وما إليها .

٢ — العلوم الطبيعية ، وهى التى تدرس ظواهر الكون سماوية كانت أم أرضية عضوية كانت أم غير عضوية ، كالفلك والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية وعلم الحيوان وعلم النبات والطبيعة والكيمياء . . . وما إليها .

٣ — العلوم الإنسانية ، وهى التى تبحث فى الإنسان أو فى المجتمع الإنسانى . وهى لذلك تنقسم قسمين :

(أولا) علوم فردية ، وهى التى تدرس الإنسان من حيث إنه فرد كالأنتروبولوجيا (علم الإنسان) والفيزيولوجيا الإنسانية (علم وظائف الأعضاء الإنسانية) والسيكولوجيا (علم النفس) .

(ثانيا) علوم اجتماعية وهى التى تدرس الإنسان من حيث إنه عضو فى مجتمع ، أو بعبارة أخرى تدرس العلاقات التى تتكون بين أفراد يضمهم مجتمع . — ولتعدد هذه

---

(١) ولا صحة لما ذهب إليه فونت Wündt من أن العلوم تنقسم قسمين : وصفية موضوعها الوصف والتحليل ، ومعيارية Normatives موضوعها بيان ما يجب عمله ؛ لأن فى تقسيمه هذا خلطا بين العلوم والفنون ؛ ولأن البحوث التى سماها علوما معيارية ليست فى الحقيقة إلا فنونا . — هذا وقد كفانا العلامة « ليفى برول Levy Bruhl » مئونة الإطالة فى الرد على هذه النظرية بما كتبه عنها فى مؤلفه الجليل « الأخلاق وعلم الاجتماع الخلق » La Morale et La Science des Mœurs .

العلاقات تعددت علوم هذه الطائفة : فمنها ما يدرس العلاقات السياسية ويبحث فى نشأة الأمم وتطورها ونظم الحكم فيها وعلاقاتها بعضها ببعض . . . الخ ، ويسمى « علم السياسة » ؛ ومنها ما يدرس النظم القضائية وتطورها والأسس المبنية عليها .. وما يتصل بذلك ، ويسمى « علم الحقوق » ؛ ومنها ما يدرس النظم الدينية ويبحث فى أصولها وتطورها وآثارها ، ويسمى « علم الأديان » ؛ ومنها ما يبحث فى النظم الاقتصادية المتعلقة بإنتاج الثروة واستبدالها وتوزيعها واستهلاكها ويشرح حقيقتها ونشأتها وتطورها والأسس القائمة عليها ووظائفها والقوانين الخاضعة لها . . . ويسمى « علم الاقتصاد السياسى » ؛ ومنها ما يبحث فى النظم الخلقية ويسمى « علم الأخلاق » . . . وهلم جرا .

وتمتاز هذه الطائفة الأخيرة عن بقية طوائف العلوم بشدة الصلة التى تربط فروعها بعضها ببعض . فبحوث علم الأخلاق تمتُّ بصلة وثيقة إلى بحوث علم الأديان ؛ وبحوث علم السياسة شديدة الارتباط ببحوث علمى الأخلاق والحقوق . . . وهلم جرا . — والسبب فى هذا راجع إلى أن فروع هذه الطائفة متحدة فى موضوعها الرئيسى وهو الإنسان من حيث إنه عضو فى مجتمع ، وإلى أن النظم الاجتماعية التى تدرسها متداخل بعضها فى بعض ومتأثر بعضها ببعض لدرجة تجعل تقسيمها إلى فروع ضرباً من الاصطلاح ومجرد وسيلة لتسهيل الدراسة . — وهذا ما حدا بأوجيست كونت Auguste Comte على أن يجمعها كلها تحت لواء علم واحد سماه علم الاجتماع أو « السوسيولوجيا » Sociologie .

وعلى العكس من ذلك العلوم الطبيعية ؛ فإن موضوعات كل فرع منها متميزة تمام التميز عن موضوعات ما عداه . فموضوعات الجيولوجيا مثلا لا يمكن أن تلتبس بموضوعات علم الفلك ؛ إذ الأول يدرس طبقات الأرض على حين أن الثانى يبحث فى أفلاك السماء .

الشعبة التى تنتمى إليها بحوث علم اللغة

فإذا عرفت هذا ورجعت إلى ما قلناه فى الفقرات السابقة عن بحوث علم اللغة وموضوعاتها وأغراضها وقوانينها ، ظهر لك أن هذه البحوث من طائفة العلوم لا الفنون وأنها من فصيلة العلوم الاجتماعية . أما أنها من طائفة العلوم فذلك لأنها ترمى من وراء دراستها للظواهر اللغوية إلى أغراض وصفية تحليلية ترجع إلى الوقوف على حقيقتها والعناصر التى تتألف منها ، والوظائف التى تؤديها ، والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض

والتى تربطها بما عداها ، وأساليب تطورها ، والقوانين التى تخضع لها فى مختلف نواحيها ؛ وبالجملة : تدرس الظواهر اللغوية لشرح ما هو كائن لا لبيان ما ينبغى أن يكون . وقد تقدم أن كل بحث هذا شأنه يسمى علماً . ـ وأما أنها من فصيلة العلوم الاجتماعية ، فذلك لأن موضوع العلوم الاجتماعية ، كما تقدم ، هو دراسة العلاقات التى تتكون بين أفراد يضمهم مجتمع . ومن الواضح أن الظواهر اللغوية التى تدرسها بحوث علم اللغة ليست إلا شعبة من شعب هذه العلاقات . فالنظم اللغوية التى تسير عليها أفراد أمة ما فى تفاهمهم والتعبير عما يجول بخواطرهم لا تختلف فى هذه الناحية عن النظم الاقتصادية التى يسيرون عليها فى مبادلاتهم ، والنظم الدينية التى يتبعونها فى عباداتهم وعقائدهم وفهمهم لما وراء الطبيعة ، والنظم الخلقية التى يأخذون بها فى تمييزهم بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، والنظم العائلية التى يخضعون لها فى الزواج والطلاق والتوريث وتحديد درجة القرابة ، والنظم السياسية التى يحتذونها فيما يتعلق بشكل الحكومة ونظام الحكم وتوزيع السلطات وحقوق كل سلطة وواجباتها ، والنظم القضائية التى يطبقونها فى الجرائم والعقوبات والمسئولية والعقود والالتزامات . ــ فكما أن كلا من النظم الاقتصادية والدينية والخلقية والعائلية والسياسية والقضائية تنظم ناحية من العلاقات الاجتماعية ، كذلك النظم اللغوية تنظم ناحية هامة من هذه العلاقات وهى الناحية المتصلة بالتفاهم بين الأفراد والتعبير عما يجول بالخواطر .

(٧) الانتفاع ببحوث علم اللغة من الناحية العملية

غير أنه من الممكن الانتفاع بحقائق هذا العلم من الناحية العملية ، أى الاهتداء على ضوئه إلى ما ينبغى عمله فى ظواهر اللغة ، شأنه فى ذلك شأن غيره من العلوم . فكما أن بحوث الفيزيولوجيا التى تدرس وظائف الأعضاء دراسة علمية ، أى دراسة وصف وتحليل ، قد أقيم على أسسها فنّ الطب الذى يشرح الوسائل التى ينبغى الالتجاء إليها للوصول إلى طائفة معينة من الغايات العملية المتصلة بجسم الإنسان ؛ وكما أن بحوث السيكولوجيا (علم النفس) التى تدرس القوى النفسية لمجرد وصفها وتحليلها وكشف القوانين الخاضعة لها ، قد أقيم على أسسها فن « البيداجوجيا » الذى يشرح الوسائل التى ينبغى اتخاذها لتربية قوى الطفل النفسية وتعليتها وتهذيبها وإعدادها إعداداً صالحاً للحياة المستقبلة ، كذلك من الممكن أن يقام على القواعد التى يكشفها علم اللغة بحوث فنية

ترشدنا إلى ما ينبغى عمله فى مختلف الشئون اللغوية : فترشدنا مثلا إلى خير الوسائل التى ينبغى اتخاذها فى تعليم اللغات الحية وغيرها ، وفى وضع كتب القواعد والأدب وطرق تدريسها ، وفى إصلاح قواعد الإملاء والشكل والترقيم ، وفى تدوين معاجم اللغة وضبط مفرداتها وتحديد دلالاتها ، وفى النهوض باللغة ومحاربة مايطرأ عليها من لحن أو تحريف ، وفى تهذيب مصطلحاتها وتوسيع نطاقها وترقية لهجاتها العامية وإدخال مفردات جديدة على مفرداتها ، وفى إحلال لغة أخرى محلها ، وفى إنشاء لغة عالمية يتحدث بها جميع أفراد النوع الإنسانى . . . وما إلى ذلك من الشئون اللغوية التى تشغل الآن قسما كبيراً من نشاط الباحثين والمصلحين والتى من أجلها تنشأ المجامع اللغوية و « الأكاديميات » وينظم عدد كبير من المؤتمرات المحلية والدولية .

وفى الحق أن كثيراً من المصلحين والمفكرين قد أخذوا الآن يولّون وجوههم فى حلّ هذه المشاكل شطر علم اللغة ويستمدون منه المعونة ويقيمون إصلاحاتهم على الأسس التى تقررها قوانينه وتطمئن إليها قواعده ، بعد أن كانوا من قبل يصدرون عن آراء فردية فطيرة وتسيرهم آمال ورغبات لا سند لها من العلم الصحيح . — ومن ثم اضطروا إلى تغيير كثير من الخطط الفاسدة التى كانوا يسيرون عليها من قبل ؛ وأخذوا ينصرفون عن كثير من المشروعات التى شغلتهم زمناً غير قصير ، بعد أن تبين لهم من قوانين علم اللغة استحالة تنفيذها ، كمشروع إنشاء لغة عالمية .

فإذا هذبت هذه البحوث الفنية وربطت فى مختلف نواحيها ببحوث علم اللغة ، ونسقت موضوعاتها ، ونظمت مسائلها ، وجمعت نتائجها ، وفصلت عما عداها من البحوث ، ودونت فى مؤلفات مستقلة ، لايلبث أن يتكون منها فن يقينى شبيه بالفنون التى تكونت على أسس الفيزيولوجيا والسيكولوجيا كالطب والتربية العامة وما إليهما — ويظهر للمتأمل فى هذه البحوث أنها سائرة إلى هذه الغاية بخطى حثيثة وأن اليوم الذى يتم فيه تكوين هذا الفن بالشكل الذى وصفناه ليس ببعيد .

(٨) علاقة علم اللغة بما عداه من البحوث

تقدم أن علم اللغة من العلوم الاجتماعية وأن طائفة العلوم الاجتماعية تمتاز عن بقية طوائف العلوم بشدة الصلة التى تربط فروعها بعضها ببعض [١] . فعلم اللغة متصل إذن

(١) انظر آخر ص ١٩ وصفحتى ٢٠ ، ٢١ .

اتصالا وثيقاً ببقية أفراد فصيلته ونعنى بها العلوم الاجتماعية . وذلك أن للظواهر الاجتماعية بمختلف أنواعها آثاراً بليغة فى مختلف شئون اللغة . فنشأة اللغة، وانقسامها إلى فصائل، وحياتها، وانتشارها، وما يطرأ عليها من قوة وضعف وسعة وضيق وعظمة وضعة، وصراعها مع غيرها وانتصارها أو هزيمتها واحتلالها مناطق كانت تابعة لغيرها أو تخليها لغيرها عن بعض مناطق نفوذها، وتعدد مظاهرها تبعاً لتعدد فنونها، وانقسامها إلى لهجات وتفرع لغات عامية منها، واختفاؤها اختفاءاً كلياً أو جزئياً، والتطورات التى تحدث فى أصواتها ومدلولاتها وأساليبها وقواعدها ... كل أولئك وما إليه لا يمكن فهمه والوقوف على أصوله وأسبابه إلا على ضوء الظواهر الاجتماعية الأخرى من سياسية ودينية واقتصادية .. وهلم جرا . فلا غرابة إذن أن تكون الصلة وثيقة بين العلم الذى يدرس الظواهر اللغوية (علم اللغة) والعلوم التى تدرس الظواهر الاجتماعية الأخرى كعلوم السياسة والأديان والاقتصاد والتاريخ ... وما إلى ذلك.

وليس علم اللغة مرتبطا بالعلوم الاجتماعية فحسب، بل إن بحوثه متصلة كذلك ببحوث علم النفس . فكثير من المسائل التى يعرض لها يتوقف شرحها وفهمها وبيان أصولها وأسبابها على الرجوع إلى ما يرتبط بها من الظواهر النفسية وإلى ما يقوله علم النفس بصددها . فتكوين المتكلم لعباراته وفق أفكاره، وإدراك السامع الحديث وفهمه له، وصوغ العبارات وتدوينها كتابة، وفهم القارىء لنقوش الكتابة، وكسب الطفل للغته، وأداء اللغة لوظائفها الدلالية والإيحائية والتأثيرية، وانحطاط لغة فى عصر ما أو عند بعض الشعوب الناطقة بها وارتقاؤها فى عصر آخر أو عند شعوب أخرى، وتعدد فروع اللغة تبعاً لتعدد نواحى التفكير، وتطور اللغة فى مدلولات كلماتها وأساليبها .... كل هذه الظواهر وما إليها تعتمد اعتماداً جوهرياً على ظواهر عقلية كالإدراك الحسى والتفكير وإدراك المعانى الكلية والحكم والاستدلال وخيال الحركة والخيال السمعى والخيال النظرى والحافظة والذاكرة وتداعى المعانى والحالات الوجدانية والانتباه والعادة ومظاهر النزوع والإرادة والأمزجة ووراثة الصفات النفسية .. وهلم جرا . ومن الواضح أن هذه الظواهر هى موضوع علم النفس؛ ولا يمكن فهمها وتحديد صلتها باللغة وأثرها فيها إلا بالرجوع إليه .

ويتصل علم اللغة كذلك بالبحوث التاريخية والجغرافية . فكثير من الظواهر اللغوية

التى يعرض لها ترجع عواملها وأصولها إلى ظواهر جغرافية وتاريخية. فانتشار اللغة وصراعها مع غيرها وانتصارها أو هزيمتها واحتلالها مناطق كانت تابعة لغيرها أو تخليها لغيرها عن بعض مناطق نفوذها، وانقسامها إلى لهجات وتفرع لغات عامية منها، وانتشار الدخيل بين ألفاظها، واستعارتها كلمات من غيرها، وتأثرها بقواعد غيرها من اللغات أو بأساليبها، وما يطرأ عليها فى أثناء حياتها من قوة وضعف وسعة وضيق. والتطورات التى تحدث فى أصواتها ومدلولاتها وأساليبها ... كل ذلك وما إليه ترجع طائفة من أسبابه إلى ظواهر تاريخية وجغرافية: كالغزو، وتغلب أمة على أخرى، والهجرة، واندماج أمم بعضها فى بعض، واتصال الأمة بما عداها، واعتناقها ديناً غير دينها الأصلى ...؛ وكالموقع الجغرافى للملكة، وحالة الجو، وطبيعة الأرض، وما تشتمل عليه من تضاريس وجبال وفجوات وخلجان، والحدود الطبيعية التى تفصل أجزاء المملكة الواحدة أو تفصل المناطق الناطقة بلغة واحدة بعضها عن بعض .. وهلم جرا.

ويتصل علم اللغة كذلك بعلوم الطبيعة ووظائف الأعضاء والتشريح والبيولوجيا والأنتروپولوجيا. فهو يستعين ببحوث علم الطبيعة فى تحليل الصوت والوقوف على خواصه وقوته ومدته وموجاته وذبذبته وانتشاره وما يتصل بذلك. ويستعين بالتشريح والفيزيولوجيا الإنسانية (وظائف أعضاء الإنسان) فى الوقوف على مخارج الحروف وتحليل أعضاء النطق والسمع، والوقوف على وظائفها، وكيفية قيامها بهذه الوظائف، واختلافها باختلاف الأفراد، واختلافها فى الفرد الواحد باختلاف سنه، واختلافها باختلاف الأمم، واختلافها فى الأمة الواحدة باختلاف عصورها، وبيان أثر هذه الظواهر جميعها وما إليها فى اللغة ونشأتها وتطورها. ويستعين بالبيولوجيا (علم الحياة) والأنتروپولوجيا (علم الإنسان) فى الوقوف على نشأة الفصيلة الإنسانية، ونشأة مركز اللغة عند الإنسان، ونشأة أجهزة السمع والنطق، والتطورات التى اجتازتها الفصيلة الإنسانية فيما يتعلق بالتكوين الجسمى وعلى الأخص تكوين أعضاء السمع والنطق، وفى الوقوف على قوانين الوراثة وانتقال الصفات الجسمية من الأصول إلى الفروع، وبيان أثر هذه الظواهر كلها وما إليها فى اللغة الإنسانية نشأتها وانتشارها وتطورها[1].

(١) لم يفكر علماء اللغة فى الاستعانة بعلوم الطبيعة والفيزيولوجيا والتشريح والبيولوجيا والأنتروپولوجيا إلا منذ عهد قريب.

وحمادى القول : إن علم اللغة يتصل بكل طوائف العلوم غير أن صلته بأفراد فصيلته ، ونعنى بها العلوم الاجتماعية ، أشد من صلته بالطوائف الأخرى . — على أن ما يصدق على علم اللغة بهذا الصدد ، يصدق على ما عداه من العلوم : فالمعارف الإنسانية كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

هذا ، وتشتد حاجة علم اللغة إلى علوم الطبيعة والفيزيولوجيا والتشريح والأنتروپولوجيا فى بحوثه الخاصة بالأصوات (شعبة الفونيتيك [1]) ؛ على حين أن حاجته إلى الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا تشتد فى بحوثه المتعلقة بالدلالة (شعبة السيمنتيك [2]) والمتعلقة بحياة اللغة [3] . . . وما إلى ذلك .

(٩) مناهج البحث فى علم اللغة

يراد بمناهج البحث الطرق التى يسير عليها العلماء فى علاج المسائل والتى يصلون بفضلها إلى ما يرمون إليه من أغراض . وقد تقدم لك أن العلوم تتفق جميعها فى اتجاهاتها الأساسية وفى وجهة نظرها إلى الظواهر التى تعالجها وفى الأغراض العامة التى ترمى إليها من وراء دراساتها . وقد كان لزاماً ، وهى متفقة فى هذه الأمور ، أن تتحد فيها بعض مناهج البحث . ولذلك كان من بين مناهج البحث بعض طرق تستخدم فى مختلف فروع العلوم . ـ ويطلقون على هذه الطرق اسم « الطرق العامة » أو « مناهج البحث المشتركة » .

ولكن لكل فرع منها موضوعات معينة وأغراضاً خاصة يمتاز بها عما عداه من الفروع . وقد نجم عن هذا أن استخدم كل علم منها فى دراسته ـ زيادة على الطرق العامة التى سبق ذكرها ـ طرقاً خاصة به تتفق مع طبيعة موضوعاته وتدعو إليها مميزات ظواهره وما يرمى إليه من أغراض خاصة به .

ولكل شعبة من شعب العلم الواحد مسائل متميزة تختلف فى بعض خواصها ومظاهرها عن مسائل الشعب الأخرى . ولذلك نرى أن العلم الواحد قد يستخدم فى

---

(١) انظر موضوع هذه الشعبة بصفحة ٥ (رقم ٣)

(٢) انظر موضوع هذه الشعبة بصفحة ٥ (رقم ٤) والصفحات التالية لها .

(٣) انظر موضوع هذه البحوث فى آخر صفحة ٤ (رقم ٢) ، وأول ص ٥ .

دراسته لموضوع من موضوعاته طرقاً لا يستخدمها، ولا ينبغى استخدامها، فى موضوع آخر من نفس العلم.

وعلى هذا السنن سار علم اللغة فى دراساته: فاستخدم طرقاً عامة يشترك فيها مع غيره من البحوث العلمية، واستخدم كذلك طرقاً خاصة به تقتضيها طبيعة الظواهر التى يعرض لدراستها ولا تتلاءم مع غيرها، وامتازت كل شعبة من شعبه عما عداها ببعض طرق دراسية تواتى طبيعة مسائلها وتحقق أغراضها من أقرب سبيل.

وسنعرض بإيجاز فيما يلى لأهم هذه الطرق معلقين على كل منها بما يوضح نوعها ونواحى استخدامها ويبين منشأها وما بها من محاسن وعيوب.

***

(الطريقة الأولى) طريقة الملاحظة المباشرة. أى التى لا يلتجأ فيها إلى التجارب ولا تستخدم فيها الأجهزة، بل يقتصر فيها على ملاحظة الظواهر اللغوية فى حالاتها العاديه الطبيعية ولا يستعين فيها الباحث بغير حواسه وقواه العقلية.

وفى هذه الطريقة يشترك علم اللغة مع عدد كبير من العلوم الآخرى وبخاصة العلوم الطبيعية. - وهى أقدم طريقة استخدمها الباحثون فى علم اللغة، ولا تزال إلى الآن من أهم طرقهم، وإليها يرجع الفضل فى معظم ما وصلوا إليه. فعلى ضوء الملاحظة استطاعوا أن يقسموا الظواهر اللغوية إلى أقسام متميزة ويرجعوها إلى طوائف محدودة ويردوا الفروع إلى أصولها، فنظمت بذلك موضوعات العلم ونسقت فروعه وسهلت دراسته. وبفضل هذه الطريقة كذلك كشف العلماء عن كثير من الحقائق المتصلة بنشأة اللغة وحياتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التى تربط ظواهرها بعضها ببعض والتى تربطها بما عداها والقوانين الخاضعة لها فى مختلف نواحيها.

وتنقسم الملاحظة أقساماً كثيرة باعتبارات مختلفة:

فتنقسم باعتبار نوع الظواهر اللغوية التى تعالجها إلى قسمين: ملاحظة صوتية Phonétique وهى ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالصوت، وملاحظة دلالية Sémantique وهى ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة.

وتنقسم باعتبار نوع اللغات التى يتناولها البحث إلى قسمين: ملاحظة اللغات الحية، وملاحظة اللغات الميتة. أما ملاحظة اللغات الحية فسبيلها واضحة، وأما ملاحظة اللغات الميتة فتتحقق بالرجوع إلى ما وصل إلينا عنها فى المؤلفات والوثائق والآثار ...

وما إلى ذلك . — وملاحظة اللغات الميتة كبيرة الأهمية فى الدراسات اللغوية على العموم وفى دراسة نشأة اللغات وتطورها على الخصوص . فلو اقتصر علماء اللغة على ملاحظة اللغات الحية لما وصلوا إلى شىء يعتد به بصدد التطور اللغوى ، ولتعرضت بحوثهم وآراؤهم بهذا الصدد للزلل والاضطراب ، وما كان يتاح لعلمهم فى هذا الأمد القصير أن يصل إلى ما وصل إليه من حقائق وقوانين تنتظم جميع الظواهر اللغوية . وذلك أن ارتقاء اللغات وتطورها لا تظهر آثارهما جلية واضحة إلا بملاحظة مرحلة طويلة من مراحل التاريخ الإنسانى ، وهذا لا يتاح إلا بدراسة اللغات الميتة من بطون الكتب والآثار. وقد بدأ علم اللغة بداءة حسنة بهذا الصدد ، فقد وجه الباحثون فيه منذ نشأته عناية كبيرة إلى دراسة اللغات الميتة القديمة ؛ بل إن عناية القدامى منهم بملاحظة اللهجات الحية واللغات الحاضرة لم تكن شيئاً مذكوراً بجانب عنايتهم بدراسة ما دثر من اللغات [1] .

وتنقسم الملاحظة كذلك باعتبار تعلقها بشخص الملاحِظ (بكسر الحاء) أو بغيره إلى قسمين : أحدهما الملاحظة الذاتية Subjective وهى أن يلاحظ الباحث ما يصدر عنه هو من ظواهر لغوية ويدون ملاحظاته ويحللها ليصل على ضوئها إلى تحقيق ما يرمى إليه ، أو أن يكلف شخصاً آخر أن يلاحظ ما يصدر عنه (عن ذلك الشخص الآخر) من ظواهر لغوية ويطلب إليه أن يصفها له ، فيدون هذا الوصف ويحلله ويوازنه بملاحظات أخرى ويستخدمه فى علاج ما تعنيه دراسته . وثانيهما الملاحظة الخارجية Objectif وهى ملاحظة الباحث لما يصدر عن شخص آخر من ظواهر لغوية بدون أن يكون لهذا الشخص الآخر أى دخل فى الملاحظة . وهذا القسم الأخير ينقسم هو نفسه قسمين : ملاحظة خارجية سلبية Passive ، وملاحظة خارجية إيجابية Positive . فالسلبية هى ما يترك فيها الملاحَظ (بفتح الحاء) على حالته الطبيعية ، بأن يقتصر الباحث على الاستماع إليه وهو يتحدث حديثاً عادياً . والإيجابية هى ما يعمل فيها الباحث على توجيه الشخص الذى تجرى عليه الملاحظة وجهة معينة ، بأن يلقى عليه أسئلة خاصة فى الموضوعات التى يهمه بحثها ليصل على ضوء إجاباته إلى الوقوف على ما يعنيه الوقوف عليه .

وقد أخذ علماء اللغة على طريقة الملاحظة بمختلف أنواعها مآخذ كثيرة ، وتبين لهم نقصها فى كثير من الشئون .

---

(١) سنتكلم عن هذا بتفصيل فى أثناء كلامنا عن تاريخ البحوث اللغوية (انظر الفقرة التالية) .

فكثير من العلماء لا يثقون بالملاحظة الذاتية (ملاحظة الباحث لما يصدر عنه هو من ظواهر لغوية) ويرتابون فى كل ما يصل عن طريقها من حقائق . وذلك أنهم يرون أن قوى العقل فى أثناء ملاحظة الانسان لما يصدر عنه ويقوم به من ظواهر لغوية تكون موزعة مشتتة . فهى تشرف على إصدار الظواهر اللغوية وتلاحظ فى الوقت نفسه ما تصدره من هذه الظواهر . وتكون النتيجة أن كلا الأمرين (الإصدار والملاحظة) يكون ناقصاً غير طبيعى ، لعدم تفرغ القوى العقلية له ولاشتغالها بشىء آخر فى أثناء قيامها به . هذا إذا لاحظ الباحث نفسه فى أثناء قيامها بالظاهرة اللغوية . أما إذا لم يشغل نفسه بالملاحظة إلا بعد الفراغ من الظاهرة اللغوية ، فإن ملاحظته فى هذه الحالة تكون منصبة على ما تستعيده ذاكرته من عناصر الظاهرة التى فرغ منها . وملاحظة كهذه لا يوثق بها ؛ لأنه من المتعذر أن يتذكر الإنسان كل ما أصدره أو قام به تذكراً صحيحاً لا نقص فيه ولا زيادة ولا تغيير ولا تبديل .

هذا إلى أن عزم الشخص على ملاحظة ما يصدر عنه من ظواهر لغوية ، سواء أراد أن تجرى هذه الملاحظة فى أثناء قيامه بالعمل أو بعد فراغه منه ، يحمله على توجيه قسط من انتباهه للعمل فى أثناء صدوره . وتوجيه الانتباه لعمل ما من الأعمال العادية فى أثناء صدوره يشوهه ويجعله يصدر فى صورة غير طبيعية . ألا ترى أنك لو حاولت أن تعرف مثلا كيف تكتب أو كيف تمشى لاعتراك اضطراب فى أعصابك فتتشوه كتابتك وتتعثر فى مشيتك .

وكثيراً ما يكون علماء اللغة متأثرين أثناء ملاحظتهم لما يصدر عنهم من ظواهر لغوية ببعض مبادىء ونظريات ؛ فمهما حاولوا الدقة فى الملاحظة فإن هذه المبادىء والنظريات تفسد عليهم أحكامهم وتبعدها عن الحقيقة من حيث لا يشعرون .

وكثيراً ماتغرى الملاحظة الذاتية الباحثين بالتسرع فى أحكامهم . فقد يكون بعض ما يصدر عنهم من ظواهر لغوية خاصاً بهم لا يشترك معهم فيه غيرهم من الأفراد . فالاقتصار على الملاحظة الذاتية فى حالات كهذه يغرر بالباحثين ويجعلهم ينظرون إلى أمور فردية نظرتهم إلى ظواهر عامة .

هذا إلى أن الفرد لا يمكن أن يمثل فى حياته الفردية إلا ناحية يسيرة من ظواهر لغته . فالاقتصار على الملاحظة الذاتية يجعل دائرة البحث ضيقة كل الضيق .

على أن ثمت ظواهر لغوية كثيرة لا تمكن فيها مطلقاً الملاحظة الذاتية . ومن ذلك

الظواهر اللغوية فى أدوار الطفولة الأولى . وذلك لأن الطفل لا يشعر بما يصدر عنه وما يقوم به من ظواهر لغوية شعوراً دقيقاً ولا يستطيع أن يصفه وصفاً يعتد به .

وقد دلت التجارب على خطأ الملاحظة الذاتية حتى فى الظواهر اللغوية الداخلية التى لا يدركها بشكل مباشر إلا المتكلم نفسه كحركات اللسان مثلا فى أثناء النطق بحرف أو بصوت . فقد ظهر للباحثين بعد أن استخدموا الأجهزة الدقيقة فى دراسة هذه الطائفة من الظواهر فساد كثير من النظريات القديمة التى كان مصدرها الملاحظة الذاتية .

وكثير من العلماء لا يطمئن كذلك إلى الملاحظة الخارجية فى شكليها السلبى والإيجابى . أما شكلها السلبى فلبطئه وضآلة محصوله . فإذا اقتصر الباحث على ملاحظة الناس فى حالاتهم العادية فقد ينقضى عمره قبل أن يتم له تحقيق مسألة لغوية واحدة . وأما شكلها الإيجابى فلأنه عرضة للزلل وخطأ التأويل . فقد لا يفهم الملاحظ (بفتح الحاء) حق الفهم ما يلقى عليه من أسئلة فيجيب إجابات مضللة . هذا إلى أن شعوره بأن لغته موضوع ملاحظة يغير من اتجاهها ويخرج بها عن حالاتها الطبيعية .

ووجه كذلك اعتراضات كثيرة إلى الملاحظة الصوتية (ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالصوت) . فقد أخذ كثير من العلماء على هذه الملاحظة أنها تعتمد على الأذن الإنسانية ، وأن هذه الحاسة غير دقيقة فى تمييز أنواع الصوت وإدراك خصائصه .

ويزيد من فساد إدراكاتها ثلاثة أمور :

(أحدها) تأثر السامع بالشكل الكتابى للكلمة فلا يسمعها على الوجه الذى لفظت به ، بل على الوجه الذى يتفق مع رسمها . فكثير منا ينطق مثلا بالعبارات الآتية على هذا النحو «ضارِ لْعُلُوم» ، «مَسْأَلَ صعْبَ جدًّا» ، «جرِ تِّلْمصرى» ، «صُوطُ جميل» ؛ ولكن يخيل لمن يسمعها إذا كان ملماً بالقراءة والكتابة أنه يسمعها على النحو الآتى : «دار العلوم» «مسألة صعبة جداً» «جريدة المصرى» «صوته جميل» . وذلك لتأثره فى سماعها بالشكل التى ترسم به .

(وثانيها) أن السامع يوجه قسطاً كبيراً من انتباهه فى أثناء السماع إلى مدلول الكلمات والعبارات ولا يعنى كثيراً بادراك الأصوات . وهذا الاتجاه الذى لا يستطيع أى سامع أن يتحرر منه تمام التحرر يجعل إدراكه السمعى عرضة للزلل ، فهو بمجرد أن يدرك معنى الكلمة ، وذلك يتحقق بسماع بعض حروفها ، وبمجرد أن يدرك معنى

الجملة ، وذلك يتحقق بإدراك بعض كلماتها ، ينصرف عن سماع الباقى فلا يدركه إدراكا سمعيًا صحيحاً . تعمد مثلا تحريف بعض كلمات فى جملة وناقش السامع فيما سمعه تر أنه لم يتبين هذا التحريف . قل مثلا لزائر : « إِزّىْ صِحّةَ » فإنه يسمعها « إزى صحتك » ولا يتبين حذفك لكاف الخطاب ؛ وقل مثلا فى أثناء التحسر على شخص : « بسكين الراجل ده » فإن المخاطب يسمعها « مسكين » ولا يفطن لاستبدالك الباء بالميم .

(وثالثها) أن غرابة الصوت على الأذن ، أى عدم إيلافها سماعه من قبل ، يجعلها تدركه إدراكا خاطئاً ، ويظهر هذا من سماعك لكلمات لغة أجنبية لا تعرفها : فانك لا تكاد تتبين الأصوات التى سمعتها ولا تستطيع إعادتها إعادة صحيحة لأول مرة .

ولكن ، على الرغم من جميع هذه المآخذ ، لا تزال طريقة الملاحظة المباشرة من أهم الطرق المستخدمة فى علم اللغة ومن أعمها نفعاً وأكثرها إنتاجاً ؛ ولا يمكن لأى شعبة من شعبه الاستغناء عنها ؛ بل إن بعض الشعب لا يواتيها فى بحوثها إلا هذه الطريقة (١) .

غير أن هذه الاعتراضات ترشدنا إلى اتخاذ احتياطات كثيرة بهذا الصدد . فمن ذلك :

١ — أن الاقتصار على شكل واحد من أشكال الملاحظة المباشرة يعرض الباحث للزلل وخطل الرأى . فينبغى أن تتضافر جميع أشكال هذه الطريقة ويدعم بعضها بعضاً ليسد ما فى كل منها من نقص ويصلح ما به من فساد . وذلك بأن نجمع بين الملاحظة الذاتية ، والملاحظة الخارجية السلبية والملاحظة الخارجية الإيجابية ، ونتخذ فى كل منها من وسائل الحيطة ما يكفل بعده عن مظان الخطأ والريبة التى أشرنا إليها فى الاعتراضات السابقة .

٢ — وأنه من الخطأ الاقتصار على طريقة الملاحظة المباشرة فى دراسة « الفونيتيك » (دراسة المظهر الصوتى فى اللغة) بل الواجب أن تضم إليها طرق أخرى أدق منها فى علاج هذه الظواهر ، كطريقة الأجهزة والمقاييس التى سيأتى الكلام عنها .

٣ — وأن استخدام هذه الطريقة فى « الفونيتيك » يتطلب من الباحث أن يكون دقيق الإحساس مرهف السمع . وذلك لا يتحقق إلا إذا عنى بتربية هذه الحاسة وأخذها فى كل شئونها بالدقة وعودها الضبط وقوة التمييز . فقد تستطيع حينئذ أن

(١) فشعبة « السيمنتيك » مثلا تعتمد فى أهم بحوثها على طريقة الملاحظة المباشرة ولا يواتيها غيرها .

تقوم بما يعجز عن القيام به أدق الاجهزة . — على أنها فى حالاتها العادية قد بلغت فى بعض إدراكاتها درجة من الدقة لم يبلغ مثلها بعد أى جهاز صناعى . فهى تدرك إحساسات سمعية كثيرة فى آن واحد وتميز بينها ، وتستطيع أن تحس فروقا لغوية دقيقة لا يقوى على تسجيلها أحدث جهاز . فقد يبلغ الشخص فى إجادة لغة أجنبية درجة لا يستطيع معها أدق الأجهزة أن يسجل فرقا بين نطقه ونطق أبنائها ، ولكنه بمجرد أن يلفظ أمام أحدهم كلمات منها يدرك من فوره أن المتكلم أجنبي ويحس مافى أصواته من غرابة ومخالفة للمألوف . والقرى المتقاربة قد تتقارب لغات أهلها لدرجة لا يقوى معها أى جهاز على تسجيل فرق بينها ، ولكن بمجرد أن ينطق أحدهم أمام آخر ببعض كلمات يستطيع السامع أن يدرك إن كان المتكلم من أهل قريته أو من غيرها .

وخير طريقة تسهل على الأذن القيام بوظائفها وتعودها الدقة فى إدراكاتها ، أن يأخذ الباحث نفسه بما يسمونه « الكتابة السمعية » ، وذلك بأن يعنى بتدوين الكلمات عقب سماعه لها مباشرة بالشكل الذى يتفق مع الأصوات التى لفظت بها وبدون أن يدع لرسمها العادى أى أثر على نفسه فى أثناء ذلك . ويتطلب هذا النوع من الكتابة حروف هجاء أكثر من حروف الهجاء المصطلح عليها . وذلك أنه فى هجائنا العادى لا يوجد لكل صوت إلا حرف واحد ، مع أن هذا الصوت يختلف اختلافا كبيراً فى شكله ونبرته وقوته ومدة النطق به . . . باختلاف الكلمات والجمل وباختلاف موقعه فى الكلمة أو العبارة ، ويختلف النطق به فى كل حالة من هذه الحالات باختلاف الأفراد والمناطق . . . وهلم جرا . وإليك مثلا اللام فى الله فانها تارة ترقق (بالله مثلا) وتارة تفخم (والله وتالله مثلا) ، وأحيانا لا يقف اللسان عندها وأحيانا يستمر صوتها مدة طويلة (إذا أراد السامع التأكيد فى قسم مثلا) ، ولا ينطق بها فى القسم كما ينطق بها فى غير القسم (فنطقك باللام فى والله إذا كانت الواو عاطفة ليس كنطقك بها إذا كانت واو قسم) . فينبغى فى « الكتابة السمعية » أن يكون لكل شكل من أشكال اللام حرف خاص يرمز إليه . وإليك مثلا آخر حرف الجيم ، فإن النطق به يختلف اختلافاً كبيراً باختلاف المناطق والأفراد وباختلاف الكلمات . ففى العالم العربى وحده يوجد عدد كبير من أصوات الجيم : فالجيم المنقلبة عن قاف عربية يختلف النطق بها عن الجيم الأصلية . وكلتا الجيمين يختلف النطق بها باختلاف المناطق : فلكل من سكان الصعيد وسكان الدلتا والحجازيين واليمنيين والسوريين واللبنانيين والعراقيين والمغاربة . . . فى نطق كل جيم

منهما أسلوب صوتى خاص يختلف عن أسلوب من عداهم . بل إن بلاد المنطقة الواحدة لتختلف أحيانا بهذا الصدد فيما بينها اختلافاً غير يسير . فينبغى فى « الكتابة السمعية » أن يكون لكل شكل من أشكال الجيم حرف خاص يرمز إليه . وما قلناه فى اللام والجيم يصدق على ما عداهما من الحروف .

* * *

(الطريقة الثانية) طريقة الأجهزة فى دراسة الفونيتيك (علم الأصوات) .

إن عدم دقة الأذن الإنسانية فى تميز أنواع الصوت وخصائصه وإدراك نبراته وقياس قوته ومدته ، والعوامل الكثيرة المحيطة بها والتى تجعل مدركاتها عرضة للزلل ... كل أولئك قد حمل علماء الفونيتيك (دراسة أصوات اللغة) على البحث عن وسيلة أخرى تبرأ من كل هذه العيوب ، فاهتدوا إلى طريقة الأجهزة . وهى آلات تدار بطرق خاصة فلا تغادر صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بالصوت إلا أحصتها وسجلتها بشكل دقيق مضبوط . وبذلك تستحيل ظواهر الصوت إلى علامات مخطوطة تقاس باليد وتحسها العين ، وتغنى الباحث عن استخدام أذنه وتقيه شر أخطائها ، وتجعل بحوثه مبنية على أسس متينة صادقة لا يستطرق إليها الشك ولا يأتيها الباطل .

وترجع الحقائق التى ترشدنا إليها هذه الأجهزة إلى طائفتين مختلفتين : إحداهما تتعلق بطبيعة الأصوات ، وثانيتهما تتعلق بمخارجها .

فبالتأمل فيما تسجله هذه الأجهزة من العلامات الممثلة لنبرات الصوت وقوته ومدته ... وما إلى ذلك نستطيع أن نقف على طبيعته ، وبالتأمل فيما ينطبع فيها بصدد الأعضاء التى تلفظه نستطيع أن نقف على مخارجه .

ومن ثم انقسمت طرقهم بهذا الصدد إلى طريقتين لكل طريقة منهما أجهزة خاصة : إحداهما يسمونها طريقة « التدوين المباشر Inscription directe » وهى التى نقف بفضلها على مخارج الحروف ، وثانيتهما يسمونها « طريقة العلامات Méthode Graphique » وهى التى نقف بفضلها على طبيعة الصوت .

أما طريقة « التدوين المباشر » فترمى إلى الوقوف على الأعضاء التى تشترك فى لفظ صوت ما وانتقالات كل عضو منها فى أثناء لفظه ، عن طريق أجهزة تترك فيها هذه الأعضاء وهذه الانتقالات أثراً مباشراً . وهذه الأجهزة كثيرة متنوعة . فمنها « السقف الصناعى » وهو آلة على شكل سقف الحلق يغطى ظاهرها بطبقة من الحكك أو ما شاكله وتركب فى الفم بحيث يكون باطنها ملصقاً بسقف الحلق ، ويطلب إلى الشخص النطق

بحرف من الحروف التى يشترك فى لفظها اللسان وسقف الحلق . فعند ما يتصل لسانه بسقف حلقه يترك فى المادة الجيرية أثراً . ومن هذا الأثر وموضعه من الجهاز يتبين للباحث بشكل مضبوط المكان الذى يلتقى فيه اللسان بسقف الحلق فى أثناء النطق بهذا الحرف .

وأما طريقة العلامات فهى أهم كثيراً من الطريقة الأولى وأعظم منها فائدة وأكبر أثراً فى تقدم هذا العلم . وهى ترمى إلى الوقوف على طبيعة الصوت أى على خواصه ومميزاته من حيث نبراته وقوته ومدته . . . وما إلى ذلك ، عن طريق أجهزة تحس هذه الخواص وتسجلها بعلامات وخطوط دقيقة الدلالة بهذا الصدد . وذلك أنه بالتأمل فى هذه الخطوط وقياسها والنظر فى اتجاهاتها نستطيع أن نقف بطريقة مضبوطة على مختلف الخواص المميزة للصوت الذى نختبره وعلى مبلغ كل خاصة منها ودرجتها .

وكل جهاز من هذه الأجهزة يشتمل على ثلاثة أجزاء :

١ — الكاشف Explorateur ، ويوضع على العضو الذى يراد دراسة حركته فى أثناء النطق للوقوف على خاصة من خواص الصوت . ويختلف شكل الكاشف وتركيبه باختلاف الأعضاء التى يوضع عليها . وهو مصنوع بطريقة تجعله يحس إحساساً دقيقاً كل ما يقوم به العضو من حركة مهما كانت ضئيلة .

٢ — المدوِّن Inscripteur ، وهو على شكل قلم متصل بالكاشف ، يتحرك حركات معينة تبعاً لحركات العضو التى يحسها الكاشف ، ويخط فى أثناء تحركه خطوطاً تمثل فى اتجاهاتها وأطوالها وأشكالها ، حركات العضو .

٣ — السجل Enregistreur ، وهى أسطوانة تدور حول محورها يخط عليها المدون الخطوط السابق ذكرها .

ولكل جهاز من هذا النوع نظام خاص فى سيره وتركيبه وحل رموزه . ويستخدم عدد كبير من هذه الأجهزة فى وقت واحد فى أثناء النطق ، فيوضع جهاز على الرئة وآخر على القلب وثالث على القصبة الهوائية ورابع على الحنجرة وخامس على الأنف وسادس على الفم . . وهلم جرا . فعلى ضوء الخطوط التى تظهر فى سجلات هذه الأجهزة نستطيع — بعد قياسها وحل رموزها — أن نقف على مختلف خواص الصوت الذى نجرى عليه الاختبار وأن نصفه وصفاً دقيقاً لا لبس فيه ولا إبهام .

هذا ، وقد شاع تسمية البحوث القائمة على طريقة الأجهزة باسم « الفونيتيك

التجريبى Phonétique Expérimentale » أى دراسة الصوت دراسة تجريبيـــة . ولـكن هذه التسمية غير صحيحة ، لأننا لسنا بصدد تجارب أى تغيير الظروف العادية المحيطة بالظاهرة أو بالشخص الملاحظ بل بصدد ملاحظة فى ظروف طبيعية عادية ، ولـكن عن طريق أجهزة ومسجلات آلية لا عن طريق الأذن والحواس الإنسانية . — حقاً إن الباحث قد يلجأ أحياناً إلى التجربة أى إلى تغيير الظروف المحيطة بالظاهرة أو بالشخص الملاحظ ، ولـكن هذا لم يحدث إلا فى حالات نادرة لم نحصل منها على نتائج ذات بال . ومهما يكن من شىء ، فلم تـكن التجارب هى الغرض الأساسى الذى دعا إلى اختراع الأجهزة وليست هى الغرض الأساسى الذى يدعو إلى استخدامها ؛ وانما أهم ما قصد من اختراعها وما يقصد من استعمالها هو ملاحظة الظواهر عن طريقة آلة دقيقة ، لا عن طريق الأذن التى كثيراً ما تضلل الباحثين .

وقد مهد لهذا الأسلوب من البحوث العلامة مارى Marey باستخدامه أجهزة من هذا القبيل فى « الفيزيولوجيا » (علم وظائف الأعضاء) . ولـكن أول من استخدمه فى الظواهر اللغوية هو الأستاذ روسلو Rousselot ، وكان ذلك عام ١٨٩٠ . وهو الذى أطلق على البحوث القائمة على هذه الطريقة اسم « الفونيتيك التجريبى » أى « علم الصوت التجريبى » . ويلتمس له العذر فى إطلاق هذا الاسم الخاطىء . ففى عصره كانت تطلق كلمة « التجريبى » على كل ما تستعمل فيه الأجهزة ولو لم يكن للتجارب حظ فيه .

(الطريقة الثالثة) الطريقة التجريبية .

تقوم هذه الطريقة — كما أشير إلى ذلك فيما سبق — على تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية ما أو المحيطة بالشخص الذى تجرى عليه الملاحظة ، بحيث يمكننا الوقوف ، من طريق سهل مختصر مأمون العواقب ، على ما يتعـذر الوقوف عليه فى الظروف العـادية أو على ما يقتضينا الوقوف عليـه فى الظروف العادية إسرافاً فى الوقت والمجهود .

وعلى هذه الطريقـة تعتمد طائفة كبيرة من العلوم الطبيعية كالطبيعه والـكيمياء والتاريخ الطبيعى وما إلى ذلك . فأهم ما كشفه الباحثون فى هذه العلوم يرجع الفضل فيه إلى الطريقة التجريبية . ولو أنهم اقتصروا على ملاحظة الظواهر فى حالاتها العادية لما وصلوا إلى عشر معشار ما وصلوا إليه . فعالم الطبيعة مثلا لا يكتفى فيما يتعلق بالجذب والـكهربائيـة والمغناطيسية والضغط الجوى . . . وما إلى ذلك بملاحظة ظواهرها فى

حالاتها العادية ولا ينتظر حتى تحدث الظاهرة التى يريد دراستها ، بل يخلقها خلقاً فى معمله ويغير من الظروف المحيطة بها ويختبر النتائج التى تنجم عن تجاربه ؛ وعلى ضوء هذا كله يصل إلى كشف القوانين الخاضعة لها فى مختلف أحوالها وأوضاعها .

أما العلوم الإنسانية ، فلم تنتشر فيها هذه الطريقة انتشاراً كبيراً ، ولم يتجاوز استخدامها فيها دائرة ضيقة . وذلك أن معظم الظواهر التى تدرسها العلوم الإنسانية لاتواتيها طريقة التجارب . فليس فى طاقة الباحث أن يخلق مثلا نظاما من النظم الاجتماعية ويحوّر فيه وفى الظروف المحيطة به وينظر إلى النتائج التى تنجم عن كل حالة من حالاته كما يفعل هـذا حيال ظاهرة كهربائية أو ظاهرة جذب أو حيال نبات أو حيوان .

ولكن هـذا لم يثن الباحثين فى العلوم الإنسانية عن الانتفاع بهذه الطريقة مااستطاعوا إلى ذلك سبيلا . فاستخدمت أولا فى علم النفس ، وشاع استخدامها فيه حتى أصبحت الآن معظم الظواهر النفسية ، من حفظ وذكر وانتباه وتداعى معان . . . وما إلى ذلك ، تدرس على النحو التجريبي الذى تدرس به ظواهر الطبيعة . ثم أخذ استخدامها منذ عهد قريب ينتشر فى العلوم الاجتماعية وخاصة علم اللغة .

وقد صادفت ميدانا فسيحا فى شعبة « الفونيتيك » . فلم يكتف الباحثون فى هذه الشعبة بملاحظة الظواهر اللغوية فى ظروفها العادية ، بل لجئوا فى مواطن كثيرة إلى التجارب أى إلى خلق هذه الظواهر وإثارتها وتغيير أوضاعها والظروف المحيطة بها وبالأشخاص الذين تجرى عليهم الملاحظة . ووصلوا بفضل هذه الطريقة — على الرغم من قرب العهد بها — إلى كثير من النتائج القيمة بصدد العلاقة بين اللفظ والسمع ، وأخطاء الأذن ، والفرق بين الأصوات الغنائية والأصوات الكلامية ، واختلاف النطق بالحروف باختلاف الأمم والمناطق وباختلاف الأعمار ، وتعلم اللغات الأجنبية ، وكسب الطفل للغته ، وتعلم الصم الكلام . . . وهلم جرا . وينتظر أن يتسع نطاق هذه الطريقة فى المستقبل وأن يصل الباحثون على ضوئها إلى حل كثير من المشاكل الصوتية التى لا تزال قائمة إلى الآن .

وقد يصحب التجربة فى هذه الشعبة استخدام الأجهزة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك . ولكن هذا ليس ضرورياً . فالطريقة التجريبية تتحقق فى كل حالة يحاول فيها الباحث تكوين ظاهرة لغوية أو إثارتها ولو لم يستخدم فى ذلك أى جهاز صناعى ؛ كأن يطلب

إلى الشخص الذى تجرى عليه الملاحظة أن ينطق بكلمة ما ، أو يغير من أوضاع حروفها ويطلب إليه النطق بها ، أو ينطق بها أمامه ويطلب إليه تكرار ما سمعه . . وهلم جرا .

واستخدمت هذه الطريقة كذلك فى الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة (السيمنتيك) ؛ ووصل بفضلها العلماء إلى نتائج ذات بال وبخاصة فى دراسة اللهجات واللغات العامية (الدياليكتولوجى) . فلم يكتف الباحثون فى هذه الناحية بملاحظة الأشخاص وهم يتحدثون فى حالاتهم العادية ، بل لجئوا كذلك إلى التجارب أى إثارة الظواهر اللغوية وتوجيهها فى النواحى التى تتيح لهم الوقوف على حقيقة أو استنباط قانون .

ومن الواضح أن تجارب هذه الشعبة لا مجال فيها لاستخدام الأجهزة . فمادة التجارب فيها لا تتجاوز الأسئلة والأجوبة ، ووسائل إصدار الظواهر وتسجيلها وملاحظتها لا تتجاوز أعضاء الجسم والقوى العقلية . وذلك بأن يطلب الباحث مثلا إلى الشخص الذى تجرى عليه الملاحظة أن يعبر عن معنى أو يصف منظراً ، أو يذكر له كلمة ويطلب إليه ذكر مترادفاتها ، أو يريه شيئاً ويطلب إليه بيان اسمه أو أسمائه فى لغته ، أو يعمل عملا ويطلب إليه التعبير عما يدل عليه ، أو ينطق أمامه بجملة صحيحة ويطلب إليه تفسيرها بلغته العامية ، أو بجملة خاطئة ويطلب إليه أن يرشده إلى ما فيها من نقص بصدد الدلالة . . . وهلم جرا .

هذا ، ولم يتح للطريقة التجريبية من ظروف النجاح والانتشار فى علم اللغة ما أتيح لغيرها . فهى لاتزال تسير فيه بخطى بطيئة ؛ بل لا يزال بعض علمائه ينظرون إليها بعين الريبة ولا يثقون كل الثقة بما تصل إليه من نتائج . وذلك أنهم يرون أن تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية قد يخرج بها عن طبيعتها ويصورها فى غير صورتها الحقيقية فيتعرض الباحث للخطأ فى الحكم إذ يلتبس عليه الطبيعى بالمتصنع .

ورأيهم هذا ، على ما فيه من مبالغة فى الشك ، يرشدنا إلى ما يحف بهذه الطريقة من أخطار وإلى وجوب استخدامها بقصد وحرص ، واتخاذ أقصى ما يمكن اتخاذه من وسائل الحيطة لاتقاء الزلل واللبس وللتمييز بين الطبيعى والمتصنع من أعمال الأفراد الذين تجرى عليهم التجارب .

(الطريقة الرابعة) طريقة قياس الغابر على الحاضر .

ترشدنا الملاحظة إلى كثير من التطورات التى اعتورت اللغات القديمة فى مختلف

مظاهرها . فقد اختلفت كل واحدة منها فى أصواتها ودلالاتها وقواعدها وأساليبها ... باختلاف عصورها وباختلاف الأمم الناطقة بها . ومن الواضح أن عالم اللغة لا يقنع بتسجيل هذه التطورات ووصفها وصف المؤرخ الأمين ، بل يبحث كذلك عن أسبابها ويعمل على كشف العوامل التى أدت إليها .

ولما كان من الصعب الاهتداء بشكل مباشر إلى هذه الأسباب والعوامل لتعلقها بظواهر قد تقادم عليها العهد ، استخدم العلماء للوصول إليها طرقاً غير مباشرة . ومن هذه الطرق « طريقة قياس الغابر على الحاضر » . فللوقوف على أسباب مظهر من مظاهر التطور فى لغة قديمة يبحثون عن تطور مشبه له فى اللغات الحديثة ويدرسون أسبابه (وأسباب التطورات الحديثة لا يحتاج كشفها إلى كبير عناء لوضوح أثرها وقرب العهد بها) ، ثم ينظرون إلى أى مدى يمكن أن تكون أسباب التطور القديم مشبهة لهذه الأسباب .

واستخدام هذه الطريقة فى تطورات الدلالة (السيمنتيك) محفوف بالأخطار وعرضة للزلل . وذلك أن العوامل التى تؤدى إلى تطور اللغة فى معانى كلماتها وقواعدها وأساليبها . . . قلما تتحد فى عصرين أو فى لغتين . لأن معظمها يرجع إلى ظواهر اجتماعية وتاريخية وسياسية وجغرافية وثقافية . . . وهلم جرا . ومن الواضح أن هذه الطائفة من العوامل لا يمكن أن تتكرر بشكل واحد ولا أن تتحد نتائجها فى عصرين أو فى أمتين . فمن المجازفة إذن أن نعزو تطوراً دلالياً حدث فى لغة قديمة إلى عوامل مماثلة للعوامل التى أحدثت تطوراً يشبهه فى لغة حديثة .

أما فيما يتعلق بالناحية الصوتية من اللغة (الفونيتيك) فلا ضير من استخدام هذه الطريقة . وذلك أن التطورات الصوتية يرجع معظمها إلى أمور تتعلق بأعضاء النطق ، وطريقة أدائها لوظيفتها ، وتأثرها بالظواهر الجغرافية ، وأساليب انتقالها بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع . . . وما إلى ذلك . وعوامل هذه طبيعتها قلما تختلف آثارها باختلاف العصور والأمم . فعلى ضوء العوامل التى أدت إلى تطور صوتى فى لغة حديثة ، نستطيع أن نصل إلى كشف العوامل التى أدت إلى تطور مشبه له فى لغة قديمة .

(الطريقة الخامسة) طريقة الموازنة Méthode Comparative .

تقوم هذه الطريقة على الموازنة بين الظواهر اللغوية فى طائفة من اللغات لاستنباط خواصها المشتركة ، وللوقوف على وجوه الاتفاق والخلاف فى عواملها ونتائجها ،

وللوصول من وراء هذا كله إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها فى مختلف مظاهرها .

ومع أهمية هذه الطريقة فى دراسة علم اللغة ، ومع أن العلماء قد وصلوا بفضلها إلى معظم ما وصلوا إليه من حقائقه ، فإنها كثيراً ما تكون عرضة للزلل والانحراف عن جادة الصواب . غير أن معظم الأخطاء بهذا الصدد لا يرجع فى الحقيقة إلى الطريقة ذاتها ، وإنما يرجع إلى سوء استخدامها ، وخاصة إلى نقص الاستقراء والتسرع فى صوغ القوانين العامة . فقد يلاحظ الباحث مثلا بصدد ظاهرة لغوية أنها قد حدثت فى طائفة من اللغات على أثر بعض أمور ، فيتعجل بوضع قانون عام يقرر فيه أن هذه الظاهرة نتيجة لازمة لهذه الأمور وحدها . مع أن الواقع قد يكون غير ذلك . فقد لا يكون بين هذه الظاهرة وتلك الأمور علاقة سبب بمسبب ؛ وقد يظهر له إذا اتسع نطاق استقرائه أن الأمر بينهما لا يعدو مصاحبة اتفق حدوثها فى بعض اللغات ، وأن هذه الأمور قد حدثت فى لغات أخرى بدون أن تحدث هذه الظاهرة ، أو أن الظاهرة قد حدثت أحيانا بدون أن تسبقها هذه الأمور . — وقد يبدو له مثلا تشابه فى بعض الكلمات فى لغتين فيتسرع فى الحكم عليهما بأنهما من فصيلة واحدة . مع أن الواقع قد يكون غير ذلك ، فقد يكون سبب الاتفاق أن إحداهما قد اقتبست هذه الكلمات اقتباساً من الأخرى مع انتمائهما إلى فصيلتين مختلفتين ؛ كما اقتبست السريانية عدداً كبيراً من الكلمات الإغريقية ، مع أن السريانية من فصيلة اللغات السامية والإغريقية من فصيلة اللغات الهندية — الأوروبية ؛ وكما اقتبست الفارسية الحديثة كلمات كثيرة من العربية ، مع أن أولاهما من اللغات الآرية وثانيتهما من اللغات السامية ؛ وكما اقتبست التركية قسما كبيراً من متن لغتها من العربية والفارسية ، مع أنها من فصيلة غير فصيلتى العربية والفارسية ، وهى الفصيلة التترية .

(الطريقة السادسة) الطريقة الاستنباطية **Méthode d'Induction** .

تستخدم هذه الطريقة للوقوف على علل الظواهر ونتائجها اللازمة ولكشف علاقة السببية بين ظاهرتين أو أكثر .

وقد قسمها ستورت ميل إلى أربع طرق سماها طرق الاستنباط ، ووضع لكل منها ضابطا أو قانونا خاصاً بها ، وهى :

طريقة التلازم فى الوقوع **Méthode de Concordance** ، وهى التى يحكم بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى إذا ثبت بالمشاهدة أنه كلما وقعت الأولى وقعت الثانية .

وطريقة التلازم فى التخلف Méthode de différence ، وهى التى يحكم بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى إذا ثبت بالمشاهدة أنه إذا لم تقع إحداهما لم تقع الأخرى.

وطريقة التلازم فى التغير Méthode des Variations concomittantes ، وهى يحكم بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى إذا ثبت بالمشاهدة أنه كلما حصل تغير فى إحداهما صحبه تغير فى الأخرى بنفس النسبة والقدر .

وطريقة البواقى Méthode des Résidus ، وهى التى يحكم بمقتضاها على حادثة من مجموعة حوادث بأنها علة لناحية من ظاهرة ما إذا ثبت علمياً التلازم بين مجموعة الحوادث وجميع نواحى الظاهرة وثبت كذلك أن ما عدا هذه الحادثة من المجموعة علة لما عدا هذه الناحية من الظاهرة .

ولا يدخل فى نطاق بحثنا شرح هذه الطرق ومناقشتها وبيان مدى صحة كل منها ؛ فهذا كله موضعه كتب المنطق . والذى يهمنا تقريره هو أنه على الرغم من شيوع استخدام هذه الطرق فى العلوم الطبيعية للوقوف على علل الظواهر ونتائجها اللازمة ولكشف العلاقات التى تربط بين ظاهرتين أو أكثر ، فإن علماء اللغة لم يستخدموها لهذه الأغراض إلا فى حالات قليلة . وذلك أنه قد تبين لهم أن الطرق الثلاثة الأخيرة ليست مطردة الصحة فى الظواهر اللغوية[١] . فاقتصروا على استخدام الطريقة الأولى وهى « طريقة التلازم فى الوقوع » . فعند محاولتهم الوقوف — عن طريق الاستنباط — على العلاقة بين ظاهرتين لغويتين ، أو ظاهرة لغوية من جهة وظاهرة اجتماعية أو نفسية أو فيزيولوجية . . . من جهة أخرى ، لا ينظرون إلا إلى مبلغ التلازم فى وقوعهما ، فيستقرئون الحالات التى تبدو فيها كلتا الظاهرتين ، فإذا تبين لهم أنه فى كل حالة تبدو فيها إحداهما تظهر الأخرى حكموا على اللاحقة منهما بأنها نتيجة للسابقة .

(١٠) تاريخ البحوث اللغوية

عرضنا فى الفقرات السابقة لعلم اللغة فى وضعه الأخير ، وسنتكلم بإيجاز فى هذه الفقرة عن المراحل التى اجتازتها البحوث اللغوية حتى وصلت إلى هذا الوضع ، مقسمين موضوعنا إلى قسمين : أحدهما خاص بتاريخ هذه البحوث فى الغرب ؛ وثانيهما خاص بتاريخها فى الثقافة العربية :

(١) يرجع هذا إلى أسباب كثيرة لا يتسع المقام لتفصيلها .

تاريخ البحوث اللغوية فى الغرب

ظلت البحوث اللغوية عند أمم أوروبا ، حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى محصورة فى دائرة ضيقة لا تعدو كثيراً مسائل علوم البنيـــة والتنظيم والأسلوب (المورفولوجيا والسنتكس والستيليستيك) فى أشكالها التعليمية[١] .

فلم يكن معظم العلماء ليعرضوا لغير هذه البحوث الثلاثة إلا استطراداً وفى صورة ناقصة وبطريقة تبعد كثيراً عن مناهج البحث العلمى : فمن ذلك بعض نظرات فى أصوات اللغة (الفونيتيك) وردت فى مؤلف لكورديموا Cordemoy ظهر عام ١٦٦٨ ؛ وبعض ملاحظات وتجارب على الصوت قامت بها المدارس المنشأة فى القرن الثامن عشر لتعليم الصم البكم، وبعض آراء لسانت أوجيستان Saint Augustin بصدد تطور اللغة، وبعض آراء فى أصول الكلمات الفرنسية والإيطالية والإسبانية (إيتيمولوجيا) [٢] لكلود فوشيه Claud Fauchet وبيريون joachin Périon وهنرى إستيان Henri Estienne وميناج Ménage (الذى ألف سنة ١٦٥٠ معجما فى أصول الكلمات الفرنسية) وأودان Oudin وابنه ، وبعض بحوث لغوية عامة وخاصة قامت بها « الأكاديميات » (المجامع اللغوية) التى أنشئت فى صدر العصور الحديثـــة كالأكاديمية الفرنسية والأكاديمية الإسبانية وأكاديمية فلورنسا (أكاديمية كروسكا Crusca) وغيرها وقام بها مؤلفو المعجمات الكبيرة ودوائر المعارف فى هذا العصر .

وثمت مظهر آخر لضيق البحوث اللغوية فى هذه المرحلة ، وذلك أنها كانت مقصورة على اللغتين الإغريقية واللاتينية وبعض اللغات الأوروبية الفصحى. فلم يكن للهجات الشعبية ولا لغير اللغات الأوروبية فى هذه المرحلة الطويلة حظ ما من الدراسة[٣] .

وفى أواخر القرن الثامن عشر حدث بهذا الصدد نهضة كبيرة يرجع معظم الفضل فيها إلى كشف اللغة السنسكريتية Sanscrit وحل رموزها ، فقد أزاح هذا الكشف الستار عما بين اللغات الهندية والإيرانية من جهة واللغات الإغريقية واللاتينية والجرمانية

(١) انظر صفحات ٦ — ٨ .

(٢) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ٨ رقم ٥ .

(٣) بل إن هذه اللهجات كانت محاربة ومعدودة من مصادر الخطر على الأدب . وقد بلغ العـداء لهذه اللهجات مبلغاً كبيراً فى فرنسا ؛ فقد عهدت الجمعية الوطنية Convention Nationale التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية إلى الأب جريجوار (أحد أعضائها) عام ١٧٩٤ أن يقدم تقريراً عما ينبغى اتخاذه للقضاء على اللهجات الشعبية الفرنسية وتعميم اللغة الفصحى .

من جهة أخرى من تشابه وصلات قرابة وروابط وثيقة ، ومهد السبيل لإنشاء علوم القواعد التاريخية والمقارنة[١] ، ووسع بذلك نطاق الدراسات اللغوية .

وكان من أشهر من افتتح هذه السبيل العلامة الألمانى شليجيل Schlegel . فقد نبّه أذهان العلماء إلى صلات التشابه الكثيرة التى تربط اللغات الأوروبية والهندية والآرية بعضها ببعض : تلك اللغات التى رجعها العلماء من بعده إلى فصيلة واحدة سموها « الفصيلة الهندية — الأوروبية » كما سيأتى بيان ذلك[٢] .

ومن ذلك الحين أخذ العلماء يدرسون هذه الفصيلة دراسة علمية عميقة ويكشفون عما بين أفرادها من تشابه فى أصول الكلمات وفى قواعد الصرف والاشتقاق والتنظيم ، فبلغوا بعلم « القواعد المقارن » شأواً راقياً . وكان من أنبه أفراد هذه الحلبة ذكراً وأجلهم أثراً فى هذه النهضة عالمان ألمانيان هما بوب Franz Bopp[٣] وجريم jacques Louis Grimm[٤] .

وقد مهدت بحوث « علم القواعد المقارن » السبيل إلى بحوث « علم القواعد التاريخى » . فانتقل العلماء من الموازنة بين اللغات الهندية الأوروبية إلى الموازنة بين مظاهر كل لغة منها فى مراحلها المختلفة ، ومن البحث فى تفرع هذه اللغات بعضها من بعض وتفرعها عن أصل واحد إلى البحث فى الطريقة التى تسلكها كل لغة منها على حدتها فى تطورها وارتقائها من جميع نواحيها وبخاصة من ناحية قواعدها . — وكان من أشهر من افتتح هذا السبيل جاك لويس جريم السابق ذكره وديز Friedrich Diez[٥] وبراشيه August Brachet[٦] . — وقد استمدت هذه الدراسات اللغوية بعض موادها من بحوث فى آداب اللغات الأوروبية بالعصور الوسطى ، قام بها قبيل ذلك العصر وفى

---

(١) انظر صفحتى ٦ ، ٧ .

(٢) انظر الفصل الثالث : « فصائل اللغات » .

(٣) ولد بمايَنس Mayence عام ١٧٩١ وتوفى عام ١٨٦٧ . — ومن أشهر مؤلفاته كتاب « القواعد المقارنة للغات الهندية — الأوروبية » .

(٤) هو أول من كتب فى الفيلولوجيا الجرمانية ولد عام ١٧٨٥ وتوفى عام ١٨٦٣ .

(٥) فردريك ديز من أشهر علماء الفيلولوجيا الألمان ، ولد عام ١٧٩٤ وتوفى عام ١٨٧٦ . — ومن أشهر مؤلفاته « معجم فى أصول مفردات اللغات الرومانية » و « قواعد اللغات الرومانية » (واللغات الرومانية Langues Romanes هى اللغات المتفرعة من اللاتينية) .

(٦) ولد بتور من أعمال فرنسا سنة ١٨٤٤ وتوفى بها سنة ١٨٩٨ . وكان أستاذاً للفيلولوجيا بمعهد الدراسات العليا بفرنسا . ومن أشهر مؤلفاته : « بحث فى القواعد التاريخية للغة الفرنسية » و « معجم فى أصول كلمات اللغة الفرنسية » .

أثنائه جماعة من مؤرخي الأدب ، من أشهرهم پولان پاريس Paulan Paris [١] ورينوآر François Reynouar [٢] .

ثم انتقل البحث من هذه الدائرة الخاصة المقصورة على اللغات الهندية — الأوروبية إلى دائرة عامة ترمى إلى كشف القوانين التى تخضع لها كل لغة إنسانيـــة فى تطورها وارتقائها من حيث أصواتها وقواعد تصريفها . . وما إلى ذلك . وقد افتتح هذه الحلبة العلامة الألمانى ماكس مولر Mrx Muller [٣] وتبعه كثيرون من أشهرهم العلامـة الإنجليزى سيس Archibald - Henry Sayce [٤] .

وقد كان لزاماً أن يصل العلماء فى تعقبهم لأصول اللغات ومراحل ارتقائها إلى أقدم مرحلة للتعبير الإنسانى ، وأن يحاولوا الكشف عن منشأ اللغة فى الفصيلة الإنسانية وعن الأسس الأولى التى قام عليها التخاطب بالأصوات ذات الدلالات الوضعية . وقد استأثرت هذه المشكلة بقسط كبير من نشاطهم فى منتصف القرن التاسع عشر ، وانقسموا بصددها إلى فرق كثيرة سيأتى الكلام عنها فى الفصل الأول من هذا الكتاب . — ومن أشهر من عرض لهذا الموضوع الفيكونت دو بونالد Vicomte de Bonald [٥] وماكس مولر ،

---

(١) ولد عام ١٨٠٠ وتوفى عام ١٨٨١ — وله مؤلفات جليلة فى آداب اللغــة الفرنسية بالعصور الوسطى .

(٢) ولد عام ١٧٦١ وتوفى عام ١٨٣٦ — وله بحوث قيمة فى آداب اللغــة الفرنسية بالعصور الوسطى .

(٣) ولد ببلدة ديسو Dessau من أعمال ألمانيا عام ١٨٢٣ وتوفى بأكسفورد عام ١٩٠٠ . وهو ابن الشــاعر غليوم مولر ، تخرج من جامعتى ليبزج وبرلين ، ثم رحل إلى باريس حيث حضر دروس الأستاذ بورنوف Burnouf فى اللغة السنسكريتية . ثم ذهب إلى انجلترا واستقر بأكسفورد حيث عين أستاذاً بجامعتها للآداب واللغات الحديثة ثم أستاذاً للقواعد المقارنة . ومن أشهر مؤلفاته « دروس فى علم اللغة » ظهر عام ١٨٦١ و « دروس حديثة فى علم اللغــة » ظهر عام ١٨٦٤ . وكان لهــذين الكتابين شأن كبير فى القرن السابق . وله كذلك مؤلفات كثيرة فى الأديان وتاريخها .

(٤) ولد ببلدة شيرهمتون Shirehempton بجوار مدينة بريستول Pristol عام ١٨٤٦ . وقد خلف ماكس مولر فى تدريس القواعد المقارنة بجامعة أكسفورد . وله نظريات ومؤلفات كثيرة فى هذا العلم من أشهرها : « أصول الفيلولوجيا المقارنة » و « مقدمة فى علم اللغة » . — وقد كان كذلك من شهيرى المستشرقين ، وله عدة مؤلفات فى كثير من اللغات السامية وبخاصة اللغة الأشورية القديمة .

(٥) اسمه لويس جبرائيل امبرواز Louis - Gabriel - Ambroise ولد بمدينــة ميو Millau من أعمال فرنسا عام ١٧٥٤ وتوفى بها عام ١٨٤٠ . وله مؤلفــات كثيرة فى السياسة والفلسفة . وكان من أكبر أنصار الحكومة الملكية الخاضعة للنفوذ الدينى الكاثوليكى .

وسيس وريتان Renan [1].

وفى أواخر القرن التاسع عشر ظهر عند المشتغلين بالبحوث اللغوية اتجاهان هامان كان لكل منهما أثر كبير فى النهوض بهذا العلم :

(الاتجاه الأول) جعل البحوث اللغوية بحوثاً علمية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وذلك بإخضاعها لمناهج البحث العلمى ، وتوجيهها إلى نفس الأغراض التى ترمى إليها العلوم ، وجعل غايتها الأساسية الوصول إلى كشف القوانين الخاضعة لها الظواهر اللغوية [2] ، وتخليصها من جميع المسائل الفلسفية التى لا يتفق منهج البحث فيها مع ماينبغى أن تكون عليه مناهج البحث فى العلوم والتى لا يمكن الوصول فيها إلا إلى فروض وآراء ظنية لا تسمو إلى درجة اليقين ولا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمى .

وقد كان لهذا الاتجاه آثار جليلة فى مختلف فروع هذا العلم . فبفضله وضحت حدود كل فرع منها ومناهجه ، وهذبت أساليبه وطرق دراسته واجتذب إليه عدداً كبيراً من أعلام الباحثين ؛ فكثر الإنتاج ورقى نوعه . وكان من آثاره كذلك أن انصرف العلماء عن البحث فى موضوع نشأة اللغة وتركوا دراسته للفلاسفة والميتافيزيقيين (الباحثين فيما وراء الطبيعة) [3] .

ويرجع الفضل فى توكيد هذا الاتجاه إلى مدرسة ألمانية الأصل أطلق على أفرادها اسم « المحدثين من علماء القواعد Néo gramairiens » . — فقد ذهبت هذه المدرسة إلى « جبرية » الظواهر اللغوية ، فقررت أن هذه الظواهر لا تسير وفقاً لإرادة الأفراد والمجتمعات أو تبعاً للأهواء والمصادفات ، وإنما تسير وفقاً لقوانين لا يستطيع الفرد ولا الجماعة إلى تعويقها أو تغييرها سبيلا ، ولا تقل فى ثباتها وصرامتها واطرادها وعدم

---

(١) أرنست رينان Ernest Renan من أشهر المؤرخين والفلاسفة وعلماء اللغة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، ولد ببلدة تريجييه Tréguier عام ١٨٢٣ وتوفى بباريس عام ١٨٩٠ . درس اللاهوت واللغات الشرقية والعلوم ومختلف فروع الفلسفة والآداب ، وتولى تدريس اللاهوت واللغة العبرية والتاريخ والفلسفة فى كثير من المعاهد وعين عضواً بالأكاديمية الفرنسية ومديراً للكليج دو فرانس Collège de France . وله نحو خمسين مؤلفاً كبيراً فى التاريخ العام وتاريخ الديانات وفى اللغات والأخلاق والفلسفة واللاهوت والسياسة وغيرها . وقد كان لمؤلفاته أكبر أثر فى الثقافة الفرنسية بالقرن التاسع عشر . ومن أشهر كتبه فى اللغات : « تاريخ اللغات السامية » و « منشأ اللغة » .

(٢) انظر صفحات ١٢ ، ١٣ ، ١٥ — ٢١ .

(٣) انظر صفحة ٤ .

قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك والطبيعة[١] ، وأن واجب الباحث فى هذه الظواهر ينبغى أن ينحصر فى تحليلها لكشف القوانين الخاضعة لها .
ومن أشهر أفراد هذه المدرسة ليسكين Leskien وبروجمان Brugmann وأستوف Ostoff وهرمان بول Hermann Paul ودلبريك Delbrück .

وقد لقى مذهبهم هذا فى مبدأ أمره مقاومة كبيرة من طوائف كثيرة وبخاصة من ثلاث طوائف :

إحداها « المدرسة الإيطالية » التى كان العلامة أسكولى Ascoli من أبرز أعضائها . فقد ذهبت هذه المدرسة فى تعليل كثير من الظواهر اللغوية مذهباً يختلف عن آراء المحدثين من علماء القواعد ، ولا يتفق فى بعض مظاهره مع القول بجبرية الظواهر اللغوية .

وثانيتها « المدرسة الإنجليزية » التى كان الأستاذان سيس Sayce وسويت Sweet الإنجليزيان والعلامة جيسبرسن Jespersen الدانيمركى من أظهر ممثليها . فقد أنكرت هذه المدرسة جبرية الظواهر اللغوية وذهبت إلى أن جميع هذه الظواهر بما فى ذلك التطورات الصوتية نفسها ترجع أهم أسبابها إلى أمور يقوم بها بعض الأفراد وتنتشر عن طريق التقليد[٢] . ولعل هذه المدرسة قد تأثرت فيما ذهبت إليه بنظرية العلامة الفرنسى جبرائيل تارد Tarde الذى يذهب إلى أن جميع الظواهر الاجتماعية فردية المنشأ وتصبح اجتماعية عن طريق التقليد[٣] .

وثالثتها طائفة يمثلها العلامة الفرنسى بريال Bréal . فقد سلمت هذه الطائفة ، مع شىء من التحفظ ، بمذهب « الجبرية » فيما يتعلق بظواهر الصوت (موضوع الفونيتيك). ولكنها خالفت هذا المذهب فيما يتعلق بظواهر الدلالة (موضوع السيمنتيك) ، فذهبت إلى أن كل التغيرات التى تحدث فى مدلولات اللغة هى عبارة عن إصلاحات مقصودة أو شبه مقصودة تعتمد على جهود يقوم بها الناطقون بهذه اللغة وتسير بها دائماً إلى

---

(١) انظر توضيح ذلك بصفحات ١٥ــ١٧ .

(٢) انظر كتاب الأستاذ سيس Sayce « أصول الفيلولوجيا المقارنة Principles of Comparative Philology » وكتابى سويت Sweet « تاريخ أصوات اللغة الإنجليزية History of English Sounds » و « الدراسة العملية للغة The Practical Study of Language » ، وكتابى جيسبرسن Jespersen : « تطور اللغة The progress of Language » و « اللغة : طبيعتها وتطورها ومنشؤها Language : Its nature, development and origin » .

(٣) انظر كتابه قوانين التقليد Lois de l'imitation .

حيث الكمال ، وأن من أهم هذه الجهود ما يبذله الأدباء والكتاب فى كل عصر للنهوض باللغة [١] .

(والاتجاه الثانى) التخصص فى دراسة فرع واحد أو بعض مسائل من فرع من بحوث اللغة . ولذلك انصرف المحدثون من علماء اللغة عما كان يحاوله القدامى من معالجة جميع المسائل ، وآثر كل منهم التفرغ لناحية من البحوث اللغوية . وكان لهذا الاتجاه فضل كبير فى النهوض بمختلف شعب هذا العلم .

ومن بين هذه الشعب خمس اتسع نطاق البحث فيها اتساعاً كبيراً فى هذا العصر ، وتخصص فى دراستها كثير من العلماء ، واستأثرت بقسط وافر من نشاطهم ، فوصلت إلى شأو عظيم فى النضج والكمال بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً فى المراحل السابقة . وهى « الفونيتيك » Phonétique أو دراسة الأصوات [٢] ، و « الديالكتولوجيا Dialectologie » أو دراسة اللغات الشعبية العامية [٣] ؛ و « السيكولوجيا اللغوية Psychologie Linguistique » أو علم النفس اللغوى ، وهو دراسة العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها وبيان أثر كل منها فى الآخر [٤] ؛ و « السيمنتيك Sémantique » أو دراسة اللغة من ناحية الدلالة [٥] ، و « السوسيولوجيا اللغوية Sociologie Liuguistique » أو علم الاجتماع اللغوى ، وهو دراسة العلاقة بين اللغة والظواهر الاجتماعية وبيان أثر المجتمع ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته . . . فى مختلف الظواهر اللغوية [٦] .

١ — أما شعبة « الفونيتيك » فيرجع الفضل فى النهوض بها إلى طائفة كبيرة من العلماء فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وخاصة مدرسة « المحدثين

---

(١) انظر كتاب الأستاذ بريال : « بحث فى السيمنتيك » Eessais de Sémantique . والأستاذ بريال هو أول من سمى هذه الشعبة باسم السيمنتيك . — وسننقد هذه النظريات جميعها بتفصيل فى مواطنها .

(٢) انظر صفحات ٥ (رقم ٣) ، ١٧ (رقم ٥) ، ٢٩ — ٣٦ . — وسنقف فصلا خاصا على دراسة هذه الشعبة .

(٣) انظر صفحات ٤ (رقم ٢) ، ٥ ، ٣٦ . — وسنعرض لهذا الموضوع بتفصيل فى فصل « الدلالة » .

(٤) انظر ص ١٠ (رقم ٧) ، ٢٣ .

(٥) انظر صفحات ٥ — ٨ ، ١٧ ، ٣٦ .

(٦) انظر صفحات ٩ (رقم ٦) ، ١٠ ، ٢٠ ، ٢١ .

من علماء القواعد » Néo gramairiens التى سبقت الإشارة إليها (١) . فقد وجد أعضاء هذه المدرسة فى مسائل « الفونيتيك » ما يؤيد مذهبهم فى « جبرية الظواهر اللغوية »(٢)؛ فخصوا هذه الشعبة بعنايتهم ووجهوا نحوها قسطاً كبيراً من جهودهم، فبلغوا بها شأواً راقياً وكشفوا عن الأسباب الصحيحة التى يرجع إليها تطور الأصوات اللغوية . — ومن أشهر المبرزين فى هذه الحلبة مَن أعضاء هذه المدرسة وغيرهم :

ليسكين Leskien وبروجمان Brugmann وأستوف Ostoff وهرمان — بول Hermann - Paul . وأربعتهم من أقدم الأعضاء الألمان لمدرسة «المحدثين من علماء القواعد» . وإلى رابعهم يرجع النصيب الأكبر من الفضل فى توجيه الأنظار إلى أثر التغيرات الجسمية الخاصة بأعضاء النطق فى تطور اللغة من ناحيتها الصوتية . وقد مهد بذلك السبيل إلى علم الفونيتيك التجريبي الذى أشرنا إليه فيما سبق (٣) .

وجاستون باريس Gaston Paris . وهو أول فرنسى فكر فى إنشاء معمل للتجارب المتعلقة بدراسة الأصوات (وقد أنشأه بالكوليج دو فرانس Collège de France) . وإلى جهوده الجبارة فى دراسة تطور الأصوات فى اللغات الرومانية (وهى اللغات المتفرعة من اللاتينية) يرجع أكبر قسط من الفضل فى النهوض بهذه الشعبة وفى تأييد نظرية « المحدثين من علماء القواعد » .

وبول باسى Paul Passy الذى تعد بحوثه فى التطورات الصوتية وعواملها من أجل ما ألف فى هذه الشعبة(٤) .

وروسلو Rousselot . وهو أول من استخدم الآلات فى دراسة الصوت ، وأنشأ بذلك الشعبة الشهيرة التى سماها « الفونيتيك التجريبى »(٥) . — ويرجع الفضل فى توجيه روسلو هذا الاتجاه الجديد إلى الأساتذة مارى Marey وهرمان بول Hermann Paul

---

(١) انظر صفحات ٤٣ وتوابعها .

(٢) انظر صفحات ١٥ — ١٧ ، ٤٣ — ٤٥ .

(٣) انظر صفحات ٣٢ — ٣٤ .

(٤) من أشهر مؤلفاته فى ذلك بحث فى « دراسة التطورات الصوتية فى اللغة » Etudes sur les changements phonétipues وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٨٩٠ .

(٥) انظر صفحات ٣٢ — ٣٤ .

وجاستون باريس Gaston Paris كما سبقت الإشارة إلى ذلك [١] .

٢ — وأما الدياليكتولوجيا، أو دراسة اللهجات الشعبية واللغات العامية، فقد كان مهملا كل الإهمال قبل أواخر القرن التاسع عشر لأسباب كثيرة: منها أن العلماء كانوا يحاربون اللغات العامية ويرون فيها مصدر خطر على الأدب كما سبقت الإشارة إلى ذلك [٢] ؛ ومنها أنهم وجدوا فى اللغات الفصيحة وفى اللغات القديمة مجالا واسعاً للبحث استأثر بكل نشاطهم ؛ ومنها أن دراسة اللغات الشعبية والعامية كانت تتطلب الأسفار والرحلات والاختلاط بسكان الريف، وعلماء اللغة فى ذلك العصر كانوا يؤثرون الدراسة الهادئة فى المكاتب والتنقيب فى بطون المؤلفات .

ولم تبد العناية بهذه الشعبة إلا منذ عهد قريب ؛ ولكنها خطت فى هذا الأمد الوجيز خطوات واسعة حتى كادت تلحق الفروع الأخرى بل سبقت بعضها . ويرجع الفضل فى النهوض بها إلى طائفة من أعلام الباحثين فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من أشهرهم :

« جاستون باريس » الذى سبقت الإشارة إليه بين المبرزين من علماء الفونيتيك . وهو أول فرنسى نادى بوجوب دراسة اللهجات الشعبية واللغات العامية . وقد أنشأ بمعهد الدراسات العالية بفرنسا Ecole pratique des Hautes Etudes قسما خاصا لهذه الشعبة . وإليه يرجع الفضل فى تمهيد الطريق لدراسة كثير من اللغات الشعبية الفرنسية .

والإيطاليان « كورنو » و « أسكولى » Cornu et Ascoli اللذان تعد مؤلفاتهما فى هذه الشعبة من أجلّ البحوث .

والأساتذة الفرنسيون « تورتولون » Tourtoulon و « برنجييه » Bringuiet و « أنطوان توماس» Antoine Tomas و ألبرت دوزا » Albert Dauzat ، الذين كان لجهودهم المشكورة فى دراسة اللغات الشعبية الأوروبية ، وبخاصة اللغات الرومانية

---

(١) انظر صفحات ٣٤ ، وآخر ص ٤٥ ، ٤٦ . هذا ، ومن أشهر مؤلفات روسلو كتابه فى « التغيرات الصوتية فى اللغة » Les Modifications Phonétiques du Langage الذى كان له أكبر أثر فى النهوض بهذه الشعبة .

(٢) انظر آخر صفحة ٤٠ والتعليق الثالث بها .

(المتفرعة من اللاتينية) واللهجات الفرنسية ، أثر كبير فى النهوض بهذه الشعبة [١] .

وأشهر هؤلاء جميعا عالمان اقتسما بينهما دراسة « الدياليكتولوجيا » : فعنى أحدهما بناحيتها الصوتية (الفونيتيكية) ، وهو الأب روسلو الذى سبقت الإشارة إليه أكثر من مرة ، وعنى ثانيهما بناحيتها الدلالية (السيمنتيكية) وهو العلامة جيليرون Gillieron .

ثم انتشر الاشتغال بهذه الشعبة بين جميع علماء « الفونيتيك » وجميع علماء « السيمنتيك » ، وذلك لما تبين لهم من أهميتها فى دراساتهم .

وقد أصبح الآن من المتعذر أن يدرس أى موضوع لغوى بدون الاستعانة بهذه الشعبة .

٣ — وأما علم النفس اللغوى Psychologie Linguistique فقد تضافر على النهوض به عوامل كثيرة ، أهمها اتساع البحوث المتعلقة بكسب الطفل للغة ، وارتقاء الدراسات الخاصة بأمراض اللغة (الأفازيا Aphasie) : فقد كثرت الإصابات بهذه الأمراض فى أثناء الحرب العظمى بين الجنود وغيرهم ، فأتاح هذا فرصاً واسعة للبحوث والتجارب فى هذه السبيل . وقد ظهر للعلماء على ضوء هذه الدراسات قوة الصلة التى تربط مظاهر اللغة بمختلف المظاهر العقلية ، وتبين لهم أن كل دراسة لغوية لا تقوم على دراسة القوى النفسية ، وكل دراسة نفسية لا تقوم على دراسة اللغة تكون ناقصة مبتورة قليلة الجدوى فاسدة النتائج . فعكف علماء النفس وعلماء اللغة على دراسة «علم النفس اللغوى» ، وجعله كل فريق منهم شعبة مستقلة من بحوث علمه ، وتوفر على دراسته عدد كبير من أعلامهم فبلغوا به شأواً راقياً فى النضج والكمال . ومن أشهر من برزو فيه الأساتذة : ريبو [٢] Ribot

---

(١) من أشهر مؤلفات « أنطوان توماس » : « بحث فى الفيلولوجيا الفرنسية » Essais de Philologie Française و « بحوث فى الايتيمولوجيا (أصول الكلمات) الفرنسية » Mélanges d' étymologie Française ظهر أولهما عام ١٨٩٧ وثانيهما عام ١٩٠٢ . ومن أشهر مؤلفات العلامة « دوزا » فى هذه الشعبة كتابه « اللغات العامية أو الريفية » Les patois . وكتابه « دراسات لغوية للهجات اوفيرنى السفلى فى أربعة أجزاء : Etudes linguistiques sur la Basse — Auvergne

أما الأستاذان « تورتولون » و « برنجييه » فقد قضيا شطراً كبيراً من حياتهما فى دراسة بعض اللهجات الفرنسية .

(١) انظر على الأخص الفصل الثانى من كتابه تطور المعانى الكلية Evolution des Idées générales .

وبالى [١] Bally وبولان [٢] Paulhan وبوردون [٣] Bourdon وبرونو [٤] Brunot وجويوم [٥] Guillaum وفان جينيكين [٦] Van Ginneken وباولوفيتش [٧] Pavlovitch وبياجيه [٨] Piaget وسان - بول [٩] Saint-Paul وسيجلاس [١٠] Seglas والعلامة الإيطالى فردريك جارلاندا [١١] Frédric Garlanda وأستاذى المرحوم العلامة هنرى دولاكروا Henri Delacroix عميد كلية الآداب بجامعة السربون وأستاذ علم النفس بها سابقاً : فقد وقف قسطاً كبيراً من جهوده العلمية على هذه الشعبة وقام فيها ببحوث قيمة ، ألقى بعضها علينا فى جامعة السربون ، ونشر بعضها بكثير من المجلات النفسية والفلسفية ، وضمن كثيراً منها كتابه الشهير : « اللغة والتفكير » Le Langage et La Pensée [١٢] .

٤ — وأما « السيمنتيك » (أى دراسة اللغة من ناحية الدلالة) فقد كان لنهضة الشعب الثلاثة السابقة أثر كبير فى الارتقاء به من ناحيتى الطريقة والمادة . فقد تهذبت طريقته تحت تأثير « الفونيتيك » ، واتسعت مادته وكثر إنتاجه بفضل دراسات « الدياليكتولوجيا » و « علم النفس اللغوى » .

وذلك أن علماءه قد أعجبوا بالاتجاه العلمى الذى نحا إليه زملاؤهم علماء « الفونيتيك » والذى أشرنا إليه فيما سبق [١٣] ، فأخذوا يسيرون على غرارهم ويختطون لأنفسهم فى

---

(١) انظر على الأخص كتابيه بالفرنسية : « اللغة والحياة » و « بحث فى علم الأسلوب » .

(٢) انظر على الأخص كتابه بالفرنسية : « الوظيفة المزدوجة للغة » Double Fonction du Langage .

(٣) انظر كتابه بالفرنسية : « التعبير الطبيعى عن العواطف واتجاهات اللغة » .

(٤) من أشهر مؤلفاته بهذا الصدد كتابه بالفرنسية : « اللغة والتفكير » .

(٥) انظر كتابه بالفرنسية : « التقليد عند الطفل » وعلى الأخص القسم الثانى الذى وقفه على التقليد فى اللغة .

(٦) انظر كتابه بالفرنسية : « أصول علم اللغة النفسى » .

(٧) انظر كتابه بالفرنسية : « لغة الطفل » .

(٨) انظر كتابه بالفرنسية : « التفكير واللغة عند الطفل » .

(٩) انظر كتابه بالفرنسية : « الكلام النفسى » .

(١٠) انظر كتابه بالفرنسية : « أمراض اللغة » .

(١١) انظر كتابه بالإيطالية : « فلسفة اللغة » .

(١٢) انظر كذلك ما كتبه فى الجزء الثانى من كتاب علم النفس Traité de Psychologie Par Dumas et collaborateurs.

(١٣) انظر صفحات ٤٣ — ٤٦ .

علاج مسائل الدلالة خططا جديدة أدنى إلى الكمال وأقرب إلى مناهج البحث العلمى. فأهملوا كل الطرق التى يسيطر عليها النظر الفلسفى ولا تؤدى إلى نتائج يقينية، واستخدموا، زيادة عن طريقة الملاحظة التى كان يقتصر عليها كثير من القدامى، طرقا حديثة أخرى كطريقة التجارب وقياس الغابر على الحاضر والموازنة والاستنباط[1]. واتخذوا فى جميع هذه الطرق من وسائل الحيطة ما يكفل عصمتها من الزلل ويبعد بها عن مظان الانحراف. فأتيح بذلك لمناهج البحث السيمنتيكى ما أتيح لمناهج البحث الفونيتيكى من وسائل الرقى والتهذيب.

وكما ارتقت طريقة الدراسة فى هذه الشعبة، اتسعت مادتها وكثر إنتاجها، وكان ذلك بفضل بحوث « الدياليكتولوجيا » (دراسة اللهجات العامية) وبحوث « علم النفس اللغوى ». فقد قدمت « الدياليكتولوجيا » مادة وفيرة لعلماء السيمنتيك وكشفت لهم عن مناطق واسعة كانت مجهولة من قبل، وحلت لهم كثيرا من المشاكل التى استعصى حلها على القدامى منهم. وقد تبين لهم على ضوء « علم النفس اللغوى » أن أهم العوامل التى تتأثر بها اللغة من ناحية الدلالة ترجع إلى أمور نفسية، وأن كشف القوانين الخاضعة لها ظواهر شعبتهم يتوقف على الإلمام بمختلف العلاقات التى تربط الظواهر اللغوية بظواهر علم النفس؛ فاتجهوا إلى هذا العلم يستمدون منه المعونة من جهة ويعملون على تهذيبه وتكملته وربط مسائله ببحوث شعبتهم من جهة أخرى، فأفاد من جهودهم أيما فائدة، وأصابت شعبتهم بفضله حظا كبيراً من النهوض والكمال.

هذا، ومن أظهر علماء السيمنتيك أثراً فى هذه النهضة من الإنجليز العلامة « وتنى » Withney[2]. ومن الفرنسيين « دارمستيتير » Arsène Darmesteter[3]، و « بريال » Michel Bréal[4]، وألبير دوزا Albert Dauzat[5]، ومن الإيطاليين « كروس » Croce، ومن الألمان فونت Wundt وثام Thumb ومارب Marbe.

---

(١) انظر صفحات ٣٤ ، ٣٩.

(٢) من أشهر مؤلفاته: « حياة اللغة » (ظهر عام ١٨٧٥) و « اللغة ودراستها » (ظهر سنة ١٨٦٧).

(٣) من أشهر مؤلفاته « حياة الكلمات » La Vie des mots

(٤) سبقت الإشارة إلى العلامة بريال وكتبه ومذهبه فى السيمنتيك بصفحتى ٤٤ ، ٤٥.

(٥) سبقت الإشارة إلى العلامة دوزا بآخر صفحة ٤٧ وتعليق صفحة ٤٨، ومن أشهر مؤلفاته التى عرض فيها للسيمنتيك كتاباه: « فلسفة اللغة » و « حياة اللغة ».

٥ — وأما « علم الاجتماع اللغوى » Sociologie Linguistique فقد تضافر على النهوض به « أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية Ecoles Sociologique Française التى أنشأها العلامة دوركايم Durkheim فى أوائل القرن الحاضر [١]، وطائفة من أئمة علماء اللغة انضمت إلى هذه المدرسة واعتنقت مذهبها ؛ ومن أشهرهم الأساتذة دوسوسور De Saussure ومييه Meillet وفندريس Vendryes .

وترمى هذه البحوث كما تقدم [٢] إلى بيان العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية وأثر المجتمع ومدنيته ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية فى مختلف الظواهر اللغوية .

وإلى هذه الشعبة تحتاج جميع الشعب الأخرى من علم اللغة . وذلك أن نشأة اللغة الإنسانية والأدوار التى اجتازتها ، وحياة كل لغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر وقوة وضعف وسعة وضيق ، وانقسامها إلى فنون وإلى لهجات ، وماتقوم به من صراع مع غيرها ، ومانيجم عن هذا الصراع ، والتطورات التى تحدث فى أصواتها ومعانيها وأساليبها وقواعدها . . كل أولئك وما إليه ترجع أهم عوامله إلى ظواهر اجتماعية .— فموضوعات البحوث التى نحن بصددها تمتزج بجميع فروع علم اللغة وتفسر ظواهرها .

غير أن علماء الاجتماع الذين أشرنا إليهم ومن نهج نهجهم قد أخذوا على قدامى الباحثين من علماء اللغة وعلى أعضاء مدرسة « المحدثين من علماء القواعد » [٣] تقصيرهم فى بيان العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية ، وانحرافهم أحياناً عن جادة الصواب فى هذه السبيل ، وتفسيرهم لكثير من ظواهر اللغة ، وخاصة الظواهر الصوتية ، تفسيراً خاطئاً يبعد بها عن المجتمع وشئونه . فعملوا على سد هذا النقص وإصلاح هذه الأخطاء ، فأنشئوا فرعاً خاصاً سموه « علم الاجتماع اللغوى » أو « السوسيولوجيا اللغوية » Sociologie linguistique توفروا فيه على كشف العلاقات التى تربط بين الظواهر اللغوية ومختلف الظواهر الاجتماعية ، فنهضوا بالدراسات اللغوية نهضة مشكورة .

---

(١) من أشهر أعضاء هذه المدرسة الأساتذة ليفى برول Levy Bruhl وموس Mauss وبوجليه Bouglé والمرحوم فوكونيه Fauconnet (أستاذ الاجتماع بالسربون سابقا) وهلباكس Halbwachs (استاذ علم الاجتماع بالسربون الآن) ودافى Davy .— وقد كان لى شرف التلمذة على الأربعة الأول من هؤلاء بجامعة السربون وبالكوليج دو فرانس وشرف الاشتراك مع المرحوم فوكونيه فى طائفة من البحوث الاجتماعية ، وبعض مؤلفاتى باللغة الفرنسية مصدر بمقدمة منه .

(٢) انظر صفحة ٩ (رقم ٦) .

(٣) انظر الفقرة الأخيرة من صفحة ٤٣ وتوابعها .

وقد زادهم قوة انضمام عدد كبير من أئمة علماء اللغة إليهم « كفرديناند دو سوسور » Ferdinand De Saussure الذى وقف قسطاً كبيراً من جهوده العلمية على هذه البحوث (١) ، والأستاذ « فندريس » Vendryes الذى نشر رسائل قيمة فى هذا الفرع بكثير من المجلات العلمية وعرج فى مؤلفاته على كثير من مسائله (٢) ، والعلامة « مييه » Meillet الذى تعد مؤلفاته من أهم مراجع علم اللغة فى العصر الحاضر ومن أوسعها نطاقاو أدقها بحثا (٣). — وقدجرت العادة أن يطلق على هذه الطائفة من اللغويين اسم « علماء اللغة المحدثين » Néo Linguistes .

وقد أوغل بعض أفراد هذه الطائفة فى الانتصار لنظريتهم حتى كاد ينكر أن لغير العوامل الاجتماعية أثراً فى شئون اللغة ، فانبرى للرد عليهم طائفة من الباحثين فى « علم النفس اللغوى » على رأسها أستاذى المرحوم دولا كروا Delacroix (٤) وطائفة من « علماء اللغة » على رأسها العلامة دوزا Dauzat (٥) . فعادت هذه المناقشات على علم اللغة بأحسن النتائج وأطيب الثمرات (٦) .

---

(١) قد جمع تلاميذ العلامة دوسوسور بعد وفاته طائفة من بحوثه القيمة فى كتاب سموه « دروس فى علم اللغة » Cours de Linguistique Générale ، طبع بلوزان عام ١٩١٦ .

(٢) من أشهر مؤلفاته : « اللغة » Le Langage و « مقتطفات من بحوث مييه » Mélange Meillet . ومن رسائله بحث نشر بصحيفة علم النفس Journal de Psychologie عنوانه : « اللغات وصفاتها الاجتماعية ومذهب دوسوسور » .

(٣) العلامة مييه من تلاميذ المرحوم فرديناند دوسوسور وهو أستاذ فى « الكوليج دو فرانس » ومدير « معهد الدراسات العليا » بباريس ورئيس « جمعية علم اللغة بباريس » ، وهو من أكثر علماء اللغة مولفات وأوسعهم إنتاجا . وقد كتب أكثر من عشرين مجلداً ضخماً فى مختلف بحوث هذا العلم ، منها : « علم اللغة التاريخى وعلم اللغة العام » و « اللغات الهندية ـ الأوروبية » و « تاريخ اللغة اليونانية » و « الصفات العامة للغات الجرمانية » و « اللغات فى أوربا الحديثة » و « لغات العالم » (وهذا الكتاب كان بالاشتراك مع الأستاذ مرسل كوهين Marcel Cohen وآخرين) . وقد اشترك مع العلامة [دور كايم] وأعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية فى إصدار « التقويم الاجتماعى » Année Sociologique الذى يعد أهم مجلة أوربية فى علم الاجتماع فى العصر الحاضر (ظهر منه نحو خمسة عشر مجلداً يبلغ متوسط كل منها حوالى ستمائة صفحة من القطع الكبير) . — وللأستاذ مييه فى معظم أجزاء هذا التقويم بحوث قيمة فى علم اللغة ؛ من أهمها بحث ظهر فى المجلد التاسع عام ١٩٠٦ ، تحت عنوان « كيف تتغير معانى الكلمات » .

(٤) انظر الفصل الثانى من الكتاب الأول من مؤلفه « اللغة والفكر » . — فقد وقف هذا الفصل جميعه على نقد نظرية دو سوسور .

(٥) انظر صفحات ١٨٢ — ١٩٥ من كتابه « فلسفة اللغة » .

(٦) سنعالج هذا الموضوع من جميع وجوهه فى الفقرة الثالثة من الفصل السادس .

تاريخ البحوث اللغوية فى الثقافة العربية

ترجع أهم البحوث اللغوية فى الثقافة العربية إلى الفروع الآتية :

١ – النحو والصرف : أما النحو فكان الغرض الأساسى منه فى مبدأ الأمر ضبط القواعد التى يسير عليها إعراب المفردات ليسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها فى الحديث والكتابة ، ولتعصم الناس من اللحن الذى أخذ يتفشى منذ صدر الإسلام من جراء تطور اللغة واختلاط العرب بالعجم . ثم أخذ نطاق هذا العلم يتسع قليلا قليلا وأخذ علماؤه يعرضون لكثير من الموضوعات المتصلة بأجزاء الجملة وترتيبها ، وأثر كل جزء منها فى الآخر ، وعلاقة هذه الأجزاء بعضها ببعض ، وطريقة ربطها ، وأنواع الجمل ، وعلاقة الجمل التى تتألف منها العبارة بعضها ببعض ، وأقسام الكلمة ، وأنواع كل قسم منها ، ووظيفته فى الدلالة . . . ، حتى شمل جميع البحوث التى يطلق الفرنجة على مثلها اسم « السنتكس التعليمى » ، أى « علم التنظيم التعليمى » [١] . – وأما الصرف فموضوعه ضبط القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات العربية وتصريفها وتغير أبنيتها بتغير المعنى وما يتصل بذلك من البحوث التى يطلق الفرنجة على مثلها اسم « المورفولوجيا التعليمية » أى « علم البنية التعليمى » [٢] .

وقد كانت العناية فى المبدأ مقصورة على البحوث النحوية ، وظل الأمر كذلك حتى أواخر القرن الأول الهجرى . ثم أخذ العلماء يعالجون بعض مسائل الصرف استطرادا وفى خلال دراستهم لمسائل النحو . ثم أخذت مسائل الصرف تنفصل شيئا فشيئا عن مسائل النحو ، وتدرس على حدة ، حتى تكون منها علم متميز . غير أن هذا العلم لم يستقل تمام الاستقلال عن النحو . فلا تزال طائفة كبيرة من مسائله ممتزجة بالنحو ، ولم ينفك الباحثون ، إلى عهد قريب ، ينظرون إلى الشعبتين نظرتهما إلى علم واحد ويعالجون مسائلهما فى مؤلفات واحدة [٣] .

ويرجع الفضل فى النهوض بهاتين الشعبتين إلى عدد كبير من أعلام الباحثين بالبصرة والكوفة وبغداد ومصر وغيرها فى العصرين الأموى والعباسى ، من أشهرهم أبو الأسود الدؤلى (واضع النحو بإرشاد الإمام على بن أبى طالب) وعنبسة الفيل ، وعبد الرحمن

---

(١) انظر صفحة ٦ (رقم حـ) وصفحة ٧ .

(٢) انظر صفحة ٦ (رقم ب) .

(٣) ولكن جرت عادة معظمهم أن يفرد لكل منهما أبوابا على حدة .

ابن هرون الأعرج ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وميمون الأقرن ، وعبدالله بن اسحق ، وعبد الله بن أسماء الحضرمى ، والأخفش الأكبر ، وأبو عمرو بن العلاء (وجميع هؤلاء من قدامى الباحثين من البصريين ، ولم يصلنا شيء يعتدبه من مؤلفاتهم)- وعيسى بن عمر الثقفى (وكان على رأس جماعة يرجع إليها الفضل فى نقل هذا العلم إلى الكوفة ، ويقال إنه ألف فى نحو البصريين أكثر من سبعين مجلدا منها كتابا «الجامع» و « الإكمال » ، ولكن لم يصلنا شيء يعتد به من مؤلفاته)- وأبو جعفر الرؤاسى صاحب كتاب « الفيصل » فى نحو الكوفيين ، وأبو مسلم معاذ الهراء (وكلاهما من قدامى الباحثين من الكوفيين)- والخليل بن أحمد الذى يرجع إلى جهوده الجبارة ومؤلفاته الجليلة وعبقريته النادرة أكبر قسط من الفضل فى النهوض بهاتين الشعبتين وغيرهما من شعب البحوث اللسانية - وأعضاء مدرسة المحدثين من البصريين الذين كان على رأسهم سيبويه (أشهر أئمة النحو وصاحب « الكتاب » ، الذى صار إماما لكل الباحثين من بعده) ، ثم الأخفش الأوسط (شارح « كتاب » سيبويه) ، ثم أبو على الفارسى وأبو القاسم الزجاج (وقد كتب كل منهما كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو سيبويه) ، ثم المازنى والسجستانى ، ثم المبرد - ومدرسة المحدثين من الكوفيين الذين كان على رأسهم الكسائى ، ثم الفراء (صاحب كتاب الحدود) ، ثم ابن السكيت وابن سلام ، ثم ثعلب (وقد حدث بين هذه المدرسة ومدرسة المحدثين من البصريين خلاف فى طائفة كبيرة من المسائل وفى إعراب كثير من آى القرآن ، ونشأت بينهما مساجلات طريفة فاضت بها كتب الأخبار)- وابن خالويه (صاحب « كتاب ليس » و « رسالة فى إعراب ثلاثين سورة من القرآن ») ، وابن جنى (صاحب كتب « سر الصناعة » فى النحو و « شرح تصريف المازنى » و « اللمع » فى النحو و « المحتسب » فى إعراب الشواذ ، و « علل التثنية » ... وغيرها) - وجماعة المتأخرين الذين جاءوا بمذهبهم فى الاختصار والاستيعاب لجميع أبواب العلم ، فوضعوا أهم كتب النحو والصرف وأكملها وأدقها وأكثرها تهذيبا وتنقيحا ، ومن أشهرهم الزمخشرى (صاحب « المفصل » فى النحو) ، وابن الحاجب (صاحب كتب « المقدمة » و « الكافية » و « الشافية » فى النحو والصرف) ، وابن معطى (صاحب ألفية فى النحو) ، وابن مالك (صاحب كتاب « التسهيل » و « الألفية » الشهيرة) ، وعز الدين الزنجانى (صاحب كتاب « تصريف العزى ») ، والسكاكى (صاحب كتاب « مفتاح العلوم » فى النحو والصرف والبلاغة

والعروض)، وابن هشام (صاحب كتب « القطر » و « التوضيح » و « الشذور » و « المغنى » ... وغيرها ، وهو أكثر المتأخرين مؤلفات وأدقهم بحثا[١]) .

٢ — علوم البلاغة ، التى تشمل ثلاثة بحوث : المعانى وموضوعه بيان ماينبغى أن يكون عليه الأسلوب العربى ليطابق مقتضى الحال وليعبر عن المراد أبلغ تعبير ؛ والبيان وموضوعه شرح المناهج التى يسلكها الأسلوب العربى فى استخدام التشبيه والمجاز والكناية ؛ والبديع وموضوعه دراسة المحسنات المعنوية واللفظية التى يحتملها الأسلوب العربى . - فموضوعات البحوث الثلاثة ترجع إلى مايسميه المحدثون من علماء الفرنجة « الستيليستيك التعليمى[٢] » أى « علم الأسلوب التعليمى » .

وقد كتب المتقدمون بعض بحوث فى هذه العلوم . فمن ذلك « مجاز القرآن » لأبى عبيدة ، و « إعجاز القرآن » للجاحظ و « البديع » لابن المعتز[٣] ، وبعض آراء للمبرد فى الأغراض البلاغية لتوكيد الكلام ، وبعض بحوث لقدامة بن جعفر عقب بها على بديع بن المعتز وحاول فيها تكملته . - ولكن أول من تصدى لاستيعاب هذه البحوث الثلاثة فى مؤلف مستقل هو ابو هلال العسكرى فى كتابه « الصناعتين » . ثم جاء من بعده عبد القاهر الجرجانى فميز بحوث المعانى من بحوث البيان ، ورد مسائل كل منهما إلى قواعد مضبوطة سهلة المأخذ ؛ فكان بذلك المنشىء الحقيقى لهذين العلمين[٤] . ثم خلف من بعده خلف من الأعاجم كتبوا فى هذه العلوم بأساليب ركيكة فلسفية أساءت إلى البلاغة أكثر مما أحسنت إليها . ومن هؤلاء السكاكى الذى وقف قسما كبيراً من كتابه « مفتاح العلوم » على المعانى والبيان البديع ؛ والخطيب القزوينى الذى لخص هذا القسم فى كتابه « تلخيص المفتاح » .

---

(١) وقد شهد بذلك العلامة ابن خلدون فى مقدمته إذ يقول بصدد كتابه المغنى : « استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة وتكلم عن الحروف والمفردات والجمل وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها .. فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ووفور بضاعته منها .. وقوة ملكته واطلاعه » .

(٢) انظر صفحتى ٧ (رقم د) ، ٨ .

(٣) جمع ابن المعتز نحو سبعة عشر نوعا من المحسنات سماها البديع . ولم تكن جميعها ، فى الواقع ، من المحسنات البديعية ، بل كان من بينها بعض مسائل البيان كالاستعارة والكناية .

(٤) كتب عبد القاهر كتابيه : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » وقد وقف معظم فصول الأول على المعانى ومعظم فصول الثانى على البيان .

٣ – علوم القراءات – وموضوعها بيان الوجوه التى قرئت بها آى الذكر الحكيم. وقد ظلت موضوعات هذه البحوث يأخذها الناس عن القراء عن طريق التلقين، حتى جاء العصر العباسى، فعكف العلماء على تدوينها، وضبط قواعدها، ونقد أسانيدها، فقطعوا بها شوطا كبيراً فى سبيل الكمال. – وأهمية هذه البحوث من الناحية اللغوية ترجع إلى الأمرين الآتيين:

(أولا) أنها تقفنا على كثير من نواحى اللهجات العربية فى صدر الإسلام. وذلك أن اختلاف القراءات يرجع أهم أسبابه إلى اختلاف العرب فى لهجاتها، وإلى أن القرآن لم يأت كله بلغة قريش بل جاء فيه كثير من المفردات والتراكيب بلغة غيرها، وإلى أن الرسول عليه السلام كان يقرؤه لكل قبيلة بالطريقة التى تتفق مع لهجتها.

(ثانيا) أن معظم المؤلفات فى القراءات قد اشتملت على بحوث دقيقة قيمة فى أصوات اللغة العربية وطبيعتها وصفاتها وأنواعها ومخارجها، والمد وأحكامه ومدته والغن وضروبه، وتأثر أصوات الكلمة أو الكلمات المتجاورة بعضها ببعض... وما إلى ذلك من مسائل «الفونيتيك»[1] الخاصة باللغة العربية[2].

٤ – أدب اللغة وتاريخ الأدب والنقد الأدبى. – نهضت هذه الفروع نهضة كبيرة فى العصر العباسى؛ ولم تنفك، منذ ذلك العهد إلى الآن، موضع عناية الباحثين من العرب وغيرهم، حتى أصبحت المكتبة العربية من أغنى مكاتب العالم فى هذه الناحية، وأصبحت مراجع هذه الفروع من أكبر المراجع عدداً، وأوسعها نطاقا، وأجلها قيمة[3].

٥ – متن اللغة – وتنقسم مؤلفاته ثلاثة أقسام: –

(ا) معجمات ترمى إلى شرح المفردات، فترتب الكلمات ترتيباً خاصا ليسهل على من يريد الوقوف على معنى أى كلمة الرجوع إليها فى موطنها. وأول من عمل على تدوين معجم شامل من هذا القبيل هو الخليل بن أحمد. فقد وضع كتابه «العين»، ورتب كلماته حسب ترتيبها فى مخارج أول حروفها، مبتدئا بأقصى الحلق (ولذلك بدأه بحرف العين الذى سمى الكتاب باسمه) ومنتهياً بالشفتين. غير أنه يظهر أن المنون قد عاجلته قبل إتمامه، فأكمله جماعة بعد وفاته بأكثر من نصف قرن. وظهر بعد ذلك معجم

(١) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ٥ (رقم ٣).

(٢) انظر تفصيل الكلام فى موضوع القراءات بكتابنا «فقه اللغة» الطبعة الثانية ص ٩٤.

(٣) لضعف العلاقة التى تربط هذه البحوث بموضوعنا لم نر كبير حاجة للكلام عن تاريخها وأشهر المؤلفين فيها كما فعلنا فى الفروع السابقة.

« الجمهرة » لابن دريد ؛ وقد جمع مواده من كتاب العين ومن كتب أخرى للاصمعى وأبى عبيدة وغيرهما ، ورتب مفرداته حسب ترتيب حروف الهجاء من الهمزة إلى الياء . وألف أبو منصور محمد بن أحمد معجمه « التهذيب » على ترتيب الخليل لكتابه العين فى عشرة مجلدات . وألف الصاحب بن عباد معجمه « المحيط » فى سبعة مجلدات ، وأحمد ابن فارس « المجمل » ؛ والجوهرى « الصحاح » الذى جمع فيه أربعين ألف مادة ؛ والفيروزابادى « القاموس المحيط » ؛ والزمخشرى « أساس البلاغة » ؛ والصغانى « تكملة الصحاح » و « العباب » ثم جمعهما فى كتاب واحد سماه « مجمع البحرين » ؛ وابن منظور المصرى « لسان العرب » الذى ضمنه معظم ما كتب قبله فى هذا الباب ؛ والمقرى « المصباح المنير » ؛ والرازى « مختار الصحاح » الذى اختصر فيه صحاح الجوهرى . . . وغير ذلك كثير [١] .

وهذا النوع من المعجمات قليل الفائدة للباحث فى علم اللغة . وذلك أن مؤلفيها قد وجهوا كل عنايتهم إلى ذكر معانى الكلمات والاستشهاد عليها أحيانا بالقرآن والحديث والمأثور من كلام العرب ، ولكنهم أغفلوا إغفالا تاما تعقب معانى كل كلمة فى مراحل حياتها ، وشرح تطورها فى مختلف العصور ، وبيان الأصول التى انحدرت منها .... وما إلى ذلك من مسائل « الليكسيكولوجيا » و « الإيتيمولوجيا » [٢] التى تشغل الآن أكبر حيز فى المعجمات الأفرنجية الحديثة ، وتهم كثيراً طوائف الباحثين فى علم اللغة .. هذا إلى أن معظم هذه المعجمات العربية لم يتبع نظاما معينا فى ترتيب معانى الكلمة ، فخلط بين الحقيقى منها والمجازى ، والقديم والحديث ، كما خلط بين المعانى فى مختلف لهجات العرب ؛ فأصبح البحث فيها شاقا ، وجاءت مضللة فى مواطن كثيرة [٣] .

(ب) معجمات ترمى إلى بيان المفردات الموضوعة لمختلف المعانى . فترتب المعانى بطريقة خاصة وتذكر الألفاظ التى تقال للتعبير عن كل معنى منها . فتجد أبوابها مرتبة على مثل هذا الوضع : خلق الإنسان ، الحمل والولادة ، الرضاع والفطام ، الغذاء السىء للولد ، أسنان الأولاد وتسميتها فى المراحل المختلفة ، شخص الإنسان وقامته وصورته ،

---

(١) انظر تفصيل الكلام فى هذا النوع من المعجمات بكتابنا « فقه اللغة » الطبعة الثانية صفحات ١٩٠ — ١٩٩ .

(٢) انظر صفحة ٥ (رقم ١) ، وصفحة ٨ (رقم ٥) .

(٣) يستثنى من ذلك بعض معجمات قديمة حرصت نوعا ما على التفرقة بين الحقيقة والمجاز (الأساس للزمخشرى مثلا) وبعض معجمات حديثة سارت من بعض الوجوه على غرار المعجمات الأوروبية فى تنظيم الكلمات وترتيب معانيها . . . وما إلى ذلك . ومن هذه الطائفة « محيط المحيط » لبطرس البستانى ، و « أقرب الموارد » للشرتونى ، و « البستان » لعبد الله البستانى .

صفات الرأس ، قلة الشعر وتفرقه فى الرأس ... وهلم جرا . وتذكر فى كل باب المفردات التى تعبر عن موضوعه ، مرتبة ترتيبا خاصا ، ومبينة مدلولاتها ومواطن استعمال كل منها .

فالقسم الأول من المعجمات يحتاج إليه من يعرف اللفظ ويرغب فى الوقوف على معناه ؛ على حين أن هذا القسم يحتاج إليه من يعرف المعنى ويرغب فى الوقوف على الألفاظ الموضوعة له .

ومن أشهر ما ألف من معجمات هذا القسم خمسة كتب : أولها « كتاب الألفاظ » لابن السكيت وهو أقدم ما ألف من هذا النوع [١] ، وثانيها « الألفاظ الكتابية » للهمذانى (المتوفى سنة ٣٢٧ هـ) ؛ وثالثها « مبادىء اللغة » للأسكافى (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) ؛ ورابعها « فقه اللغة » للثعالبى فى مجلد واحد صغير [٢] ؛ وخامسها « المخصص » لابن سيده [٣] فى سبعة عشر جزءاً ، وهو أدقها دراسة ، وأحسنها تنسيقا ، وأكثرها استيعابا لمسائل البحث .

وقد تناول كلا الكتابين الأخيرين ، فى أثناء دراسته لمسائله الأساسية ، بعض بحوث من فصيلة أخرى سنعرض لها عند كلامنا عن بحوث فقه اللغة [٤] ،

(ح) رسائل فى طوائف خاصة من الألفاظ أو المعانى : ككتاب أبى حنيفة فى الأنواء والنبات ، وكتب يعقوب فى النبات والأصوات والفرق ؛ وكتب أبى حاتم فى الأزمنة والحشرات والطير ؛ وكتب الأصمعى فى السلاح والإبل والخيل ؛ وكتب

---

(١) هو العلامة أبو يوسف يعقوب بن إسحق السكيت ، توفى عام ٢٤٣ أو ٢٤٦ هـ فى خلافة المتوكل . — وقد راجع « كتاب الألفاظ » ونقحه وشرح شواهده وكملها وعلق عليه الخطيب التبريزى شارح ديوان الحماسة ، وضمن هذا كله كتاباً سماه « كنز الحفاظ فى تهذيب الألفاظ » أى فى تهذيب « كتاب الألفاظ » لابن السكيت . وقد عثر بمكتبة ليدن على نسخة خطية من هذا الكتاب الأخير ، فأشرف على طبعها بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت جماعة من الآباء اليسوعيين على رأسهم الأب لويس شيخو . بعد أن أضافوا إليها كثيراً من التعليقات اللغوية الهامة وذيلوها بشروح وإصلاحات وفوائد وفهارس كبيرة القيمة .

(٢) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى ولد فى نيسابور عام ٣٥٠ هـ وتوفى عام ٤٢٩ هـ ، وله مؤلفات كثيرة قيمة فى مختلف فروع العلوم اللسانية . — وفى تسمية كتابه هذا بفقه اللغة شىء كثير من التجوز ، وذلك أنه ليس فيه ما يصح تسميته بفقه اللغة بالمعنى الذى شرحناه فى الفقرة الأولى من كتابنا إلا نحو خمس عشرة صفحة (الباب التاسع والعشرون) ؛ أما ما عدا ذلك فمتن لغة مرتب حسب فصائل المعانى .

(٣) هو أبو الحسن على بن إسماعيل الأندلسى المتوفى عام ٤٥٨ هـ .

(٤) انظر ص ٥٩ .

أبى زيد فى المطر ، واللبأ ، واللبن ، و الغرائز ، والجراثم [١] ؛ وشرح غريب الحديث للجزرى ؛ وكتاب الأضداد فى اللغة للأنبارى [٢] ، وكتاب نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد [٣]. ومن هذا النوع كذلك المعجمات الفلسفية والعلمية وما إليها ، ككشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ، والتعريفات للجرجانى ، والكليات لأبى البقاء . . . وهلم جرا [٤] .

وهذا النوع من المعجمات كان أسبق فى الظهور من النوعين السابقين . فقد ظهر بعض كتب منه فى صدر العصر العباسى .

٦ — بحوث فى « فقه اللغة العربية » وبعض مسائل من « علم اللغة العام » [٥] :
فمن ذلك دراسة الأصمعى للاشتقاق فى اللغة العربية ؛

ومعظم البحوث التى ضمنها ابن فارس [٦] كتابه « الصاحبى : فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها » : كبحثه فى نشأة اللغة العربية [٧] ، وخصائص اللسان العربى ، واختلاف لغات العرب ، ولغات العامة من العرب ، والقياس والاشتقاق فى اللغة العربية ، وآثار الإسلام فى اللغة العربية ، وأسماء الأشخاص ومأخذها ، والمترادف ، وحروف الهجاء العربية ، وحروف المعنى ، وسنن العرب فى حقائق الكلام والمجاز والنحت والاشتراك . . . وهلم جرا ؛

---

(١) ذكر هذه الكتب صاحب المخصص من بين الكتب التى رجع إليها فى مؤلفه (انظر الجزء الأول من المخصص صفحتى ١١ ، ١٢) .

(٢) هو محمد بن القاسم محمد بن بشار الأنبارى ، جمع فى كتابه هذا طائفة كبيرة من الألفاظ التى يطلق كل منها على المعنى وضده وشرحها شرحا وافيا مستشهداً بما ورد بصددها فى كلام العرب شعره ونثره .

(٣) كتاب حديث للشيخ ابراهيم اليازجى اللبنانى ، ضمنه طائفة من الألفاظ المترادفة فى مختلف الشئون وطبع بمطبعة المعارف عام ١٩٠٤ .

(٤) انظر أمثلة أخرى من هذا النوع من المعجمات فى كتابنا « فقه اللغة » الطبعة الثانية صفحتى ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٥) انظر المعنى الذى نقصده من « فقه اللغة العربية » و« علم اللغة » العام بصفحتى ١١ ، ١٢ .

(٦) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزوينى ، من أشهر أئمة اللغة فى القرن الرابع الهجرى .

(٧) درس ابن فارس هذا الموضوع من وجهة نظر ضيقة ، فتساءل هل اللغة العربية توقيف أم اصطلاح ، وذهب إلى أنها توقيف بدليل قوله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها . وهو بذلك يظن أن اللغة العربية نشأت مع الإنسان الأول . وجميع من عرضوا لهذا الموضوع من مؤلفى العرب لم يتجاوز بحثهم هذا النطاق الساذج ما عدا ابن جنى ومن نهج نهجه كما سنذكر ذلك .

والبحوث التى ضمنها ابن جنى [١] كتابه « الخصائص » : كبحثه فى أصل اللغة وهل هى إلهام أم اصطلاح [٢]، والقول فى هذه اللغة أفى وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط ، والاطراد والشذوذ ، ومقاييس العربية ، والألفاظ والمعانى فى اللغة العربية ، وتعليل ظواهر اللغة ومدى قصد العرب لهذه العلل ، والقياس فى كلام العرب ، وتركب اللغات ، واختلاف اللهجات ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، والاشتقاق الأكبر ، وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى ، وامساس الألفاظ أشباه المعانى [٣] . . . وهلم جرا ؛

وبعض البحوث التى عرض لها ابن سيده فى مقدمة كتابه المخصص كالبحث فى نشأة اللغة العربية [٤] ، والتى عرض لها فى الأجزاء الأخيرة من هذا الكتاب كالبحوث المتعلقة بالتضاد ، والترادف ، والاشتراك ، والاشتقاق ، والتعريب ، والمجاز ، والممدود والمقصور ، والتذكير والتأنيث ، وإبدال الحروف بعضها من بعض . . وهلم جرا ؛

وبعض بحوث قليلة ضمنها الثعالبى كتابه « فقه اللغة » ، كالبحث فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية : أسماء فارسيتها ميتة وعربيتها محكية مستعملة ، أسماء عربية يتعذر وجود فارسية أكثرها ، أسماء قائمة فى لغة العرب والفرس على لفظ واحد ، أسماء تفردت بها الفرس دون العرب فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هى ، مانسبه بعض الأئمة إلى اللغة الرومية [٥] ؛

والبحوث التى ضمنها أبو منصور الجواليقى [٦] كتابه « المعرب من الكلام الأعجمى » ، ودرس فيها نشأة التعريب وشروطه ، وذكر معظم الألفاظ المعربة مرتبة على حسب حروف الهجاء ؛

---

(١) هو أبو الفتح عثمان بن جنى ولد عام ٣٣٠ وتوفى عام ٣٩٢ هـ وهو من أشهر علماء النحو واللغة وأدقهم بحثاً وأكثرهم إنتاجا .

(٢) عرض ابن جنى مختلف الآراء بهذا الصدد ومنها آراء ذهب إلى مثلها كثير من علماء الفرنجة فى العصور الحديثة وناقشها مناقشة متزنة حكيمة تشهد بسعة اطلاعه وقوة تفكيره .

(٣) عرض ابن جنى فى الأبواب الثلاثة الأخيرة لموضوعات هامة فى فقه اللغة وهى دلالة الحروف فى لفظ ما على أصل معنوى كيفما اختلف ترتيبها والعلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها .

(٤) انظر الجزء الأول صفحات ٣ — ٦ .

(٥) تشغل هذه البحوث نحو خمس عشرة صفحة فقط من الباب التاسع والعشرين كما سبقت الإشارة إلى ذلك بالتعليق الثانى بصفحة ٥٨ .

(٦) من علماء القرن السادس الهجرى .

والبحوث القيمة التى ضمنها السيوطى [١] كتابه « المزهر » : كالبحث فى نشأة اللغات ، والمصنوع والفصيح ، والحوشى والغرائب والشوارد والنوادر ، والمستعمل والمهمل ، وتداخل اللغات ، وتوافق اللغات ، والمعرب ، والمولد ، وخصائص اللغة ، والاشتقاق ، والمشترك ، والترادف ، والتضاد ، والحقيقة والمجاز ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والإبدال ، والقلب ، والنحت ، وما اختلفت فيه لغة الحجاز ولغة تميم ، والتصحيف والتحريف ، والأسماء والكنى والألقاب ... وهلم جرا ؛

والبحوث التى ضمنها شهاب الدين الخفاجى [٢] كتابه « شفاء العليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » ؛

والبحوث التى ضمنها أحمد فارس الشدياق [٣] كتابه « سر الليال فى القلب والإبدال » وخاصة ماورد فيه بصدد العلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها ، ودلالة الحروف فى لفظ ما على أصل معنوى كيفما اختلف ترتيبها ، ورجع الكلمات إلى أصولها . . . وما إلى ذلك .

والبحوث الحديثة التى قام بها طائفة من المستشرقين وغيرهم بهذا الصدد كبحوث اليازجى فى كتابه « اللغة والعصر » ومباحث الكرملى والبحوث التى كتبها أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى مجلة المجمع .

---

(١) جلال الدين السيوطى أسمى من أن يعرف به ، فهو من أشهر مؤلفى العرب فى جميع العلوم ، ولد عام ٨٤٩ هـ . وكتابه المزهر من أجل ما ألف فى فقه اللغة العربية وهو فى جزءين كبيرين .

(٢) من علماء القرن الحادى عشر الهجرى .

(٣) من علماء القرن الثالث عشر الهجرى .

الفصل الأول

نشأة اللغة الإنسانية وتطورها

---

(١) أنواع التعبير الإنسانى

للتعبير الإنسانى طرق كثيرة يرجع أهمها إلى قسمين رئيسين :

(القسم الأول) التعبير الطبيعى عن الانفعالات . ـ ويشمل جميع الأمور الفطرية غير المقصودة التى تصحب مختلف الانفعالات السارة والأليمة : كالصراخ ، والضحك ، والبكاء ، وتفتح الأسارير وانقباضها ، واتساع الحدقة ، وإغماض العينين ، واحمرار الوجه واصفراره ،ووقوف شعر الرأس ، وارتعاد الجسم . . . وما إلى ذلك من الظواهر الفطرية التى تبدو بشكل غير إرادى فى حالات الفرح والحزن والألم والخوف والخجل والاشمئزاز . . . وما إليها ، والتى تعبر عن قيام حالة وجدانية خاصة بالشخص الصادرة عنه .

وتنقسم هذه التعبيرات من حيث الحاسة التى ندركها عن طريقها إلى نوعين :

١ ـ تعبيرات بصرية ، أى تصل عن طريق حاسة النظر، كالحمرة والصفرة والرعشة وانقباض الأسارير وانبساطها واتساع الحدقة وإغماض العين ووقوف شعر الرأس والعدو . . . وما إلى ذلك من الظواهر الجسمية التى تصحب مختلف الانفعالات .

٢ ـ تعبيرات سمعية ، أى تصل عن طريق حاسة السمع ، كالضحك والبكاء والصراخ . . . وما إلى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التى تصحب حالات الفرح والألم والحزن والسرور . . . وهلم جرا . ويتألف هذا النوع من أصوات مبهمة (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (حروف مد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع (حروف ساكنة) .

وقد تكفلت بحوث علم النفس بدراسة هـذا القسم بنوعيه ، وشرح مظاهره ، ومنشأ كل منها ، والقوانين التى تشرف عليه ويخضع لها فى مختلف نواحيه ، ووسائل

إدراكه، وفهم مايعبر عنه ... وهلم جرا [١] .

(القسم الثانى) التعبير الوضعى الإرادى . ـ ويشمل جميع الوسائل الإرادية التى يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن المعانى التى يود وقوف غيره عليها .

وتنقسم هذه الوسائل من حيث الحاسة التى ندركها عن طريقها إلى نوعين مشبهين لنوعى القسم الأول : أحدهما التعبيرات الإرادية البصرية ، وثانيهما التعبيرات الإرادية السمعية :

١ ــ أما التعبيرات الإرادية البصرية ، فهى التى تصل عن طريق حاسة النظر ، وتشمل جميع الإشارات الحسية التى تستخدم بقصد الدلالة . وهى على ضربين :

(أحدهما) إشارات مساعدة ونائبة ، أى تساعد لغة الكلام وتنوب عنها فى حالات خاصة أو لضرورة ما : فمن هذه الطائفة الإشارات البحرية وهى التى يستخدمها عن بعد بحارة سفينة مع بحارة سفينة أخرى [٢] ، ومنها إشارات الصيد وهى التى يستخدمها الصيادون بعضهم مع بعض عن بعد حتى لا يسمع صوتهم الحيوان المطارد ، ومنها الحركات اليدوية والجسمية التى يستخدمها الصم البكم للتعبير عما يجول بخواطرهم ، ومنها الإشارات التى يلجأ إليها الفرد أحيانا للتعبير إذا كان المخاطب لا يفهم لغته ، والتى جرت العادة فى بعض الأمم الأولية أن فى بعض أفراد العشائر المختلفة اللهجات بعضهم مع بعض [٣] ، ومنها الإشارات التى تستخدم يستخدمها الشعوب فى حالات الصيام الدينى عن الكلام [٤] ، ومنها الحركات التى يستعين بها فى أثناء

---

(١) انظر مؤلفات علم النفس ، وبخاصة البحث الجليل الذى كتبه أستاذنا العلامة دوما Dumas فى الجزء الأول من كتاب « علم النفس » Traité de Psychologie الطبعة الأولى صفحات ٦٠٦ — ٧٣٢ .

(٢) هذه الإشارات دولية معروفة لجميع البحارة ، وتدرس فى مدارس البحرية .

(٣) عثر علماء الأتنوجرافيا على هذه الظاهرة عند كثير من قبائل السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا ، وعند بعض العشائر الأفريقية . وقد روى الأستاذ كوهل Kohl أنه إذا التقى أحد الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) بآخر من غير عشيرته ، مختلف عنه فى لغته ، فإنهما يلجآن فى تعبيرهما إلى لغة الإشارات التى تعتبر عند هذه العشائر بمثابة لغة دولية . وقد مهر الهنود الحمر فى هذه اللغة أيما مهارة . ففى إمكان المتخاطبين أن يظلا يوما كاملا يتحدثان عن طريق الإشارات باليد والأصابع والرجلين ، وأن يقص كل منهما على الآخر كل ما يود قصه عليه . — انظر ليفى برول : « الوظائف العقلية فى الأمم الأولية » ١٧٨ وتوابعها Levy Bruhl : Fonctions Mentales... etc. .

(٤) يوجد الصيام الدينى عن الكلام عند كثير من الأمم الأولية وبخاصة عند سكان أستراليا وامريكا . فقد ذكر الأستاذان سبنسر وجيلين فى كتابهما عن سكان أستراليا الوسطى حالات كثيرة من هذا القبيل ، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة ، تبلغ أحيانا عاما كاملا، =

حديثهم أهل اللغات الساذجة الناقصة لتكملة ماينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة[١]؛ ومنها الحركات التى تصحب حديثنا نحن لتوكيد المعانى أو لتمثيل الحقائق أو لزيادة التوضيح؛ والتى نستخدمها وحدها للدلالة على الإيجاب والنفى والاستحسان وما إلى ذلك، كالإيماء بالرأس للتعبير عن القبول، وتحريك السبابة حركة مستعرضة للتعبير عن الرفض أوالنفى، ومد الشفتين ووضع السبابة عليهما للأمر بالسكوت... وهلم جرا.

(وثانيهما) إشارات أصيلة عامة، وهى التى يتكون منها لغة كاملة مستقلة تستخدم وحدها فى جميع الشئون والظروف. — وقداستخدم هذا النوع من اللغات عندبعض الجماعات الإنسانية ولا يزال مستعملا فى بعض العشائر. فقد عثرفى الأمم الأولية على جماعات كثيرة لا تكاد تستخدم فى تعبيرها غير الإشارات اليدوية والجسمية. ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا وبعض العشائر بأفريقيا الوسطى. ويطلق على هذا الضرب من التعبير اسم «لغة الإشارات» أو «الإشارات التحليلية» Gestes Analytiques [٢] وقد عنى بدراسته عدد كبير من علماء الإتنوجرافيا والاجتماع من أشهرهم الكولونل مولرى Mallery [٣] وتيلور Taylor [٤] ورومان Romanes [٥] وليبوك Lubock [٦]، وسبنسر وجيلين Spencer and Gillen [٧]، وليفى

= صائمة عن الكلام. — ويظهر أن شيئا من هذا كان موجوداً فى ديانة اليهود، بدليل قوله تعالى عن لسان مريم: «إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا... فأشارت إليه... الخ».

(١) لوحظ هذا فى كثير من الأمم الأولية، فقد روى عن البوشيمان Boschimans (عشائر بدائية تسكن أفريقيا الجنوبية) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلا يضطرون إلى إشعال النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية التى تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتحدد مدلولاته. — انظر ريبو: «تطور المعانى الكلية» ص ٧٨ وتوابعها Ribot : Evolution des Idées ... etc.

(٢) صاحب هذه التسمية هو العلامة ريبو Ribot (انظر كتابه: «تطور المعانى الكلية»).

(٣) انظر بحثه بالانجليزية: «لغة الإشارات بين هنود أمريكا الشمالية. وقد ظهر فى تقرير مكتب الاتنولوجيا بواشنطن عام ١٨٨١ Sign-Language among the North American-Indians.

(٤) انظر كتابه بالانجليزية: «تاريخ النوع الانسانى فى عصوره الأولى Early History of Mankind».

(٥) انظر كتابه بالانجليزية: «التطور العقلى فى الفصيلة الانسانية Mental Evolution In Man».

(٦) انظر كتابه بالانجليزية: «أصول المدنية The Origin of Civilisation».

(٧) انظر كتابيهما بالإنجليزية: العشائر الأصلية بأستراليا الوسطى» و «العشائر الشمالية بأستراليا الوسطى».

برول Levy Bruhl (١) ، وريبو Ribot (٢) ، والدكتور فيشر الألمانى Fischer (٣) وروث Roth (٤) .

وقد صور الدكتور فيشر هذا النوع من اللغات وقرّبه إلى الأذهان إذ يقول :

إذا التقيتُ بأحد الهنود الحمر وأردت أن أخاطبه بلغة الإشارات لأسأله هل رأى ست عربات يجرها ثيران ويصحبها ستة سائقين منهم ثلاثة مكسيكيون وثلاثة أمريكيون وواحد ممتط صهوة جواده ، فإننى أشير إلى شخصه بيدى للدلالة على كلمة « أنت » ، ثم أشير إلى عينيه للدلالة على فعل « الرؤية » ، ثم أبسط أصابع يدى اليمنى وسبابة يدى اليسرى للدلالة على عدد « ستة » ، ثم أكوّن صورة دائرة بإلصاق نهايتى السبابتين والإبهامين إحداهما بالأخرى وأمد يدىّ إلى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العربة وهى تسير للدلالة على « العربة » ، ثم أضع الكفين ممدودتين بجانبي الجبهة ممثلا قرن حيوان للدلالة على « الثور » ، ثم أمد ثلاثة أصابع من يدى اليسرى وأضع يدى اليمنى تحت شفتى السفلى وأنحدر بها إلى صدرى ممثلا اللحية للدلالة على « ثلاثة مكسيكيين » ، ثم أمد مرة ثانية ثلاثة أصابع وأمسح جبهتى بيدى من اليمين إلى الشمال ممثلا وجها شاحبا للدلالة على « ثلاثة أمريكيين » ، ثم أرفع إصبعاً واحداً وأضع بعد ذلك سبابة اليسرى بين سبابة اليمنى ووسطاها ممثلا الراكب للدلالة على « رجل واحد راكب حصانا » . ـ وأضاف إلى ذلك أن الوقت الذى يقضيه أحد المتكلمين بهذه اللغة فى أداء هذه الحركات لايزيد كثيراً عن الوقت الذى يستغرقه تعبيرنا نحن باللغة الكلامية عن هذا المعنى .

وقرر الأستاذ تيلور ، بصدد هذه اللغة ، أن لها قواعد إشارية لربط أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها ، وأنها فى مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التى تستخدمها ، فهى من هذه الناحية أشبه شىء بلغة دولية ، وأنه يمكن أحيانا التعبير بها عن حقائق دقيقة كعظات وضرب أمثال وقص حكايات ، وأنها فى جملتها ومعظم تفاصيلها تشبه لغة الصم ـ البكم . فقد جمع الكولونل مولرى بين رجل أصم ـ أبكم

---

(١) انظر كتابه بالفرنسية : « الوظائف العقلية عند الأمم الأولية » صفحات ١٧٥ — ٣٠٤ .

(٢) انظر كتابه بالفرنسية : « تطور المعانى الكلية » صفحات ٥٨ — ٦٤ .

(٣) عنى الدكتور فيشر فى بحوث كثيرة بدراسة هذا النوع من اللغات عند عشائر أفريقيا الوسطى ، وعند السكان الأصليين لأمريكا .

(٤) انظر كتابه بالإنجليزية « دراسات اثنولوجية للسكان الأصليين بالقسم الشمالى الغربى بكوينسلندا » .

وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الإشارات ، فأخذ الأصم - الأبكم يقص عليهم بالإشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة ، وعقب على هذه القصة بتعليقات من عنده ، فلم يفتهم فهم أى حركة من حركاته ، لاتحادها مع حركاتهم اللغوية .

وذهب العلامة ريبو إلى أنها قابلة للإصلاح والتهذيب ، وأنه لو طال استخدام الشعوب الإنسانية لها لسارت فى سبيل الارتقاء ، ولأصابها كثير من أسباب التنقيح تحت تأثير الرقى العقلى ، ومطالب الحياة الاجتماعية ، واتساع حاجات الإنسان ، وأعمال المخترعين والعلماء . . . وما إلى ذلك .

غير أنه مهما ينلها من التهذيب فلن تخلو من مثالبها الذاتية . فهى تستأثر باليد ، فتحول دون القيام بأى عمل آخر فى أثناء التعبير . ويتوقف إدراكها على النظر ، فلا يمكن التعبير بها عن بعد ولا فى الظلام . وهى قائمة على تقليد الأشياء المحسة ، فلا تكاد تقوى على التعبير عن المعانى الكلية أو وصف المشاعر والوجدان . هذا إلى أنها عارية عن الدقة فى كثير من مظاهرها وأنها تقتضى إسرافا كبيراً فى الوقت والمجهود .

٢ - وأما التعبيرات الإرادية السمعية ، فهى التى تصل عن طريق حاسة السمع . وهى الأصوات المركبة ذات المقاطع التى تتألف منها الكلمات .

وهذا النوع هو الذى تنصرف إليه كلمة «اللغة» إذا أطلقت . وهو وحده الذى يهمنا فى بحثنا . وإنما ذكرنا الأنواع الأخرى لاستيفاء مظاهر التعبير من جهة ، ولأننا قد نحتاج إليها من جهة أخرى فى بيان نشأة هذا النوع ، أو فى ضرب الأمثال ، أو الموازنة ، أو مناقشة النظريات وتوضيحها .

(٢) اختصاص الإنسان باللغة ومراكزها

تشترك معظم فصائل الحيوان مع الإنسان فى القسم الأول من قسمى التعبير السابق ذكرهما وهو التعبير الطبيعى عن الانفعالات ، سواء فى ذلك التعبير الطبيعى البصرى والتعبير الطبيعى السمعى . فانفعالات الحيوان جسميها ونفسيها ، كالجوع والعطش والسرور والفرح والخوف والاطمئنان والحزن والاشمئزاز والغضب . . وما إلى ذلك ، يثير كل منها لدى المتلبس به طائفة خاصة من الحركات الفطرية غير المقصودة . وهذه الحركات بعضها بصرى ، أى يصل عن طريق حاسة النظر : كاتساع الحدقة وضيقها ، وبسط الأذنين وخفضهما ، والتكشير عن الناب ، ووقوف الشعر ، وانتفاخ الجسم والأوداج ، والهرب ، والاختفاء ... وما إلى ذلك ، وبعضها سمعى ، أى يتمثل فى صوت يصل عن طريق الأذن : كرغاء

الناقة وبغامها ، وصهيل الفرس ، وقبعه [١] عند نفوره من شيء ، وحمحمته عند الجوع أو الاستئناس ، وشحيج البغل ، ونهيق الحمار ، وخوار البقر ، وثغاء الغنم ، وزئير الأسد ، وعواء الذئب وتضوره وتلعلعه عند جوعه ، ونباح الكلب وضغاؤه إذا جاع ووقوقته إذا خاف وهريره إذا أنكر شيئا أو كرهه ، وضباح الثعلب ، ومواء الهرة ، وضحك القردة ، وصرصرة البازى ، وقعقعة الصقر، وهدير الحمام ، وسجع القمرى ، وزقزقة العصفور ، ونعيق الغراب ، وفحيح الحيات وكشيشها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت ، ونقيق الضفدع . . . وهلم جرا [٢] .

وتشترك كذلك بعض فصائل الحيوان مع الإنسان فى التعبير الإرادى البصرى ، وهو التعبير بالإشارة . ويبدو هذا على الأخص لدى الحيوانات التى تعيش جماعات كالنحل والنمل والقردة والبقر والغنم والوعول وما إليها . ـ فقد ثبت أن كثيراً من هذه الفصائل وغيرها تستخدم أحيانا بعض إشارات جسيمة للتعبير بها بشكل مقصود عن بعض شئونها . ففحل الأوعال (الأيل) يستخدم فى أثناء قيادة قطيعه بعض إشارات برأسه وقرونه للوقوف فيقف جميع أفراد القطيع ؛ وبعض إشارات للسير فيسير جميع أفراد القطيع ، ويستحث المتخلفات بأن ينطح كلا منها نطحاً خفيفاً . ويستخدم الأذكياء من الكلاب مع أفراد فصيلتها ومع الآدميين بعض إشارات بالرأس وغيرها للتعبير بطريق إرادى عن أمور خاصة ، كأن تمر بأظافرها على الباب ليفطن أصحابها إلى وجودها فيفتحوا لها ، أو تدفع إناء طعامها برأسها للتعبير عن حاجتها إلى الغذاء . . . وهلم جرا . وتستخدم كذلك فصائل القردة ، وبخاصة الفصائل العليا منها (الغوريلا ، الشمبنزيه ، الجيبون ، الأورانج ـ أو تانج) وفصائل النحل والنمل بعض إشارات من هذا القبيل . فقد كشف العلامة كوهلر Kœhler عن ظواهر كثيرة من هذا النوع عند فصائل القردة العليا ، منها مايعمله الشمبنزيه حينما يريد أن يرافقه آخر فى طريقه ، أو يرغب أن يعطيه أحد زملائه شيئا مما فى يده ، أو يطلب نداءه عن بعد : فإنه فى الحالة الأولى يحتك به بخفة ويجذبه من ذراعه محدقا فيه ومتقدما بعض خطوات فى الطريق التى يود أن يسلكاها معا ، وفى الحالة الثانية يمدّ يده إلى زميله مد الاستجداء ،

---

(١) صوت يردده الفرس من منخره إلى حلقه عند نفوره من شيء .

(٢) انظر فى هذه الأصوات وغيرها « فقه اللغة » للثعالبى صفحات ٢٠٩ — ٢١٢ طبعة بيروت.

وفى الحالة الثالثة يمد يده ويقبض كفه ويبسطها كما نفعل نحن فى مثل هذه المناسبة (١) .
وقرر الأساتذة كيربى وسبنسر وبورميستر وهوبير وفرانكلين Kirby, Spencer, Burmeister, Huber, Franklin أن كثيراً من طوائف النحل والنمل يستخدم أفرادها ، بعضها مع بعض ، إشارات مقصودة للتعبير بها عن بعض شئونها ، وأن هذه الإشارات تتمثل فى احتكاك بعض أعضاء المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المخاطب بطريقة خاصة . وقام العلامة لوبوك Lubbock بهذا الصدد بطائفة كبيرة من التجارب ، فتبين له صدق ماذهب إليه هؤلاء الأساتذة (٢) .

وأما النوع الأخير من أنواع التعبير التى ذكرناها فى الفقرة السابقة وهو اللغة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، أى الأصوات المركبة ذات المقاطع التى تتألف منها الكلمات فيظهر أن الإنسان قد اختص بها من بين سائر الفصائل الحيوانية .

حقا إن بعض طوائف الحيوان تصدر عنه أصوات شبيهة فى ظاهرها بهذا النوع من التعبير . ولكن بالتأمل فى هذه الأصوات يتبين أنها عارية عن خصائص اللغة فى صورتها الصحيحة ، وأنها ترجع إلى فصيلة أخرى من فصائل الأصوات . وسنعرض فيما يلى لأهم مايبدو عند الحيوان من هذا القبيل ، معقبين على كل مظهر منها بما يبين وجوه الفرق بينه وبين اللغة الصوتية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

يرجع أهم مايلفظه الحيوان من هذه الأصوات إلى ثلاث طوائف :

(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستخدمها الحيوان قاصداً بها التعبير عن بعض شئونه : كالحمحمة التى يرددها الفرس بشكل إرادى عند رؤية صاحبه للتعبير عن حاجته إلى العلف ، والمواء الذى يلجأ إليه الهر لينبىء به عن جوعه ، والنباح الذى

---

(١) انظر كوهلر : « ذكاء الفصائل العليا من القردة » صفحة ٢٩٤ وتوابعها : Koehler : Intelligence des Singes Supérieurs.

(٢) انظر ريبو : « تطور المعانى الكلية » صفحتى ٦٦ ، ٦٧ . — وانظر كذلك لوبوك : « النمل والنحل والزنابير » „ Lubbock : “ Ants , Bees , and Wasps . — وانظر كذلك رومان « الذكاء الحيوانى » Romanes : Animal Intelligence .

هذا وقد أنكر بعض العلماء وجود الإشارات ذات الدلالة المقصودة عند الحيوان . ومن هؤلاء العلامة واسمان Wasmann الذى يرى أن كل الإشارات الحيوانية التى يخيل للإنسان أنها من هذا النوع هى فى الحقيقة فطرية ، وأنها لا تدل المخاطب على شىء معين بل تقتصر على إثارة نشاطه فى ناحية يحددها العمل الذى سيتلو الإشارة . — وتابعه فى هذا أستاذى العلامة دولاكروا . انظر دولاكروا : « اللغة والفكر » صفحة ٧٥ وتوابعها .

يلفظه الكلب قاصداً به إيقاظ أهل المنزل أو إرشادهم إلى أن شخصاً يحوم حول البيت ... وهلم جرا.

وهذه الطائفة ليست، فى الواقع، من اللغة الصوتية فى شىء، وإن أشبهتها فى ظاهرها ووظيفتها. وذلك أنها أصوات مبهمة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر. ومن أهم خصائص الكلام كما لا يخفى اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض. — هذا إلى أنها فى الأصل أصوات فطرية تصحب الانفعالات، وأن كل ما يعمله الحيوان حيالها فى هذه الحالة أن يرددها هى نفسها بشكل إرادى للدلالة على نفس الانفعالات التى تعبر عنها فى شكلها الفطرى أو للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها (الجوع، العطش، الخوف... الخ). وأصوات هذا شأنها لا يصح عدها كلاما، لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعة للدلالة وأنه يعبر به عن معان لا عن انفعالات (١).

(الطائفة الثانية) أصوات متنوعة تلفظها القردة فى اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها وسائل تعبير إرادى، وأن أفراد القردة تتجاذب بها الحديث بعضها مع بعض. — وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح فى الفصائل العليا من القردة وبخاصة «الجيبون».

وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء وإن أشبهتها فى ظاهرها ومناسبات استخدامها. فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعى عن الانفعال، وبعضها مجرد ترديد إرادى لهذا التعبير (٢)، وبعضها من ظواهر التداعى الآلى (٣) أو العدوى الصوتية (٤) أو تقليد الحيوان بطريق فطرى غير إرادى لأصوات

---

(١) يبدو كذلك هذا النوع من الأصوات عند الطفل الإنسانى فى شهوره الأولى كما سنذكر ذلك فى الفصل الثانى. وقد رأينا تسمية هذا النوع عند الطفل «بالأصوات الوجدانية الإرادية». — وقد يلجأ الكبار أنفسهم أحياناً لهذا النوع من التعبير فيضحكون مثلا متكلفين الضحك للتعبير عن السرور.

(٢) أى من الأصوات التى سبق ذكرها فى الطائفة الأولى.

(٣) وذلك أن يرتبط الصوت بشىء آخر بطريقة تجعله يظهر بشكل منعكس غير إرادى كلما ظهر هذا الشىء. وسيأتى بيان ذلك بتفصيل فى الطائفة الثالثة.

(٤) تبدو ظاهرة العدوى الصوتية عند كثير من أنواع الحيوانات، وتبدو كذلك عند الأطفال إذا ضمهم مكان واحد: يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات الآخرين ويبكى أحدهم فيبكى لبكائه الباقون (انظر تفصيل هذا بكتابى «فى التربية» صفحة ٧٠ وتوابعها).

نفسه أو أصوات غيره[١]. ـ هذا إلى أنها ـ على الرغم من تنوعها ، وعلى الرغم من تشابه أعضاء النطق عند فصائل القردة بأعضاء النطق الإنسانية ـ أصوات مبهمة بسيطة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر. وقد تقدم [٢] أن من أهم خصائص الكلام اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض [٣].

(الطائفة الثالثة) أصوات مركبة ذات مقاطع تلفظها بعض الطيور كالببغاء وما إليها من الفصائل التى امتازت أعضاء صوتها بخصائص طبيعية تتيح لها إخراج هذا النوع .

وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء وإن أشبهتها فى الظاهر . وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير . فهى تصدر عنه فى ثلاث حالات ، كلها فطرية آلية عارية بتاتاً عن هذا القصد :

(الحالة الأولى) حينما يكون الطائر متلبساً بانفعال جسمى أو نفسى . وهى فى هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعى عن الانفعالات : تصدر عن غير قصد ، ويثيرها بشكل آلى الانفعال المتلبس به الطائر . وإثارتها مؤسسة على الروابط الطبيعية الفطرية التى تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل آلى أو منعكس وتلفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها . فهى حينئذ من قبيل الضحك والبكاء وما إليهما من مظاهر « التعبير الطبيعى السمعى » . وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعى السمعى يبدو عند الحيوانات الأخرى فى صورة أصوات بسيطة مبهمة ، ويبدو عند هذه الطيور أحياناً فى صورة أصوات مركبة ذات مقاطع .

(والحالة الثانية) حينما تكون محاكاة لصوت إنسانى سمعه الطائر . وهى فى هذه الحالة كذلك تصدر بشكل آلى عار عن قصد التعبير بل عن قصد المحاكاة نفسها .

---

(١) سيأتى شرح هذا فى الطائفة الثالثة .

(٢) انظر صفحة ٦٦ رقم ٢ ، وأول صفحة ٦٩ .

(٣) انظر فى هذا الموضوع بحوث الأستاذ Pfungst الذى درس أكثر من مائتى قرد فى حديقة الحيوان ببرلين ؛ وبحوث Bouton الذى لاحظ فى أثناء خمس سنوات أدوار نمو قرد من فصيلة الجيبون ؛ وبحوث كوهلر الذى كتب كثيراً فى القردة وبخاصة القردة العليا التى ألف فيها كتابه الشهير : «ذكاء القردة العليا» ؛ وانظر كذلك ما كتبه أستاذى العلامة دولاكروا بهذا الصدد فى كتابه « اللغة والتفكير » ص ٧٧ وتوابعها .

وذلك أن هذه الفصائل مزودة بروابط طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثانى تتحرك أحيانا وحدها وتلفظ بشكل آلىّ نفس الأصوات التى يحسها الجهاز الأول : فكلما وصل صوت إلى سمعها فى ظروف خاصة انبعث صداه من أفواهها (١) .

(والحالة الثالثة) قد تسمع الببغاء أحياناً كلمات أو أصواتاً فى مناسبة ما فتكررها كلما حدثت هذه المناسبة أو مناسبة أخرى تشبهها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها تقصد بها التعبير عن أمر معين : فقد تسمع مثلا أصحابها ينادون طفلا باسمه ، فتكرر هذا الاسم كلما رأت الطفل أو رأت دميته أو متاعا من أمتعته (٢) .

وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة فى شىء وإن التبست بها فى بادىء النظر . وذلك أن الطائر لا يقصد بها ، فى الواقع ، التعبير عن أمر ما ، وإنما تصدر منه بشكل غير إرادى على الصورة التى تصدرفيها ظواهر «التداعى الآلىّ» . فمن كثرة تكرار الكلمة أمام الطائر بحضرة الشخص أو الشىء الذى تدل عليه ، يرتبط صوتها بصورة مدلولها ، فينبعث الصوت من الطائر بشكل آلىّ كلما ظهر أمامه المدلول أو ما يتصل به (٣) .

هذا ، ولا يمتاز الإنسان بهذا الصدد عن بقية فصائل الحيوان باللغة الصوتية فحسب ، بل يمتاز عنها كذلك بطائفة من المراكز المخية التى تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز إصدار الألفاظ ، مركز حفظ الكلمات المسموعة . . . وهلم جرا) . فقد ثبت أن هذه المراكز لا يوجد لها نظير فى مخ أى فصيلة حيوانية ، حتى الفصائل العليا من القردة نفسها .

* * *

فالبحث فى نشأة اللغة يتطلب إذن دراسة موضوعين اثنين : أولها نشأة الكلام فى الفصيلة الإنسانية ، وثانيهما نشأة مراكز اللغة فى المخ الإنسانى . — وسنعقد لكل منهما فقرة خاصة ، ثم نكمل بحوث هذا الفصل بفقرة ثالثة فى تطور اللغة الإنسانية .

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع بمؤلفى : « فى التربية » صفحتى ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) من أهم الملاحظات بهذا الصدد ما دونه الدكتور ولكس عضو الجمعية الملكية بصحيفة العلوم العقلية عدد يولية سنة ١٨٧٩ Dr, Wilks, Journal of Mental Science .

(٣) انظر فى هذا الموضوع كتابى الأستاذ رومان : « الذكاء الحيوانى » و « الارتقاء العقلى للانسان » . — وانظر بحثا بهذا الصدد للعلامة ولكس فى المجلة الفلسفية لسنة ١٨٨٠ Revue Philosophique . — وانظر كذلك ما كتبه أستاذى المرحوم دولاكروا فى كتابه « اللغة والفكر » ص ٧٨ .

(٣) نشأة الكلام

أشرنا أكثر من مرة إلى أن البحث فى نشأة اللغة ليس من البحوث العلمية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. وذلك أن كل مايذهب إليه الباحثون بصدده يتألف من آراء ظنية تعتمد فى بعض نواحيها على الحدس والتخمين وفى نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمى ؛ وهكذا شأن البحوث التى تعرض لأصول النظم الإنسانية (١).

هذا ، وأهم ماقيل بهذا الصدد يرجع إلى أربع نظريات :

(النظرية الأولى) تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهى هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء. وقد ذهب إلى هذا الرأى فى العصور القديمة الفيلسوف اليونانى هيراكليت Héraclite (٢) ، وفى العصور الوسطى بعض الباحثين فى فقه اللغة العربية كابن فارس فى كتابه الصاحبى (٣) ، وفى العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الأب لامى Lami فى كتابه « فن الكلام » L' Art de Parler (٤) والفيلسوف دوبونالد De Bonald فى كتابه التشريع القديم Législation primitive (٥).

ولايكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدى مذهبهم دليلا عقلياً يعتد به (٦). أما أدلتهم النقلية فبعضها يحتمل التأويل وبعضها يكاد يكون دليلا عليهم لا لهم. فالمؤيدون لهذا الرأى من باحثى العرب يعتمدون على قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء

---

(١) انظر صفحات ٤ ، ٥ ، ٤٣ .

(٢) فيلسوف إغريقى من المدرسة اليونية ولد بايفيزيا عام ٥٧٦ وتوفى عام ٤٨٠ ق م . ونسبة هذا الرأى له ليست يقينية .

(٣) انظر الصاحبى صفحات ٥ — ٧ . وقد مال إلى هـذا الرأى كذلك ابن جنى فى كتابه الخصائص انظر ص ٤٥ ، وإن كان قد رد فى أول الفصل على ما يعتمد عليه القائلون به ذاهبا إلى أنه لا ينهض دليلا لهم .

(٤) هو دوم فرنسوا لامى Dom François Lami ولد بمنتيرو Montireau من أعمال فرنسا سنة ١٦٣٦ وتوفى بسان دينى Saint Denis سنة ١٧١١ . وقد قام بتدريس الفلسفة بكثير من المعاهد الدينية . وإليه يرجع الفضل فى نشر آراء الفيلسوف ديكارت بهذه المعاهد .

(٥) انظر ترجمة دوبونالد بالتعليق الخامس صفحة ٤٢ .

(٦) سنبين فساد الأدلة العقلية التى ذكرها بعض المتعصبين لهذه النظرية عند مناقشتنا للنظرية الثالثة التى لا تختلف كثيراً فى جوهرها عن هذه النظرية .

كلها ». وهذا النص، كما ترى، ليس صريحاً كما يدعون. إذ يحتمل أن يكون معناه ـ كما ذكر ذلك ابن جنى فى كتابه الخصائص وذهب إليه كثير من أئمة المفسرين ـ أن الله تعالى أقدر الإنسان على وضع الألفاظ. وأما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة، فيعتمدون على ماورد بهذا الصدد فى سفر التكوين إذ يقول: « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الإنسان. فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول[١] ». وهذا النص، كما ترى، لايدل على شىء مما يقول به أصحاب هذه النظرية؛ بل يكاد يكون دليلا عليهم. ـ ومهما يكن من شىء، فلا صلة للدليل النقلى بمقام البحث العلمى.

(النظرية الثانية) تقرر أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالا. وقد ذهب إلى هــذا الرأى فى العصور القديمة الفيلسوف اليونانى ديموكريت Démocrite (من فلاسفة القرن الخامس ق م)، وفى العصور الوسطى كثير من الباحثين فى فقه اللغة العربية، وفى العصور الحديثة الفلاسفة الإنجليز آدم سميث Adam Smith وريد Reid ودجلد ستيوارت Dugald Stewart.

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو نقلى أو تاريخى. بل إن ماتقرره ليتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية. فعهدنا بهذه النظم أنها لاترتجل ارتجالا ولاتخلق خلقا، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها. ـ هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف فى كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون[٢]. فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل[٣].

فلسنا هنا بصدد نظرية جديرة بالمناقشة، بل بصدد تخمين خيالى وفرض عقيم يحمل فى طيه آية بطلانه. وقد ذهب المتعصبون له فى تصوير منشأ اللغة مذاهب ساذجة غريبة تدل أبلغ دلالة على مبلغ انحرافه عن جادة الصواب ونطاق المعقول. وإليك نبذة مما يقوله بعضهم بهذا الصدد: « إن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة. وذلك كأن يجتمع

---

(١) انظر الآيتين ١٩، ٢٠ من الجزء الثانى من سفر التكوين.

(٢) سيأتى توضيح هذا فى النظرية الثالثة (انظر أول صفحة ٧٥).

(٣) انظر كذلك فى الرد على هذه النظرية، رينان « أصل اللغة » صفحة ٧٦ وتوابعها Renan L' Origine du Langage.

حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء ، فيضعوا لكل منها سمة ولفظا يدل عليه ويغنى عن إحضاره أمام البصر . وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلا على شخص ويومئوا إليه قائلين : إنسان ، إنسان ، إنسان ، فتصبح هذه الكلمة اسما له . وإن أرادوا سمة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه أشاروا إلى العضو وقالوا يد ، عين ، رأس ، قدم . . . ، ويسيرون على هذه الوتيرة فى أسماء بقية الأشياء وفى الأفعال والحروف وفى المعانى الكلية والأمور المعنوية نفسها (١) . وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلا . ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم أن يضعوا كلمة « مَرْد » بدل إنسان ، وكلمة « سَر » بدل رأس ... وهكذا فتنشأ اللغة الفارسية . . . (٢) » .

(النظرية الثالثة) تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زود بها فى الأصل جميع أفراد النوع الإنسانى ، وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسى أو معنوى بكلمة خاصة به ، كما أن غريزة « التعبير الطبيعى عن الانفعالات » تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة (انقباض الأسارير وانبساطها ، وقوف شعر الرأس ، الضحك ، البكاء . . . الخ) كلما قامت به حالة انفعالية معينة (الغضب ، الخوف ، الحزن ، السرور . . . الخ) ؛ وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد فى طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها ؛ وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم ؛ وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً حتى تلاشت كما انقرض لهذا السبب كثير من الغرائز الإنسانية القديمة . ومن أشهر من ذهب هذا المذهب العلامة الألمانى مكس مولر Max Muller (٣) والعلامة الفرنسى رينان Renan (٤) .

وقد اعتمد مكس مولر فى تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث فى أصول الكلمات فى اللغات الهندية الأوروبية (٥) . فقد ظهر له أن مفردات هذه اللغات جميعها

(١) لم يبين القائلون بهذه النظرية بوضوح كيف أمكن التواضع على الكلمات الدالة على الأفعال والحروف والمعانى الكلية ، مع أن هذه الأمور ليس لها فى الخارج مدلول حسى يشير إليه المتواضعون .

(٢) نقلا عن ابن جنى بتصرف : الخصائص صفحتى ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) انظر ترجمته بالتعليق الثالث بصفحة ٤٢ .

(٤) انظر ترجمته بالتعليق الأول بصفحة ٤٣ .

(٥) هى إحدى الفصائل الثلاث التى ترجع إليها اللغات الإنسانية كما سيأتى الكلام عن ذلك بتفصيل فى « الفصل الثالث » .

ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك ، وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأولى التى انشعبت منها هذه الفصيلة ، فهى لذلك تمثل اللغة الإنسانية فى أقدم عهودها . وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معان كلية ، وأنه لاتشابه مطلقا بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة .

ففى دلالتها على معان كلية برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق ، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الثانية السابق ذكرها . لأن التواضع، فضلا عن تعارضه مع طبيعة النظم الاجتماعية كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، يتوقف هو نفسه على وسيلة يتفاهم بها المتواضعون . وهذه الوسيلة لايعقل أن تكون اللغة الصوتية ، لأن المفروض أن المتواضع عليه هو أول مانطق به الإنسان من هذه اللغة ؛ ولايعقل كذلك أن تكون لغة الإشارة ، لأننا بصدد ألفاظ تدل على معان كلية أى على أمور معنوية يتعذر استخدام الإشارة الحسية فيها .

وفى عدم وجود تشابه بين أصواتها وماتدل عليه برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية لم تنشأ من محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات) وأصوات الحيوانات والأشياء ، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الرابعة التى سنتكلم عنها قريبا .

وإذا بطل أن اللغة الإنسانية كانت نتيجة تواضع واتفاق ؛ وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية وأصوات الحيوانات والأشياء ؛ لم يبق إذن تفسير معقول لهذه الظاهرة غير التفسير السابق ذكره : وهو أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زود بها الإنسان فى الأصل للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع ، كما زود باستعداد فطرى للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة [(١)] .

وهذه النظرية ـ على مافيها من دقة وطرافة وعمق فى البحث ـ فاسدة من عدة وجوه :

١ ــ فهى لاتحل شيئا من المشكلة التى نحن بصددها بل تكتفى بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضاً وهى مشكلة « الغريزة الكلامية » .

٢ ــ هذا إلى أن ماتقرره يعتبر ــ من بعض الوجوه ــ من قبيل تفسير الشىء بنفسه . فكل ماتقوله يمكن تلخيصه فى العبارة الآتية : « إن الإنسان قد لفظ أصواتا

(١) انظر Max Muller : Science du Langage 9e Leçon

مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الأصوات » . وهذا ، كما لايخفى ، مجرد تقرير للمشكلة نفسها فى صيغة أخرى .

٣ — على أن قدرة الإنسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ هذا النوع من الأصوات ليست موضوع البحث ، لأنه من المقرر أن الإنسان مزود بأعضاء نطق تسمح له بلفظ هـذا النوع من الأصوات ، بل إن هذا مشترك بين الإنسان وبعض الطيور كما تقدمت الإشارة إلى ذلك . وإنما الذى يهمنا هو الوقوف على أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها فى تكوين الكلام الإنسانى ؛ أى البحث عن الأسلوب الذى سار عليه الإنسان فى مبدأ الأمر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، والكشف عن العوامل التى وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره .

٤ — ولكن أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أن الأصول الخمسمائة السابق ذكرها تمثل اللغة الإنسانية الأولى . — فهذه الأصول ، كما تقدم ، تدل على معان كلية . ومن الواضح أن إدراك المعانى الكليـة يتوقف على درجة عقلية راقيـة لا يتصور وجود مثلها فى فاتحة النشأة الإنسانية . وها هى ذى الأمم البدائية التى تعد أصدق ممثل للإنسانية الأولى تؤيد ما نقول . فقد أجمع علماء الإتنوجرافيا الذين قاموا بدراسة هذه الأمم بأمريكا وأستراليا وأفريقيا وغيرها على ضعف عقلياتهم بهذا الصدد وعجزها عن إدراك المعانى الكلية فى كثير من مظاهرها . وقد كان لهذه العقلية صدى كبير فى لغاتهم . فلا نكاد نجد فى كثير منها لفظاً يدل على معنى كلى . ففى لغـة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء . . . وهكذا ؛ ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم (١) . وفى لغـة الهورونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ؛ ولكن لايوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل فى حالة تعلقه بالخبز ، ولفظ آخر للتعبير عنه فى حالة تعلقه باللحم ، وثالث فى حالة تعلقه بالزبد ، ورابع فى حالة تعلقه بالموز . . . وهكذا ؛ ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل فى زمن ما (٢) . ولغـة السكان

---

(١) انظر Ribot : Evolution des Idées Générales P. 110 .

(٢) انظر Ribot, op. cit. 173, 174 .

الأصليين لجزيرة تسمانيا Tasmania (بقرب أستراليا) ، لا يوجد من بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة ، فإذا أرادوا وصف شيء لجئوا إلى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة ، فيقولون مثلا « فلان كشجرة كذا » إذا أرادوا وصفه بالطول [١] .

ولذلك يرى المحدثون من علماء اللغة أن الأصول الخمسمائة السابق ذكرها لا تمثل فى شيء اللغة الإنسانية الأولى كما يذهب إلى ذلك مكس مولر ؛ بل إنها بقايا لغة حديثة قطعت شوطاً كبيراً فى سبيل الرقى والكمال ولم تصل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن ارتقت عقلياتها ونهض تفكيرها . ويذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فيقرر أنها مجرد أصول نظرية وأنها لم تكن يوماً ما موضوع لغة إنسانية [٢] .

(النظرية الرابعة) تقرر أن اللغة الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية (التعبير الطبيعى عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة ، الأصوات التى تحدثها الأفعال عند وقوعها كصوت الضرب والقطع والكسر . . الخ) وسارت فى سبل الرقى شيئاً فشيئاً تبعاً لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الإنسان . . . وما إلى ذلك . — وقد ذهب إلى هذا الرأى معظم المحدثين من علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة وتنى Whitney [٣] . وذهب إلى مثله من قبل هؤلاء كثير من فلاسفة العصور القديمة ومن مؤلفى العرب بالعصور الوسطى . فقد تحدث عنه ابن جنى (المتوفى عام ٣٩٢ ، أى من نحو ألف سنة) بكتابه الخصائص فى أسلوب يدل على قدمه وكثرة القائلين به من قبله [٤] .

فبحسب هذه النظرية ، يكون الإنسان قد افتتح هذه السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية التى تعبر عن الانفعالات كأصوات الفرح والحزن والرعب . . . وما إليها ، ومحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر وجعجعة الرحى وقعقعة الشنان وصرير الباب وصوت القطع والضرب . . . وهلم جرا . وكان يقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشيء الذى يصدر عنه

---

(١) انظر Ribot, op. cit. 204 et suiv.

(٢) هذا هو رأى الأستاذين سيس وبريال Sayce , Bréal انظر فى ذلك Ribot, op. cit. 81 , 82.

(٣) انظر بعض مظاهر نشاطه العلمى ومؤلفاته ، بصفحة ٥٠ والتعليق الثانى من تعليقاتها .

(٤) انظر الخصائص صفحتى ٤٤ ، ٤٥ : « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبى ، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » .

الصوت المحاكى أو عما يلازمه أو يصاحبه من حالات وشئون . واستخدم فى هذه المحاكاة مازود به من قدرة على لفظ أصوات مركبة ذات مقاطع . وكانت لغته فى مبدأ أمرها محدودة الألفاظ ، قليلة التنوع قريبة الشبه بالأصوات الطبيعية التى أخذت عنها ، قاصرة عن الدلالة على المقصود . ولذلك كان لابد لها من مساعد يصحبها فيوضح مدلولاتها ويعين على إدراك ماترمى إليه . وقد وجد الإنسان خير مساعد لها فى الإشارات اليدوية والحركات الجسمية . وهذا المساعد الإرادى قد نشأ هو نفسه عن الحركات الفطرية التى تصحب الانفعالات ، فكان فى مبدأ أمره مجرد محاكاة إرادية لهذه الحركات ، ثم توسع الإنسان فى استخدامه فحاكى به أشكال الأشياء وحجومها وصفاتها . . . وما إلى ذلك ، فازدادت أهميته فى الحديث ، وسد فراغا كبيراً فى اللغة الصوتية . ثم أخذت هذه اللغة يتسع نطاقها تبعاً لارتقاء التفكير واتساع حاجات الإنسان ومظاهر حضارته ، وتستغنى شيئا فشيئا عن مساعدة الإشارات ، وتبعد عن أصولها الأولى تحت تأثير عوامل كثيرة كالتطورات الطبيعية التى تعتور الصوت وأعضاء النطق الإنسانى وكعلاقات المجاورة والمشابهة التى تعتور الدلالات . . . وما إلى ذلك من الأمور التى سنعرض لها بتفصيل فى الفصول الآتية .

وهذه النظرية هى أدنى نظريات هـذا البحث إلى الصحة وأقربها إلى المعقول ، وأكثرها اتفاقا مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية . وهى إلى هذا وذاك تفسر المشكلة التى نحن بصددها ، وهى الأسلوب الذى سار عليه الإنسان فى مبدأ الأمر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة والعوامل التى وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره . ولم يقم أى دليل يقينى على خطئها . ولكن لم يقم كذلك أى دليل يقينى على صحتها . وكل مايذكر لتأييدها لايقطع بصحتها وإنما يقرب تصورها ويرجح الأخذ بها .

ومن أهم أدلتها أن المراحل التى تقررها بصدد اللغة الإنسانية تتفق فى كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوى عند الطفل . فقد ثبت أن الطفل فى المرحلة السابقة لمرحلة الكلام ، يلجأ فى تعبيره الإرادى إلى محاكاة الأصوات الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة والأشياء ... الخ) فيحاكى الصوت قاصداً التعبير عن مصدره أو عن أمر يتصل به ؛ وثبت كذلك أنه ، فى هذه المرحلة وفى مبدأ مرحلة الكلام ، يعتمد اعتماداً جوهريا فى توضيح تعبيره

الصوتى على الإشارات اليدوية والجسمية . ـ ومن المقرر أن المراحل التى يجتازها الطفل فى مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التى اجتازها النوع الإنسانى فى هذا المظهر [١].

ومن أدلتها كذلك أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية فى مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات فى الأمم الأولية . ففى هذه اللغات تكثر المفردات التى تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه ، ولنقص هذه اللغات وسذاجتها وإبهامها وعدم كفايتها للتعبير لا يجد المتكلمون بها مناصاً من الاستعانة بالإشارات اليدوية والجسمية فى أثناء حديثهم لتكملة ما يفتقر إليه من عناصر وما يعوزه من دلالة [٢] . ـ ومن المقرر أن هذه الأمم ، لبعدها عن تيارات الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب النهضات الاجتماعية ، تمثل إلى حد كبير النظم الإنسانية فى عهودها الأولى .

(ح) نشأة مراكز اللغة

تقدم أن الإنسان لا يمتاز عن الفصائل الحيوانية الأخرى باللغة الصوتية فحسب ، بل يمتاز عنها كذلك باشتمال مخه على مراكز تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز الكلام ، مركز حفظ الأصوات ، مركز الكلمات المرئية . . الخ) [٣] .

وقد اختلف الباحثون اختلافا كبيراً فى نشأة هذه المراكز فى الفصيلة الإنسانية .

فالقائلون باستقلال النوع الإنسانى فى نشأته عن الأنواع الحيوانية الأخرى يذهبون إلى أنه قد خلق مزوداً بهذه المراكز كما خلق مزوداً بخصائصه الأخرى كاعتدال القامة وإدراك المعانى الكلية . . . وما إلى ذلك . ويرون أن هذه المراكز كانت فى مبدأ الخلق ساذجة قاصرة ، ثم ارتقت فى بعض الشعوب حتى وصلت إلى شأو كبير فى الدقة والنضج ، على حين أنها جمدت فى شعوب أخرى فلم تتزحزح كثيراً عن الحالة

---

(١) يطلق على هذه النظرية اسم « نظرية هيكل Haeckel » أو « نظرية التلخيص العام » وقد تكلمنا عنها بتفصيل فى كتابنا : « فى التربية » صفحة ١٥ وتوابعها .

هذا ، وسندرس بتفصيل فى الفصل الثانى نشأة اللغة عند الطفل وتطورها ومبلغ تمثيلها لمراحل اللغة الانسانية .

(٢) انظر آخر ص ٦٣ وأول صفحة ٦٤ والتعليق الأول من تعليقاتها .

(٣) انظر آخر ص ٧١ . ـ هذا ولا يتسع المقام للكلام عن هذه المراكز ووظائفها وطريقة أدائها لها ؛ على أن هذا من بحوث علم النفس والفيزيولوجيا لا من بحوث علم اللغة .

الساذجة التى خلقت عليها . ويرجع الفضل فى ارتقائها إلى عوامل كثيرة منها كثرة استخدامها فى وظائفها وما تمرن عليه من عادات مكتسبة واتساع الحضارة الإنسانية وارتقاء التفكير . . وهلم جرا . فمراكز اللغة شأنها فى ذلك شأن أعضاء الحس وأعضاء الحركة فى الجسم الإنسانى : تخلق مزودة بالقدرة على القيام بوظائفها ، وتظل قابلة للارتقاء فى هذه الناحية ما أتيحت لها الوسائل المواتية ، فان لم يتح لها ذلك قصرت عن القيام بوظائفها أو جمدت على الحالة التى كانت عليها فى نشأتها الأولى .

وأما القائلون بمذهب الارتقاء وتفرع الإنسان عن غيره من الفصائل الحيوانية ، فيرون أن الفضل فى نشأة هذه المراكز عند الإنسان يرجع إلى الظروف التى أحاطت به فى مبدأنشأته وإلى الأمور التى ألجأته إليها مقتضيات حياته وبخاصة مايتصل منها بشئون دفاعه عن نفسه . وقد اختلفوا فى تصوير هذه النشأة على الرغم من اتفاقهم على الأسس السابق ذكرها . وأشهر نظرياتهم بهذا الصدد نظرية داروين التى تتلخص فى أن الإنسان كان فى الأصل من الفصائل المتسلقة الأشجار ، ثم اضطرته ظروف قاهرة إلى العيش على الأرض حيث تعرض لإغارة الحيوانات القوية وسطوها عليه . فاستخدم فى مبدأ الأمر فى مقاومتها أنيابه وأعضاء جسمه كما كان يفعل من قبل وكما تفعل أفراد فصيلته . ولكن هذه الوسيلة كانت تضطره إلى الارتماء فى أحضان عدوه فتعرض حياته للخطر . فهدته غريزة المحافظة على الحياة إلى وسيلة أخرى تدفع عنه عدوان الحيوان بدون أن تضطره إلى الاصطدام به . وذلك بأن يقذف عليه عن بعد قطعا من حجارة أو خشب أو معدن . . . ، أو بأن يمسك بطرف عصا ويدفعه عنه أو يضرب به بطرفها الآخر . وقد كان لهذا الأسلوب الجديد أثران كبيران فى حياة الإنسان .

أحدهما أنه يضطره إلى الوقوف على رجلين اثنين فى أثناء دفاعه عن نفسه . ومن تكرار هذه الوقفة أخذت قامته تعتدل شيئاً فشيئاً حتى استوى القسم الأعلى من جسمه مع أطرافه السفلى ، وأخذت عادة المشى على أربع تضعف بالتدريج حتى انقرضت (وإن كانت تظهر فى بعض مراحل الطفولة الإنسانية وفقاً لقوانين الوراثة النوعية التى تقضى بأن يجتاز الطفل فى سبيله من الطفولة إلى الرجولة نفس المراحل التى اجتازها النوع فى سبيله من الحيوانية إلى الإنسانية ومن الوحشية إلى الحضارة) .

وثانيهما (وهو الذى يهمنا فى موضوعنا) أن هذا الأسلوب الدفاعى قد أعفى الإنسان من استخدام فكه وأسنانه فى الدفاع عن نفسه ، فتعطلت هذه الأعضاء عن

القيام بجزء كبير من وظيفتها ، ونجم عن ذلك تقلص العضلات والعظام الصدغية التى تتحرك مع الفم ؛ وترتب على هذا التقلص أن اتسع مجال النمو للجمجمة فزاد حجمها عما كان عليه ؛ وباتساع حجم الجمجمة اتسع مجال النمو للمخ فزاد حجمه ونشأت به مراكز جديدة لم تكن به من قبل ، من أهمها مراكز اللغة التى نحن بصدد الكلام عنها .

ولتأييد هذا الأثر الأخير ، قام العلامة أنتونى Anthony بتجربة على عدد من الجراء (الكلاب الصغيرة) . وذلك بأن استأصل جزءاً من عضلاتها وعظامها الصدغية ، وتتبع نمو جماجمها بعد هذه العملية ؛ فتبين له أنها أخذت تتسع أكثر من المعتاد .

وقد تصدى كثير من العلماء المحدثين للتحرى عن هذه الحقائق ، فثبت لهم فسادها من نواح كثيرة لا يهمنا منها الآن إلا الناحية المتعلقة بنشأة مراكز اللغة . فقد ظهر لهم بهذا الصدد أن تعطيل الفك والأسنان ، وإن نجم عنه اتساع فى الجمجمة ، لا يترتب عليه مطلقاً اتساع فى حجم المخ أو اختلاف فى تعاريجه وشكل تكونه . والتجربة التى قام بها أنتونى تدل هى نفسها على صحة ذلك . فقد ظهر له أن جماجم الجراء قد انحسرت عن أمخاخها ، بدليل ان الآثار التى تنطبع عليها من ملاصقتها للمخ قد انمحت . فاتساع الجمجمة الناجم عن تقلص عضلات الصدغ وعظامه لا يتبعه إذن اتساع فى حجم المخ أو نشأة مراكز جديدة كما يزعم دارون .

وكثيراً ما تتسع الجمجمة عند بعض الناس اتساعاً غير عادى لسبب آخر غير تقلص عضلات الصدغ وعظامه . ولكن لم يحدث مطلقاً فى حالة من حالات هذا الاتساع أن زاد حجم المخ أو تغيرت صورته . وعلى العكس من ذلك نمو المخ نفسه . فإنه يرغم الجمجمة على الاتساع ويشكلها بالشكل الذى يتفق مع نموه . فإن قاومته ، بأن كان عظم اليافوخ [١] قد اشتد قبل أوانه ، تغلب على مقاومتها ، وشق لنفسه طريقاً على أى وجه : فأحياناً يدفعها إلى الأمام فينشأ الشخص بارز الجبهة ، وأحياناً يدفعها إلى الخلف فينشأ الشخص أحدب الرأس ، وأحياناً يدفعها إلى أعلى فينشأ مسنم الرأس ، وأحياناً يدفعها من ناحيتين أو أكثر فينشأ مُدَنّخ الرأس [٢] .. وهكذا . — فالطريق الطبيعى للارتقاء

---

(١) حيث يلتقى عظم مقدم الرأس بعظم مؤخره وهو الذى يكون لينا فى الصبى .

(٢) « رجل مدنخ الرأس أى فى رأسه ارتفاع وانخفاض » المخصص لابن سيده جزء أول ص ٦٢ ، والعامة تقول شخص برأسين ، أو برءوس .

إن كان ثمت ارتقاء، هو أن يتسع المخ أولا وتوجد فيه مراكز لم تكن موجودة من قبل ويتبع ذلك اتساع فى الجمجمة، لا أن تتسع الجمجمة أولاً ويتبعها اتساع المخ كما يقول دارون ومن نحا نحوه.

على أن الارتقائيين لم يكونوا فى حاجة إلى هذه الفروض التعسفية لتعليل نشأة مراكز اللغة بطريقة تتفق مع مبادئهم. فقد كان فى إمكانهم أن يذهبوا إلى أن هذه المراكز لم تنشأ من العدم، بل كانت نتيجة تطور لمراكز قديمة أو لأجزاء من مراكز قديمة. كان فى إمكانهم مثلا أن يذهبوا إلى أن جزءاً من مراكز الحركة الخاصة بعضلات الوجه Centres des mouvements des muscles de la Face قد تخصص فى حركة أعضاء النطق. ومع تقادم الزمن وكثرة مزاولته لهذه الوظيفة تشكل بالشكل الذى يتفق معها واستقل عن غيره وأخذ يسير فى سبيل الارتقاء حتى وصل إلى الحالة التى هو عليها الآن. كان فى إمكانهم أن يقولوا هذا بصدد مراكز الكلام ويقولوا مثله بصدد المراكز اللغوية الأخرى، فيتقوا معظم ما وجه إلى فروضهم السابقة من اعتراضات، ويكون مذهبهم أدنى إلى القبول وأكثر اتفاقا مع حقائق الأمور. وذلك أنه بالموازنة بين مخ الإنسان وأمخاخ الحيوانات القريبة منه، يظهر أن مراكزه اللغوية — على فرض أنها لم تكن موجودة فى أصل خلقته — كانت نتيجة تشكيل جديد لبعض المراكز الموجودة فى أمخاخ هذه الحيوانات.

(٥) تطور اللغة الإنسانية

أو المراحل الأولى التى اجتازتها اللغة الإنسانية

تقدم أن اللغة الإنسانية قد نشأت ناقصة ساذجة مبهمة فى نواحى أصواتها ومدلولاتها وقواعدها، ثم سارت بالتدريج فى سبيل الارتقاء [١].

وقد اختلف الباحثون اختلافا كبيراً فى بيان المراحل التى اجتازتها فى هذا السبيل.

فبعضهم نظر إلى الموضوع من الناحية الصوتية، فحاول أن يكشف عما كانت عليه أصوات اللغة الإنسانية فى مبدأ نشأتها وعن مراحل ارتقائها. — وقد ذهب معظم هؤلاء إلى أن اللغة قد سارت بهذا الصدد فى ثلاث مراحل:

---

(١) انظر صفحات ٧٧ — ٧٩.

(المرحلة الأولى) مرحلة الصراخ Le Cri . — وفى هذه المرحلة لم يكن فى أصوات اللغة الإنسانية أصوات مد (وهى الأصوات التى نرمز إليها بحروف اللين) ولا أصوات ساكنة (وهى الأصوات التى نرمز إليها بالحروف الساكنة) ؛ وإنما كانت مؤلفة من أصوات مبهمة تشبه أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعال كالضحك والبكاء والصراخ، وأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر وجعجعة الرحى وصوت القطع والضرب . . . وهلم جرا .

(والمرحلة الثانية) مرحلة المد Vocalisation ، وفيها ظهرت أصوات اللين فى اللغة الإنسانية .

(والمرحلة الثالثة) مرحلة المقاطع Articulation ، وفيها ظهرت الأصوات الساكنة فى اللغة الإنسانية (الباء ، التاء ، الثاء . . . الخ) .

ويعتمد أصحاب هذه النظرية فى تأييدها على أمور مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم الأولية .

أما فيما يتعلق بالطفل فقد ظهر أن أصواته تجتاز نفس المراحل التى ذكرها أصحاب هذه النظرية . فأصواته فى المبدأ يتألف معظمها من الصراخ والأصوات المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة ، ثم تكثر لديه فى المرحلة التالية أصوات المد ، وفى آخر مرحلة يجتازها قبل أن يظهر لديه التقليد اللغوى ، وهى المرحلة التى يسميها علماء النفس بمرحلة « التمرينات النطقية » ، تكثر فى نطقه الأصوات الساكنة [1] . — وقد أشرنا فيما سبق إلى أن كثيراً من العلماء يرى أن المراحل التى يجتازها الطفل فى مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التى اجتازها النوع الإنسانى فى هذا المظهر [2] .

وأما فيما يتعلق بلغات الأمم الأولية فقد لوحظ فى كثير منها أن الأصوات المبهمة وأصوات المد تفوق كثيراً الأصوات الساكنة فى كميتها وأهميتها فى الدلالة [3] . وقد

(١) سنتكلم عن هذا الموضوع بتفصيل فى الفصل الثانى .

(٢) انظر آخر صفحة ٧٨ وأول صفحة ٧٩ وتعليقها الأول .

(٣) ففى لغات الفيجيين والهوتنتوت وقبائل أخرى من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية تكثر الأصوات المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة V. Ribot, op. cit. p. 78 . وفى لغات السياميين والصينيين مثلا نرى أن معظم ظواهر الدلالة تتصل بحروف المد . فكلمة « ها » مثلا معناها البحث فى لغة السياميين ، فاذا مدت ألفها قليلا وفتح الفم فى نطقها à أصبح معناها الوباء ، واذا مدت قليلا بدون فتح الفم أصبح معناها خمسة .

تقدم أن هذه الأمم — لبعدها عن تيارات الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب النهضات الاجتماعية — تمثل إلى حد كبير الأساليب الإنسانية فى عهودها الأولى (١).

وليس من بين هذه الأدلة مايمكن عده برهانا قاطعاً على صحة هذه النظرية. بل إن معظم المحدثين من علماء اللغة يقطعون بفسادها. وحجتهم فى ذلك أنه لايوجد من بين اللغات الإنسانية المعروفة — سواء فى ذلك اللغات الحية والميتة، والراقية والساذجة — لغـــة خالية من أصوات اللين أو من الأصوات الساكنة، وأنه من المتعذر تصور لغة إنسانية عارية عن أحد هذين النوعين. هذا إلى أن ظهور الأصوات ذات المقاطع (الأصوات الساكنة) فى لغة الإنسان لم يكن ليتوقف على ارتقاء فى لغته أو على تطور صوتى أو على مراحل يجتازها فى هذا السبيل كما يزعم أصحاب هـذه النظرية. لأن الأصوات ذات المقاطع توجد عند كثير من فصائل الحيوانات نفسها، كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٢).

وبعضهم نظر إلى الموضوع من ناحية مفردات اللغة ودلالة بعضها على معان جزئية وبعضها الآخر على معان كلية، وحاول أن يبين أى القسمين كان أسبق ظهوراً من الآخر.

وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم وانقسموا إلى فريقين:

الفريق الأول — وعلى رأسه مكس مولر — يرى أن اللغة الإنسانية قد بدأت بألفاظ دالة على معان كلية، ثم انشعبت عن هذه الألفاظ الكلمات الدالة على المعانى الجزئية. — ودليلهم على هذا أن الأصول المشتركة التى ترجع إليها المفردات فى جميع اللغات الهندية — الأوروبية، والتى تمثل فى نظرهم اللغة الإنسانية فى أقدم عصورها، تدل على معان كلية كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٣).

وقد ناقشنا هذه النظرية فيما تقدم فتبين فسادها، وظهر أن هـذه الأصول لاتمثل اللغة الإنسانية فى عهودها الأولى، وأنها بقايا من لغة راقية لم تصل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن اجتازت فى حياتها اللغوية مراحل طويلة، وأن بعض الباحثين يذهب إلى

(١) انظر صفحة ٧٩.

(٢) انظر صفحة ٧٠ وتوابعها.

(٣) انظر آخر ص ٧٤ وأول صفحة ٧٥.

أبعد من هذا فيقرر أننا بصدد أصول نظرية لم تكن يوما ما لغة كلام [١] .

والفريق الثانى يرى أن اللغة الإنسانية بدأت بألفاظ دالة على معان جزئية .- وهذا الرأى أدنى إلى الصحة ، وأقرب إلى المعقول ، وتؤيده حالة اللغة عند الطفل وعند الأمم الأولية كما سبقت الإشارة إلى ذلك [٢] .

وبعضهم يبحث فى هذا التطور من ناحية ثالثة قريبة من بعض الوجوه من الناحية السابقة ، فيتساءل عن المراحل التى ظهر فيها كل من الاسم والصفة والفعل والحرف فى الكلام الإنسانى . وأشهر نظرية بهذا الصدد هى نظرية العلامة ريبو Ribot التى تقرر أن الصفة هى أول ماظهر فى اللغة الإنسانية ، ثم تلتها أسماء المعانى وأسماء الذوات ، ثم ظهرت الأفعال (وبظهور الأفعال دخلت اللغة الإنسانية فى أهم مرحلة من مراحل رقيها ؛ فلا يخفى أهمية الأفعال فى الحديث وكثرة وظائفها فى الدلالة) ، ثم اختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف [٣] .

وقد اعتمد فى تأييد نظريته هذه على أدلة كثيرة بعضها يرجع إلى لغة الطفل ولغات الأمم الأولية ، وبعضها يرجع إلى بحوث إيتيمولوجية (دراسة أصول الكلمات) أو نفسية . فمن ذلك أن الأصول الهندية الأوروبية التى كشفها « مكس مولر » يتألف معظمها من كلمات دالة على صفات ، وفى هذا دليل على أن الصفات كانت أسبق الكلمات ظهوراً فى اللغة الإنسانية ؛ - وأن معظم أسماء المعانى وأسماء الذوات مشتقة فى كثير من اللغات من كلمات دالة على صفات (grand, grandeur; free, freedom .... etc) ، وفى هذا دليل على أن الأسماء لم تظهر فى اللغة الإنسانية إلا بعد ظهور الصفات ؛ - وأن معظم الأفعال فى اللغات الهندية الأوروبية مأخوذة من كلمات دالة على صفات أو أسماء مضاف إليها بعض حروف من ضمائر ، وفى هذا دليل على أن الأفعال قد ظهرت بعد ظهور الصفات والأسماء ؛ - وأن كثيراً من لغات الأمم الأولية مجردة من الحروف [٤] ، وأن لغة الطفل لا تظهر فيها الحروف إلا فى آخر مرحلة من مراحلها ، ففى المراحل

---

(١) انظر صفحتى ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) انظر صفحتى ٧٦ ، ٧٧ .

(٣) انظر Ribot, op. cit, 88-96 .

(٤) سيأتى الكلام عن ذلك فى اللغات غير المتصرفة (انظر صفحة ٨٨) .

الأولى ينطق الطفل بأجزاء الجملة عارية عن الحروف وعن علامات الربط [١] ، وفى خلو اللغات الأولية ولغة الطفل فى مراحلها الأولى من الكلمات الدالة على الحروف دليل على أنها كانت آخر ما ظهر فى اللغات الإنسانية .

وليس من بين هذه الأدلة ما ينهض برهاناً قاطعاً على صحة هذه النظرية ؛ بل إنها ظاهرة الخطأ فى بعض نواحيها ، وخاصة إذ تقرر أن الصفات كانت أسبق ظهوراً فى اللغة الإنسانية من أسماء الذوات . فى هذه الناحية يوجه إليها نفس المآخذ التى وجهناها إلى نظرية مكس مولر [٢] .

وبعضهم يبحث فى هذا التطور من ناحية رابعة تتعلق بقواعد الصرف والتنظيم (المورفولوجيا والسنتكس [٣]) .

وأشهر نظرية بهذا الصدد هى النظرية التى قال بها العلامة شليجل Schlegel وتابعه فيها جمهرة كبيرة من علماء اللغة ، وهى تقسم اللغات الإنسانية من هذه الناحية إلى ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) اللغات « المتصرفة » Flexionnelles, ou, à Flexion أو التحليلية Analytiques . — ويمتاز هذا القسم من ناحية « المورفولوجيا » بأن كلماته تتغير معانيها بتغير أبنيتها ، ومن ناحية « السنتكس » بأن أجزاء الجملة يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة [٤] تدل على مختلف العلاقات . ـ وذلك كاللغة العربية . فان كلماتها تتغير معانيها بتغير بنيتها : فتقول عِلْم للدلالة على المصدر ، وعلم للدلالة على الفعل فى الماضى وعلَّم للدلالة على تعدى الفعل ، واعلم للدلالة على الأمر ، والعلوم للدلالة على جمع العلم ، والمعلوم للدلالة على ماوقع عليه العلم ، والعلامة للدلالة على وسيلة العلم ... وهلم جرا . هذا من ناحية الصرف ، أما من ناحية التنظيم فإن عناصر جملها يتصل بعضها ببعض عن طريق روابط مستقلة تشير إلى مختلف العلاقات : فتقول مثلا ذهب محمد وعلى من المنزل إلى الجامعة ، فتأتى بواو قصيرة ونون زائدة بعد دال محمد للدلالة على أنه أحدث

---

(١) سيأتى الكلام عن ذلك بتفصيل فى الفصل الثانى .

(٢) انظر صفحتى ٧٦ ، ٧٧ .

(٣) انظر صفحتى ٦ ، ٧ .

(٤) نقصد باستقلال الروابط زيادتها عن أصوات الكلمة . فالواو القصيرة (الضمة) والنون الساكنة الملحقتان بكلمة « محمد » فى حاء محمد « محمدُنْ » تعتبران من الروابط المستقلة . وهما تشيران فى هذا التركيب إلى أن مدلول محمد هو الذي أحدث الحدث .

الحدث، وتأتى بالواو العاطفة بين محمد وعلى للدلالة على عطف عنصر من عناصر الجملة على آخر، وبمن للدلالة على الابتداء، وبإلى للدلالة على الانتهاء. ـ وماقيل فى اللغة العربية يقال مثله فى بقية اللغات السامية وفى اللغات الهندية ـ الأوروبية.

وسميت هذه الطائفة من اللغات « بالمتصرفة» لتغير أبنيتها بتغير المعانى ؛ و« بالتحليلية» لما تتخذه حيال الجملة من تحليل أجزائها وربطها بعضها ببعض بروابط تدل على العلاقات.

(القسم الثانى) اللغــات (اللصقية) أو « الوصلية » Agglutinantes, ou, Agglomérantes, ou, Synthétiques ـ ويمتاز هذا القسم من ناحيتى المورفولوجيا والستتكس بأن تغير معنى الأصل وعلاقته بما عداه من أجزاء الجملة يشار إليهما بحروف تلصق به. وتوضع هذه الحروف أحيانا قبل الأصل فتسمى «سابقة» Préfixes وأحيانا بعده فتسمى « لاحقة » Suffixes [1]. وبعض هذه الحروف ليس له دلالة مستقلة، ولـكن معظمها كان فى الأصل كلمات ذات دلالة ثم فقدت معانيها وأصبحت لاتستخدم إلا مساعدة للدلالة على تغير معنى الأصل الذى تلصق به أو للإشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة. ومن أشهر لغات هذه الفصيلة اللغة اليابانية واللغة التركية وبعض لغات الأمم الأولية كلغة الأيروكويين Iropuois [2] والبنتويين Bantous [3].
وسميت هذه اللغات « باللصقية » أو « الوصلية » للطريقة التى تتبعها حيال الأصل

---

(١) يختلف هذا الأسلوب باختلاف اللغات. فبعض اللغات اللصقية تستخدم الحروف « السابقة » كاللغة البنتوية، وبعضها يستخدم الحروف « اللاحقة » كالتركية، فنزل فى التركية مثلا يقال له إو Ew فاذا أردت أن تقول خارج المنزل ألصقت بآخره دالا مكسورة ونوناً للدلالة على المجاوزة فتقول إودن Ewden، وإذا أردت جمعه ألصـقت بآخره لاما مكسورة وراء فتقول إولر Ewler، وإذا أردت أن تقول خارج المنازل ألصقت بالجمع الدال والنون الدالتين على المجاوزة فتقول إولردن Ewlerden.

وقد يجتمع الطريقتان فى لغة واحدة فتستخدم أحيانا الحروف السابقة وأحيانا الحروف اللاحقة.

(٢) عشائر من الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية). — وقد يلحق بالأصل الواحد فى لغتهم عدد كبير من هـذه الحروف للدلالة على كثير من العلاقات والمعانى، فتصبح الـكلمة الواحدة كثيرة الأصوات كبيرة المدلول. فقد روى العلامة ريبو أنه توجد فى لغتهم كلمة واحدة تدل على مايأتى: « أطلب نقوداً من هؤلاء الذين جاءوا ليشتروا منى الأقمشة ». ويكثر كذلك هذا النوع من الـكلمات الطويلة بلغة الاسكيمو V. Ribot, op. cit. 86.

(٣) يطلق هذا الاسم على سكان القسم الجنوبى بأفريقيا الاستوائية (ما عدا قبيلتى الهوتانتوت والبوشيمان Hottentots, Bochimans). وترجع لغاتهم إلى فصيلة واحدة على الرغم من اختلاف أصولهم الشعبية.

إذ تلصق به حروفا زائدة عن حروفه لتوضيح المعنى المقصود منه أو للإشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة .

(القسم الثالث) اللغــات « غير المتصرفة » Monosy llabiques أو « العازلة » Isolantes . ـ ويمتاز هذا القسم من ناحية « المورفولوجيا » بأن كلماته غير قابلة للتصرف لا عن طريق تغيير البنية ولا عن طريق لصق حروف بالأصل . فكل كلمـة تلازم شكلا واحداً وتدل على معنى ثابت لا يتغير . ويمتاز من ناحية « السنتكس » بعـدم وجود روابط بين أجزاء الجملة للدلالة على وظيفة كل منها وعلاقته بما عداه ، بل توضع هذه الأجزاء بعضها بجانب بعض ، وتستفاد وظائفها وعلاقاتها من ترتيبها أو من سياق الـكلام . ـ ويدخل فى هذا القسم اللغة الصينية وكثير من لغات الأمم الأولية .

وسميت هذه اللغات « بغير المتصرفة » لأن كلماتها لا تتصرف ولا يتغير معنـاها ، و « بالعازلة » لأنهـا تعزل أجزاء الجملة بعضها عن بعض ولا تصرح بما يربطها من علاقات .

ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الإنسانية فى مبـدأ نشأتها كانت من النوع الثالث (اللغات غير المتصرفة) ؛ ثم ارتقت إلى النوع الثانى (اللغات اللصقية) ؛ ولم تصل إلى حالة النوع الأول (اللغات المتصرفة) إلا فى آخر مرحلة قطعتها فى هذا السبيل . — غير أن بعض اللغات الإنسانية قد وقفت فى نموها فلم تتجاوز المرحلة الأولى كاللغـة الصينية ، أو لم تتجاوز المرحلة الثانية كاليابانية والتركية .

ويستدلون على صحة هذه النظرية بأدلة مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم الأولية على النحو الذى تقدم شرحه فى النظريات السابقة .

ولـكن ليس من بين أدلتها ما ينهض برهاناً قاطعاً على صحتها . بل قامت أدلة كثيرة على خطئها . فمن ذلك أن الأساليب الثلاثة التى تعرض لها (التصرف واللصق والعزل) توجد مجتمعة فى كل لغة إنسانية ، وأنه من المتعذر أن نعثر على لغة عارية عن أسلوب منها .

فاللغة العربية ، كما يوجد بها مظاهر من أسلوب التصرف والتحليل كما تقدم ، يوجد بها مظاهر كثيرة من الأسلوبين الآخرين . فهى تسير على طريقـة اللصق بالحروف « اللاحقة » و « السابقة » فى حالات كثيرة كجمع المـذكر السالم وجمع المؤنث السالم والتعدى بالهمزة (قائم ، قائمون ـ زينب ، زينبات ـ قام علىّ وأقام علىّ الصلاة) . . . وهلم جرا . وتسير كذلك على طريقة العزل فى كثير من التراكيب : فبعض الجمل

الاسمية والجمل الفعلية لا ترتبط عناصرها بعضها ببعض بأى رابط ملفوظ ، وإنما تفهم العلاقة بينها من ترتيبها أو من السياق ، مثل « ضرب موسى عيسى » ؛ وجميع الجمل على هذا النحو فى اللغات العامية المنشعبة عن العربية ، فقد تجردت جميعها من علامات الإعراب الدالة على وظائف الكلمات وعلاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض .

وكذلك جميع اللغات الهندية ـ الأوروبية . فالإنجليزية والفرنسية مثلا تسيران أحياناً على طريقة التصريف والتحليل :

je vois, je voyais, je vis, nous voyon, voir, la vue. — vous voyez que La Linguistique est une science sociale.

I see, I saw, I have seen, to see, the sight. — you see that the science of Languages is a social one.

وتسيران أحياناً على طريقة اللصق : J'ajoute, J'ajouterai, tigre, tigresse.

I care, I cared — careful, carefulness.

وتسيران أحيانا على طريقة العزل : Tom beats Dick|Pierre bat Paul
(فى هذه الجمل لا يميز الفاعل من المفعول إلا مجرد ترتيبه)

ومثل هذا يقال فى جميع اللغات الإنسانية . ـ فلسنا إذن بصدد فصائل لغوية متميزة ، بل بصدد أساليب مستخدمة فى جميع اللغات .

الفصل الثانى

لغة الطفل ومراحلها
ومبلغ تمثيلها لنشأة اللغة الانسانية وتطورها

---

(١) أنواع الأصوات فى الطفولة وأساس كل منها

يرجع أهم مايلفظه الطفل من أصوات إلى الأنواع الآتية :

١ — « الأصوات الوجدانية » أو « أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات » . وهى الأصوات الفطرية التى تصدر من الطفل فى أثناء تلبسه بحالة انفعالية . كالأصوات التى تصدر منه فى حالات الخوف والألم والجوع والفرح والغضب والسرور والدهشة ، كالبكاء والضحك ومختلف أنواع الصراخ الوجدانى .

وهذا النوع فطرى عند الطفل ، يصدر منه بشكل غير إرادى وبدون سابق تجربة وتعليم ، وتثيره الحالات الجسمية والنفسية أليمها وسارها . وهذه الإثارة قائمة على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بالحالات الجسمية والنفسية بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلىّ وتلفظ أصواتا معينة عند وجود حالة من هذه الحالات . فالطفل إذ يلفظ هذه الأصوات تحت تأثير الحالة الجسمية أو النفسية أشبه شىء بساعة الحائط إذتدق أجراسها بصوت آلىّ حينما تصل مشيراتها (عقاربها) إلى نقط خاصة ، وتختلف دقاتها نوعا وكمية باختلاف هذه النقط .

ويتألف هذا النوع من أصوات مبهمة (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهى التى نرمز إليها بحروف المد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع (وهى التى نرمز إليها بالحروف الساكنة) .

هذا ، ويصحب انفعالات الطفل كذلك طائفة من المظاهر الجسمية المرئية كصفرة الوجه وحمرته ووقوف شعر الرأس وضيق الحدقة واتساعها وفتح الفم وانقباض عضلات الوجه وانبساطها وتفتح الأسارير وانكماشها . . . وهلم جرا . وهذه المظاهر

قائمة على نفس الأسس الطبيعية القائمة عليها الأصوات الوجدانية . فهى فطرية غريزية تصدر من الطفل بدون سابق تجربة وتعليم ويثيرها بطريقة آليّة مايتلبس به الطفل من انفعال .

٢ — « الأصوات الوجدانية الإرادية » . — وهى أصوات النوع السابق حينما يستعملها الطفل استعمالا إراديا . وذلك أن الأصوات الوجدانية الفطرية التى تقدمت الإشارة إليها يدرك المحيطون بالطفل مصادرها ومثيراتها فيعملون على وقفها بتحقيق مايعوز الطفل وقضاء مايحتاج إليه . ومن تكرار سلوكهم هذا ، يدرك الطفل أن هذه الأصوات من شأنها أن ترغم الكبار على تحقيق رغباته . فيلفظها أحيانا بشكل إرادى قاصداً بها التعبير عن حالة قائمة به أو عن مطلب من مطالبه . فتراه مثلا يتعمد البكاء أو الصراخ أو يتمادى فيهما بشكل إرادى حتى تحمله مربيته أو ترضعه أو تبعد عنه هنة لايريدها . . وهلم جرا . — وتسمى حينئذ هذه الأصوات « بالأصوات الوجدانية الإرادية » .

ومايتخذه حيال الأصوات يتخذه أحيانا حيال الحركات الجسمية المعبرة عن الانفعالات . فقد يقوم ببعض هذه الحركات بشكل إرادى قاصداً بها التعبير عمايساوره من انفعال أو يبغى تحقيقه من رغبة . فقد يتعمد مثلا تقطيب وجهه أو تحريك يديه حركات عنيفة للتعبير بشكل إرادى عن غضبه ، وقد يتعمد قبض عضلات الوجه للتعبير عن كراهته لشىء أو اشمئزازه منه . . . وهلم جرا .

وهو فى الحالين (حالة الصوت الإرادى وحالة الحركات الإرادية) يحاكى نفسه فى حالتها الطبيعية الفطرية ، فيمثل بشكل إرادى مايصدر عنه عادة بشكل آلى فطرى .

٣ — « أصوات الإثارة السمعية » . — وهى أصوات فطرية غير تقليدية تصدر من الطفل فى شهوره الأولى حينما يسمع بعض الأصوات . ففى هذه المرحلة نرى أن سماع الطفل لبعض الأصوات (وبخاصة الأصوات المرتفعة) يثير أعضاء صوته ويجعلها تلفظ بشكل آلىّ أصواتا غير تقليدية (أى لاتحاكى الأصوات المسموعة) شبيهة بأصواته الوجدانية التى أشرنا إليها فيما سبق . — ويحدث هذا عند سماعه أحد المحيطين به يناغيه أو يتحدث بصوت عال أو عند سماعه صوت حيوان أو آلة موسيقية وهلم جرا ...[1].

ويتألف هذا النوع ، كما يتألف النوعان السابقان ، من أصوات مبهمة (تشبه

---

(١) انظر تفصيل هذا بكتابى « فى التربية » ص ٧٠ .

أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهى التى نرمز إليها بحروف المد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع (وهى التى نرمز إليها بالحروف الساكنة) .

وقد ثبت أن هذه الأصوات ليست إرادية ولا تقليدية ، بل فطرية آلية تصدر بدون تدخل إرادة الطفل ولا تتجه إلى محاكاة أمر ما . وهى قائمة على أسس طبيعية شبيهة بالأسس القائمة عليها الأصوات الوجدانية . فكما أن تلبس الطفل بحالة انفعالية يثير أعضاء صوته ، فتتحرك بشكل آلىّ وتلفظ الأصوات الوجدانية السابق ذكرها ؛ كذلك سماع الطفل فى هذه المرحلة لبعض الأصوات ، فإنه يثير أعضاء نطقه فتتحرك بشكل آلىّ وتلفظ الأصوات التى نحن بصدد الكلام عنها . فكلا النوعين فطرى آلىّ قائم على روابط طبيعية . وكل ما بينهما من فرق ينحصر فى أن الأول مؤسس على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلىّ وتلفظ أصواتا خاصة عند وجود حالة من هذه الحالات ؛ على حين أن الثانى قائم على روابط طبيعية تربط جهاز السمع بجهاز الصوت بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثانى تتحرك بشكل آلىّ وتلفظ أصواتا مبهمة عند وصول أصوات إلى الجهاز الأول .

٤ — « أصوات التمرينات النطقية » Exercices vocaux أو « اللعب اللفظى » Jeu vocal أو « اللغط » Babillage .

يظهر لدى الطفل حوالى الشهر الخامس ميل فطرى إلى اللعب بالأصوات وتمرين أعضاء النطق . فيقضى فترات طويلة من وقته فى إخراج أصوات متنوعة عارية عن الدلالة وعن قصد التعبير . ـ وقد سمى الباحثون هذا النوع من الأصوات بالتمرينات النطقية أو اللعب اللفظى أو اللغط [١] .

وينتظم هذا النوع جميع الأصوات المدّية والمقطعية (حروف اللين والحروف الساكنة) التى يمكن أن تلفظها أعضاء النطق الإنسانى . ولذلك كثيراً ما نجد من بينها أصواتا غريبة عن اللغة التى ينطق بها آباء الطفل . فكثيراً ما يرد فيما يلفظه أطفالنا

---

(١) قد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل الشهر الخامس ، فقد لاحظته عند ابنتى عفاف فى أوائل الشهر الثالث (ابتدأ ظهوره لديها يوم ٢٧ — ٣ — ٣٤ ، وقد ولدت يوم ٢٥ — ١ — ٣٤) ، وظهر عند ابنى إقدام فى أوائل الرابع (ابتدأ ظهوره لديه يوم ٧ — ١٢ — ٤٠ ، وقد ولد يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٤٠) .

المصريون من هذا النوع أصوات لاوجود لها فى لغتنا كالأصوات التى يرمز إليها فى الفرنسية بهذه الحروف : v, p, g, eu .

ولا يرمى الطفل من وراء هذه الأصوات إلى محاكاة أو تعبير . وإنما تدفعه إليها غرائزه دفعاً كما تدفعه إلى سائر ألعابه ، ويجد لذة كبيرة فى مجرد لفظها كما يجد لذة فى القيام بألعابه الأخرى .

ويظهر أن الغرض الذى ترمى إليه الطبيعة من دفع الطفل إلى هذا النوع من الألعاب هو تدريب أعضاء نطقه على القيام بوظائفها العامة وإعداده إعداداً تاما للمرحلة التالية وهى المرحلة التى يأخذ فيها اللغة عن طريق محاكاته لما يسمعه من المحيطين به (١) .

٥ – الأصوات التى يحاكى بها الطفل أصوات الأشياء والحيوانات (هزيز الريح ، حفيف الشجر ، خرير الماء ، جعجعة الرحى ، صرير الباب ، درداب الطبل ، طنطنة الأوتار ، دقات الساعة ، نفير السيارة – صهيل الفرس ، نهيق الحمار ، خوار البقر ، ثغاء الغنم ، نباح الكلب ، مواء الهر ، صياح الديك ، هديل الحمام ، نعيق الغراب ... وهلم جرا) .

وتعتمد هذه الأصوات على استعداد فطرى عند الطفل ، وهو غريزة المحاكاة . ولكنها ، مع ذلك ، تصدر بشكل إرادى . ويرمى الطفل من ورائها إلى غايات معينة . فهو يرمى أحيانا إلى مجرد التلذذ بالمحاكاة أو إثبات قدرته على التقليد ، وأحيانا إلى التعبير عن أمور تتصل بالشىء أو الحيوان الذى يحاكى صوته ، كأن يحاكى صوت الكلب للتعبير عن رغبته فى رؤيته أو عن قدومه ... وما إلى ذلك . وهو فى الغالب يحاكى هذه الأصوات المبهمة بوضعها فى أصوات ذات مقاطع ، فيعبر عن صوت الدجاجة مثلا بكلمة « كاك » وعن صوت الكلب بكلمة « هو » . . . وهلم جرا .

٦ – الأصوات المركبة ذات المقاطع والدلالات الوضعية التى تتألف منها الكلمات وتتكون منها اللغة .

وهذا النوع من الأصوات يأخذه الطفل عن المحيطين به بطريق التقليد ، ويندفع إليه تحت تأثير ميله الفطرى إلى المحاكاة . ولكنه ، مع ذلك ، إرادى فى تكونه وفى استخدامه . أما فيما يتعلق بتكونه ، فهو لا يصدر من الطفل بشكل آلى كما تصدر أصواته

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع بكتابى « فى التربية » صفحات ٣١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ . والغرض الذى أشرنا إليه وهو الاعداد للحياة المستقبلة ليس مقصورا على الألعاب اللفظيــة بل مشتركا فى جميع الألعاب الانسانية .

الوجدانية مثلا ، بل يبذل الطفل فى إصداره وإصلاح خاطئه وتكملة نقصه وجعله مطابقاً للصوت الذى يحاكيه ... مجهوداً إراديا ويشرف على جميع هذه الأمور إشرافا مقصوداً . وأما فيما يتعلق باستخدامه ، فإن الطفل يلفظه مريداً به التعبير عن المعانى والحقائق التى يدل عليها . وذلك أن هذه الطائفة من الأصوات لا تنتقل إلى الطفل مجردة ، بل تنتقل إليه حاملة معها معانيها . فهو يدرك ما تدل عليه من سياق أعمال المتكلمين بها ومن الحركات اليدوية والجسمية التى تصحبها ومن الإشارة الحسية إلى مدلولاتها ... وهلم جرا . فيحاكيها متصوراً معانيها تصوراً كاملا أو ناقصاً تبعاً لمبلغ الدقة فى ملاحظته . وكلما اكتسب لفظا منها عن هذا الطريق احتفظ به إلى حين الحاجة إليه ؛ فيلفظه كلما أراد التعبير عن مدلوله [1] .

(٢) أنواع التعبير فى الطفولة وأساس كل منها

عرضنا فى الفقرة السابقة لجميع أنواع التعبير فى الطفولة ماعدا نوعا واحداً لم تدع إلى الكلام عنه مناسبة ما فى الموضوع السابق ، وهو التعبير الإرادى عن المعانى عن طريق الإشارات اليدوية والجسمية . وإلى هذا النوع من التعبير يلجأ الطفل فى جميع مراحل طفولته ، فيستخدمه أحياناً مستقلا عن غيره (كأن يمدّ يده ويفتح كفه للتعبير عن رغبته فى الحصول على شىء ما ، أو يمد يده نحو شخص ويقبض أصابعه ويبسطها للتعبير عن رغبته فى مجيئه بجانبه ، أو يقبض أصابعه ويقربها من شفتيه محاكياً حركة الشرب للتعبير عن حاجته إلى الماء ، أو يهوى بيده بحركة عنيفة للتعبير عن الضرب .. وهلم جرا) ، وأحياناً يستخدمه مع الكلام لتكملة ماينقص حديثه ويعوزه من دلالة أو لتوكيد المعانى وتمثيل الحقائق وزيادة التوضيح .

وبإضافة هذا النوع إلى الأنواع التى عرضنا لها فى الفقرة السابقة ، يتبين أن مظاهر التعبير فى الطفولة ترجع إلى سبعة أقسام :

١ — التعبير الطبيعى عن الانفعال عن طريق الأصوات ؛

---

(١) هناك نظريات أخرى كثيرة فى الأساس القائم عليه هذا النوع من الأصوات ، منها نظرية لودانتك الذى يقرر عكس ما قررناه ، فيذهب إلى أن هذا النوع آلى فى منشئه وأنه شبيه فى ذلك بأصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات . — وقد درسنا هذه النظريات بتفصيل فى كتابنا فى التربية ٦٨ — ٧٣ . — والنظرية التى اقتصرنا عليها هى النظرية الصحيحة المتفقة مع حقائق الأمور .

٢ - التعبير الطبيعى عن الانفعال عن طريق الحركات الجسمية ؛
٣ - التعبير الإرادى عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الأول ؛
٤ - التعبير الإرادى عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الثانى ؛
٥ - التعبير عن المعانى عن طريق محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة ؛
٦ - التعبير عن المعانى عن طريق اللغة (الجمل والكلمات) .
٧ - التعبير عن المعانى عن طريق الإشارات اليدوية والجسمية .

ومجمل هذا أن التعبير فى الطفولة لايخرج عن طائفتين : تعبير عن الانفعالات وتعبير عن المعانى .

أما التعبير عن الانفعالات فيكون أحيانا طبيعياً وأحيانا إراديا يحاكَى فيه التعبير الطبيعى ، وكلاهما يكون عن طريق الصوت أو عن طريق الحركة .

وأما التعبير عن المعانى فلا يكون إلا إراديا ، ويحدث أحيانا عن طريق الإشارة اليدوية أو الجسمية ، وأحيانا عن طريق محاكاة أصوات الحيوانات والأشياء ، وأحيانا عن طريق اللغة .

(٣) المراحل التى يجتازها الطفل فى أصواته وتعبيراته

يجتاز الطفل فى هذه السبيل ثلاث مراحل :

(المرحلة الأولى) من الولادة إلى حوالى الشهر الخامس .

وفى هذه المرحلة لايظهر من أنواع الأصوات الستة السابق ذكرها إلا الأنواع الثلاثة الأولى « الأصوات الوجدانية » و« الأصوات الوجدانية الإرادية » و« أصوات الإثارة السمعية »)[1] .

أما تعبيرات الطفل فى هذه المرحلة فتنتظم جميع أنواع التعبير السابق ذكرها[2] ماعدا النوعين الخامس والسادس (التعبير عن المعانى عن طريق اللغة ، والتعبير عن المعانى عن طريق محاكاة أصوات الحيوان والأشياء) .

فيبدو لديه فى هذه المرحلة التعبير الطبيعى عن الانفعال فى مظهريه الصوتىّ والحركىّ (البكاء ، الصراخ ، الضحك - الابتسام ، انقباض الأسارير وانبساطها ، احمرار

---

(١) انظر صفحات ٩٠ - ٩٢.
(٢) انظر آخر ص ٩٤ وأول ٩٥ .

الوجه ، اصفراره ، ارتعاش الجسم ، وقوف شعر الرأس . . . وهلم جرا) . ـ وتختلف هذه التعبيرات فى موعد ظهورها . فأول مايظهر من أنواعها الصوتية هى الأصوات الدالة على الألم الجسمى وعن الجوع ... وما إلى ذلك ؛ ثم تظهر بعد ذلك (فى أواخر الشهر الثانى تقريبا) الأصوات المعبرة عن الالم النفسى كأصوات الحزن والإخفاق وضيق الصدر ...؛ أما الأصوات المعبرة عن الحالات السارة جسميها ونفسيها كالفرح والطمأنينة والارتواء والشبع فلا تبدو إلا فى منتصف هـــذه المرحلة أو فى أواخرها . ـ وتسير التعبيرات الحركية فى مواقيت ظهورها على سنن قريب من سنن التعبيرات الصوتية .

ويبدو لدى الطفل كذلك فى هذه المرحلة مظاهر « التعبير الوجدانى الإرادى » . فكثيراً مايتعمد الصبى فى شهوره الأولى محاكاة تعبيره الطبيعى ليقف المحيطين به على على حالة وجدانية متلبس بها أو ليحملهم على تحقيق رغبة من رغباته (يتعمد مثلا الصراخ أو البكاء ليقضى له مطلب ما) .

ويبدو لديه كذلك فى أواخر هذه المرحلة بعض مظاهر من التعبير عن المعانى عن طريق الإشارة . فكثيراً ما يلجأ إلى الاشارات اليدوية والجسمية للتعبير عما يهمه التعبير عنه . كأن يمد يده ويضم أصابع كفه للاشارة إلى شخص بالدنو منه ، وكأن يدفع شخصاً بيده للتعبير عن رغبته فى أن يبعد عنه . . . وهلم جرا .

(المرحلة الثانية) من الشهر الخامس إلى أواخر السنة الأولى .

وتمتاز هذه المرحلة عن المرحلة السابقة من الناحية الصوتية بظهور نوع رابع من الأصوات وهى أصوات « التمرينات النطقية » أو « اللعب اللفظى » أو « اللغط » التى تكلمنا فيما سبق عن طبيعتها ووظائفها وأسسها [١] . ويتألف معظمها فى المبدأ من أصوات لينة (حروف مد) . ثم تكثر فيها بعد ذلك الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة) .

أما فيما يتعلق بأنواع التعبير ، فلا يظهر منها لدى الطفل فى هذه المرحلة أى نوع جديد . ولكن ترقى لديه الأنواع القديمة التى تكلمنا عنها فى المرحلة السابقة ، وبخاصة الإرادى منها . فتكثر محاكاته الإرادية لوسائل التعبير الفطرى ، وتهذب طرق تعبيره بالإشارة ، ويتسع نطاقه ، وتضبط دلالاته .

---

(١) انظر آخر ٩٢ وأول ص ٩٣ . وقد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل الشهر الخامس كما سبقت الإشارة إلى ذلك بالتعليق الثانى بصفحة ٩٢ .

وفى هذه المرحلة يفهم الطفل كثيراً من الكلمات والجمل التى ينطق بها المحيطون به بدون أن يستطيع محاكاتها . ويساعده على فهمها سياق أعمال المتكلمين وما يصدر عنهم فى أثناء النطق بها من حركات يدوية وجسمية، وإشارتهم إلى مدلولها ... وهلم جرا . — فإذا كلف الطفل فى هذه المرحلة أمراً ما (اقفل الباب ، هات الكوب ، ضع عروسك فى العربة . . .) أو طلب إليه الإشارة إلى عضو أو إنسان أو هنة (أين أنفك ، فمك ، ثديك ، أبوك ، أمك ، عمك ، سريرك ، عروسك . . .) أجاب بحركات يده وجسمه إجابة صحيحة تدل على فهمه لما سمعه [١] .

(المرحلة الثالثة) مرحلة التقليد اللغوى .

تبدأ هذه المرحلة عند العاديين من الأطفال فى أواخر السنة الأولى أو أوائل الثانية ، وتنتهى فى الخامسة أو السادسة أو السابعة . أما غير العاديين من الناحية اللغوية فقد لا تبدأ لديهم إلا فى أواخر السنة الثانية أو أوائل الثالثة ، ويتأخر تبعاً لذلك موعد انتهائها .

وفى هذه المرحلة يظهر النوعان الخامس والسادس من أنواع الأصوات السابق ذكرها (محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة بقصد التعبير عن مصادرها أو عن أمور تتصل بها ، ومحاكاة الكلمات بقصد التعبير عن مدلولاتها) .

وبظهور هذين النوعين من الأصوات يظهر نوعان جديدان فى تعبير الطفل : التعبير عن المعانى عن طريق محاكاة الأصوات الحيوانية وأصوات الأشياء ، والتعبير عن المعانى عن طريق محاكاة الأصوات اللغوية (أى عن طريق اللغة) .

وتسير المحاكاة فى هذه المرحلة على أساليب خاصة بعضها يتعلق بالأصوات وبعضها يتعلق بالدلالة . — وسنتكلم عن كل منهما على حدة :

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع بكتابى « فى التربية » صفحات ٧٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ . هذا ، وفهم الطفل للكلمات والجمل يظهر على صورة تدريجية . وأول كلمات يفهم مدلولها هى الكلمات الدالة على أكثر الأشخاص ملازمة له (ماما ، بابا ... الخ) وعلى الأمور الضرورية له (أمبو = الماء ، مم = الطعام ... الخ) وعلى الأشياء التى تستأثر بانتباهه لغرابتها مثلا . فقد كانت كلمة « طيارة » من الفوج الأول التى لاحظت أن ابنى اقداما يفهم مدلولها (ظهر فهمه لمدلولها فى أوائل شهره العاشر) . فقد كنا نجلس به فى حديقة المنزل فتحلق بعض الطائرات فوق رءوسنا محدثة دويا مزعجا . فاستأثر هذا بقسط كبير من انتباهه وتمكن معنى الكلمة فى ذهنه ، فكنا إذا سألناه فى وقت لا طائرة فيه فوق رءوسنا : « فين الطيارة يا ميمى = أين الطيارة يا إقدام » رفع بصره إلى السماء كمن يبحث عنها .

(أولا) الأساليب المتعلقة بالأصوات ، ومن أهمها ما يلى :

١ — أن الطفل يحاكى فى مبدأ الأمر الكلمات التى يسمعها محاكاة خاطئة ، ولا يزال يصلح من فاسد نطقه شيئاً فشيئاً ، مستعيناً بالتكرار ومعتمداً على مجهوده الإرادى ومستفيداً من تجاربه ، حتى تستقيم له اللغة : ففى أواخر هذه المرحلة لا يكاد يوجد فرق بين لغته ولغة آبائه [١] .

ومظاهر أخطائه فى هذه الناحية كثيرة من أهمها ما يلى :

(ا) أنه يغير الأصوات فيحل محل الصوت الأصلى صوتاً آخر قريباً منه فى المخرج أو بعيداً عنه (ويغلب أن يكون قريباً منه) ؛ فينطق مثلا الكاف تاء (تتاب = كتاب ؛ الستينة = السكينة . . . الخ) ، والشين سينا (سعر = شعر . . . الخ) ، والفاء باء (بيبى = فيفى . . . الخ) ، والعين أو الخاء همزة (نئناءة = نعناعة ؛ نأم = نعم ؛ أد = خذ) ، واللام نوناً (نمنه = نملة) . . . وهلم جرا . وقد ينال هذا التغيير معظم حروف الكلمة ، فلا يكاد يبقى فيها شىء من أصواتها الأصلية (ساساته = شوكولاتة [٢]) .

ويظل هذا النوع من الخطأ ملازماً الطفل حتى أواخر هذه المرحلة . فقد لازم ابنتى عفاف حتى أواخر سنتها الخامسة ؛ فظلت فى أثناء هذه السنة تجد بعض الصعوبة فى النطق بالشين وتميل إلى قلبها سيناً (وكان هذا آخر مظهر لديها من مظاهر الخطأ الذى نحن بصدده) . ولا تزال مظاهره كثيرة جداً فى لغة ابنى إقدام ؛ مع أنه الآن (أغسطس سنة ١٩٤٤) على أبواب السنة الخامسة .

غير أن نوع الحروف التى ينالها التغيير وكميتها ... كل ذلك يختلف باختلاف السن .

(ب) أنه يحرف أصوات الكلمة عن مواضعها ، فيجعل اللاحق منها سابقاً والسابق لاحقاً .

ويلازمه هذا النوع من الخطأ مدة طويلة . فلم تتحرر منه ابنتى عفاف إلا فى أواسط السنة الرابعة . ففى الشهر الخامس من سنتها الرابعة كانت لا تزال تقول « إمسو » بدل اسمو (اسمه) ، و « جمزة » بدل جزمة (حذاء) ، و « أحبسوَ » بدل أحسبو (أحسبه) ... وهلم جرا .

---

(١) سيظهر عند كلامنا عن الفونيتيك ومناقشة نظرية روسلو بصدد الأصوات أن لغة الخلف لا تكون مطابقة فى أصواتها كل المطابقة للغة السلف (انظر الفقرة الثانية من الفصل السابع) .

(٢) كل هذه الكلمات مأخوذة من لغة ابنتى عفاف فى هذا الدور .

ولم يتحرر منه بعد ابنى إقدام ، مع أنه كاد يتم سنته الرابعة ؛ ومن مظاهره لديه «امسو» بدل اسمه ، و «جمزة» بدل جزمة ، و «حمز» بدل حزم ، (اسم أختـه الصغيرة) .

(حـ) لا ينطق بجميع أصوات الكلمة بل يكتفى بلفظ بعضها . والجزء الذى يناله الحذف هو غالباً الجزء الأخير (تت = تحت ، مد = منديل ، بس = فستان... الخ) .

وترجع هذه الأخطاء الصوتية جميعها إلى ضعف أعضاء النطق عند الطفل فى مبدأ هذه المرحلة ، وضعف إدراكه السمعى وذاكرته السمعية ، وقلة المران ، وتأثر عناصر الكلمة بعضها ببعض . . . وهلم جرا .

وكلما تقدمت به السن واشتدت أعضاء صوته ودقت حاسة سمعه وقويت ذاكرته حسن نطقه وقلت أخطاؤه . ويعينه فى هذا السبيل مايبذله المحيطون به من جهود لإصلاح نطقه ، إذ يكررون له الـكلمة عدة مرات ، أو ينطقونها على مهل متميزة الحروف ، أو ينطقونها بصوت مرتفع . . . وما إلى ذلك .

وإلى الأخطاء السابقة وماإليها يرجع السبب فى صعوبة فهم حديثه على غير المحيطين به . وقد خيل إلى بعض الباحثين أن الطفل يخترع اختراعا بعض كلمات فى مبدأ هذا الدور . والحق أن الطفل لايأتى بجديد من عنده ، وأن الكلمات التى يظن أنها من اختراعه ترجع جميعها إلى كلمات تقليدية : فبعضها محاكاة محرفة كثرت فيها الأخطاء السابق ذكرها حتى بعدت عن أصلها بعداً كبيراً ؛ وبعضها محاكاة صحيحة لكلمات يتعمد بعض الملازمين للطفل أن ينطقوا بها نطقاً محرفا يتفق مع طريقة نطقه : فهذه الـكلمات هى من اختراع الـكبار لامن اختراع الطفل .

٢ - يولع الطفل فى مبدأ هذه المرحلة بتكرار المقاطع والـكلمات عدة مرات (با با با با = با با أى الوالد ، ما ما ما ما = ما ما أى الأم . . . وهكذا معظم الكلمات) . وهذا راجع إلى أسباب كثيرة : منها أن النشاط الحركى يتجه دائما إلى الأشكال المتماثلة والأوضاع المتشابهة ؛ ومنها أن إيقاف الحركة فجأة يتطلب مجهوداً أكبر من المجهود الذى يتطلبه استمرارها ، فالطفل بتكراره هذا يميل بفطرته إلى أخف المجهودين (وإلى هذا يرجع السبب فى حدوث هذه الظاهرة نفسها عند الـكبار أحياناً وخاصة حينما يتكلمون بسرعة) .

٣ - فى مبدأ هذه المرحلة تكثر فى لغة الطفل أصوات اللين (حروف المد) وتقل

الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة) . فيحذف من كل كلمة من كلماته عدداً من حروفها الساكنة ويضيف إليها حروفا لينة ليست فيها (كابا = كلب ، باتى = برنيطة . . . الخ) .

٤ — وفى مبدأ هذه المرحلة يسير الطفل ببطء كبير فى محاكاته ، فقد تمضى أشهر بدون أن يستطيع النطق بأكثر من بضع كلمات . ثم تنحل عقدة لسانه مرة واحدة ، وحينئذ يسير فى هذه السبيل بخطى حثيثة لدرجة يصعب معها على من يلاحظه أن يحصى مايدخل فى متن لغته كل يوم من كلمات جديدة . فمن مبدأ هذه المرحلة إلى أوائل الشهر الرابع من السنة الثانية ، لم تكن ابنتى عفاف لتستطيع النطق إلا بكلمة واحدة وهى « بابا » ؛ ثم زاد متن لغتها كلمتين أخريين وهما : « بو » = أمبو (أى طلب الشرب) ؛ و « كانى » = تانى (تطلب بذلك تكرار الشىء مرة ثانية) . وفى أوائل الشهر الخامس من السنة الثانية زاد متن لغتها كلمة رابعة وهى « ماما » ؛ وفى أوائل السادس كلمتين وهما « كاكا » (كانت تطلقها على الدجاجة والحمامة سواء أكانتا حيتين أم مطهيتين) و « نَأْ » = لأْ (علامة النفى) ؛ وفى أواخر التاسع كلمتين وهما « نِنَّا » (أى النوم) و « إث » = إرش (أى قرش) ؛ وفى أواخر العاشر ثلاث كلمات وهى « أنَّــاه » = الله ! (ما أحسن هذا !) و « توتو » (أى الكلب) ونمنه = نملة ؛ ومن أواخر الحادى عشر من السنة نفسها (السنة الثانية) انحلت عقدة لسانها وأصبح من الصعب متابعتها وإحصاء مايجدّ فى متن لغتها من كلمات . وفى أواخر الشهر الحادى عشر لم يكن ابنى إقدام ليستطيع النطق الا بكلمة واحدة وهى « بو » = امبو = الماء أو الشرب ؛ ثم زاد متن لغته كلمة ثانية وهو « بابا » ؛ ثم كلمة ثالثة وهى « تاتة » بمعنى المشى (كنا نكرر له هذه الكلمة فى أثناء تدريبه على المشى) ، ثم كلمة رابعة فى الشهر الثانى من سنته الثانية وهى ماما ؛ ثم كلمتين أخريين فى الشهر السادس من سنته الثانية ، وهما « مم » = الطعام أو الأكل ، و « كِخْ » (الشىء الردىء الذى لا يصح لمسه أو العمل القبيح الذى لا يصح الإتيان به) . وفى أوائل السنة الثالثة كان متن لغته يتألف من نحو خمس عشرة كلمة فقط . ثم انحلت عقدة لسانه مرة واحدة فأخذت لغته تزيد كل يوم كلمات كثيرة .

وكذلك كان شأن ابنتى حزم . ففى الشهر الخامس من سنتها الثانية (مارس سنة ١٩٤٣) . كان متن لغتها يتألف من إحدى عشرة كلمة فقط . وقد ظهرت لديها على الترتيب التالى : « تاتا » أى المشى ؛ « پاپا » أى الوالد ؛ « مَمْ » أى الأكل ؛ « ماما » أى

الوالدة، « نَنّا » = نينة أى جدتها ، «دَدّا» أى الحذاء الذى تلبسه وهى تمشى (كانت تسمى المشى تاتا كما تقدم) ؛ « نَنْ » أى النوم ؛ « أدّا » أى فيفى (وهى أختها عفاف) ؛ « دَدْ » أى تحت (وكانت تقولها عند ما تطلب نزولها إلى الدور الأسفل من المنزل أو إلى حديقته) ؛ « أمّا » أى أحمد الخادم ؛ «أُوم » (كانت تلفظهاهكذا ôme) وتعنى بها قُمْ، وتقولها عند ما تطلب إلى أحد أن يقوم لغرضٍ ما تريده ، ويفهم هذا الغرض من سياق الحال[١] . وفى أوائل سنتها الثالثة انحلت عقدة لسانها وأخذت لغتها تزيد كل يوم كلمات كثيرة .

٥ — وفى أواسط هذه المرحلة وأواخرها تصل قوة التقليد اللغوى عند الطفل ، فى مهارتها ودقتها ونشاطها وغزارة محصولها وأهميتها وسيطرتها على النفس ، إلى أقصى مايمكن أن تبلغه قوة إنسانية .

ففى هذا الدور لايدع الطفل أى كلمة أو جملة تلقى عليه بدون أن يحاكيها . وإن عاقه طول جملة عن تكرارها جميعها ، حاكى مايعلق بذهنه من كلماتها ، وبخاصة آخر كلمات فيها .

ولا يقتصر على تقليد الكلمات والجمل التى يريده المحيطون به على محاكاتها ، بل يحاكى كذلك من تلقاء نفسه كثيراً من الكلمات التى ترد فى محادثات الكبار على مسمع منه .

ويحرص الطفل كل الحرص على مايحصل عليه من مفردات ، وكثيراً مايبلغ به هذا الحرص أن يكررها فى خلوته ويؤلف من شتاتها أغانى وجملا عارية عن الدلالة ولكنها كبيرة الأثر فى تثبيتها فى ذهنه .

ولا تظهر مهارة الطفل التقليدية فى هذا الدور فى محاكاة الكلمات والجمل فحسب ، بل تظهر كذلك فى محاكاة الأساليب الصوتية التى تلقى بها الجمل الإخبارية والاستفهامية والطلبية والتعجبية والزجرية . . . وهلم جرا .

ولمهارة الطفل فى التقليد اللغوى فى أثناء هذه المرحلة ولشدة ميله إليه ، يستطيع أن يتعلم بسرعة وسهولة عن طريق المحاكاة أية لغة أجنبية إذا أتيحت له فرصة الاختلاط بالمتكلمين بها ؛ بل يستطيع أن يتعلم بهذه الوسيلة أكثر من لغة أجنبية واحدة .

(١) من الغريب أن ظهرت لديها فى هذا الدور المبكر هذه الكلمة التى تدل على فعل الأمر . — وفى معظم كلماتها السابقة كانت تقلد أخاها إقداما فى لغته وفى مخارج حروفه .

فالأطفال المصريون مثلا الذين يبعث بهم آباؤهم إلى المدارس الأجنبية فى هذا الدور يأخذون عن طريق المحاكاة عن معلميهم ومعلماتهم اللغة التى يتكلمون بها، ولا يلبثون بعد أمد قصير أن يجيدوا هذه اللغة لدرجة لا يستطيع معها أكبر خبير فى اللغات أن يميزهم من أهلها. والطفل إذا ولد من أبوين مختلفى اللغات أخذ عن كل منهما لغته فيصبح ثنائى اللغة Bilingue . — وإذا أتيح للطفل بصفة دائمة فى هذا الدور سماع أكثر من لغتين أخذها جميعها عن طريق المحاكاة بدون أن يشعر أنه يتعلم، ووصل فى إجادة كل منها إلى نفس الدرجة التى يبلغها فى لغته الأصلية، فينشأ متعدد اللغات Polyglotte . — ومن أجل هذا تختار الأسرات الغنية لأولادها فى هذا الدور مربيات مختلفات اللغات حتى تنتقل إليهم بالمحاكاة جميع لغاتهن.

وفى هذا يختلف الكبار عن الصغار اختلافا كبيراً. فمهما بذل الكبار فى تعلم لغة أجنبية من جهود ومهما طالت مدة إقامتهم بين أهلها، فلن يصلوا فى إجادتها من الناحية الصوتية إلى الدرجة التى يصل إليها الصغار فى هذا الدور. والسبب فى هذا راجع إلى أن الطفل يلبى فى محاكاته داعى غريزته، ويسلك بهذا الصدد طريقا محببا إليه، ويسير على أسلوب يتفق مع ألعابه، فيسهل عليه بذل المجهود ويؤتى مجهوده أكله. على حين أن الكبير يتعلم اللغة الأجنبية لغاية خارجة عنها، فيصعب عليه بذل المجهود فى هذا السبيل. هذا إلى أن الكبار قد رسخت لديهم عادات كلامية خاصة وتشكلت أعضاء نطقهم بالشكل الذى يلائمها؛ فيصبح من الصعب عليهم مع هذا اكتساب عادات صوتية جديدة مخالفة لعاداتهم الأولى. وليس الأمر كذلك عند الطفل؛ فأعضاء نطقه فى هذا الدور تكون مرنة قابلة للتشكل بمختلف الأشكال.

٦ — ولا يقتصر نشاط الطفل التقليدى فى هذه المرحلة على الأصوات اللغوية، بل يمتد كذلك إلى ماعداها من الأصوات، وبخاصة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة. بل إن اتجاهه إلى محاكاة هذه الأصوات يظهر قبل اتجاهه إلى محاكاة الكلمات. فقد كان فى استطاعة ابنتىَ عفاف فى الشهر الثالث من سنتها الثانية (٩ — ٤ — ٣٥) أن تحاكى صوت طائفة كبيرة من الحيوان؛ مع أنها إذ ذاك لم تكن لتستطيع النطق إلا بكلمة واحدة وهى «بابا». وقد كان فى استطاعة إبنى اقدام فى الشهر الثانى من سنته الثانية أن يحاكى أصوات كثير من الحيوانات والأشياء للإشارة إليها: «ڤو» = الطيارة أو السيارة، «آ أْ» = الدجاجة، «أ أْ آ» الضرب... الخ. مع أنه فى هذه المرحلة ما كان يستطيع النطق إلا بأربع كلمات.

ويسلك الطفل فى تقليده لهذا النوع طريقتين : إحداهما أن يلفظه فى أصوات مبهمة مشبهة لأصواته الأصلية ، وثانيتهما أن يمثله فى أصوات ذات مقاطع وأصوات مد (« ماء » لثغاء الخروف ، « كاك » لصوت الدجاجة ، « هو هو » لنباح الكلب . . . وهلم جرا) . — وقد قرر العلامة تين Taine أن الأطفال فى هذه المرحلة أمهر كثيرا من الكبار فى محاكاة أصوات الحيوان فى صورتها الطبيعية .

(ثانيا) ومن أهم الظواهر المتعلقة بالدلالة فى هذه المرحلة الأمور الآتية :

١ — على الرغم من أن فهم الطفل لمعانى الكلمات يبدو لديه فى المرحلة السابقة لمرحلة التقليد كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[1] ، فإن درجة فهمه تظل مدة طويلة ضعيفة وغير دقيقة . — ويبدو هذا فى مظاهر كثيرة منها :

(ا) أنه فى أوائل هذه المرحلة يستخدم الكلمات القليلة التى يستطيع النطق بها استخداما واسعاً يدل على عدم دقته فى فهم مدلولاتها ، فيحمّل كلا منها من المعانى أكثر مما يحتمله ، ويعبر بها عن جميع ما يرتبط بمعناها الأصلى برابطة ما ، وقد يتجاوز هذا كله فيعبر بها عن أمور لا صلة لها مطلقا بمعناها الأصلىّ . فيطلق مثلا « كا كا » على الدجاجة ، والطبق الذى تقدم فيه ، والطاهى الذى يعدها ، وغرفة الطهى التى تعد فيها ، والسكين الذى تذبح به ، والقفص الذى تحبس فيه ، والبيضة التى تبيضها ... ؛ وقد يتجاوز هذا كله فيطلقها على شىء أجنبى عنها كالمكتب مثلا لأدنى ملابسة فى ذهنه أو لاضطراب معناها لديه . — وقد لاحظت ان ابنتى عفاف فى أوائل سنتها الثالثة تطلق كلمة « نِنّا » على النوم وما يشتق منه ، وعلى جميع الأمور التى تشبهه أو تمت إليه بصلة ؛ فكانت تطلقها على السرير ، وعلى الاختفاء فتقول « الكا كا ننا » قاصدة التعبير عن اختفاء الدجاجة عن الأنظار ، وعلى البعد والإبعاد فتقول « ماما ننا » معبرة عن رغبتها فى أن تبعد أمها عن مجلسنا ، وعلى حفظ الشىء بعد الفراغ من استخدامه فتقول « فوطة ننا » أى أن المشوش (الفوطة) قد انتهت الحاجة إليه وحفظ فى المكان المعتاد حفظه فيه . — وكانت تطلق لفظ إمّة = عمة (أى عمامة) على العمامة وعلى الشخص الذى يلبسها .

وهذا التوسع فى الاستعمال لا ترجع أسبابه دائماً إلى ضعف الفهم وعدم الدقة فى إدراك المدلولات ، بل ترجع أحيانا إلى ضآلة محصول الطفل فى الكلمات فى ذلك

---

(١) انظر ص ٩٧ .

العهد وحاجته إلى التعبير بأى شكل ، وترجع أحيانا إلى السببين مجتمعين .

(ب) أنه فى أوائل هذه المرحلة يطلق اسم الجنس على غير أفراده لأدنى مشابهة . فقد لاحظت أن ابنتى عفاف كانت إلى أواخر السنة الثانية ، تطلق « كاكا » (ومعناها الأصلى فى لغتها الدجاجة) على الدجاج والحمام والإوز والبط ... وما إليها ؛ وكلمة «ماء» (ومعناها الأصلى فى لغتها الخروف) على الخروف والبقر والحصان والحمار . . . وما إليها ؛ و « ماما » على جميع السيدات ؛ و « پاپا » على جميع الرجال ... وهلم جرا .

وكلما تقدمت السن بالطفل وكثر محصوله اللغوى ، يدق فهمه وتتحدد معانى الكلمات فى ذهنه ، فتتخلص من المدلولات الأجنبية التى كانت عالقة بها ، وتتميز لديه الأجناس بعضها من بعض ، فيطلق على أفراد كل منها اسمها الخاص بها .

٢ — وفى أوائل هذه المرحلة تبدو لغة الطفل عارية عن الصرف والاشتقاق . فكل كلمة من كلماته تلازم شكلا واحداً ، وتدل فى شكلها هذا على جميع ما يشتق منها ويتصل بها . وبتقدم الطفل فى هذه المرحلة يدرك العلاقة بين تغير بنية الكلمة وتغير معناها أو زمنها ، فتظهر حينئذ عناصر الصرف والاشتقاق فى لغته .

٣ — وفى مبدأ ظهور هذه العناصر يميل الطفل إلى القياس والسير على وتيرة واحدة حيال جميع الكلمات . فتراه مثلا يتبع طريقة واحدة فى التأنيث ، فيقول خروف وخروفة وحصان وحصانة كما يقول كلب وكلبة . . .

٤ — يفتتح الطفل هذه المرحلة بالنطق بكلمات مفردة قاصداً بها التعبير عما نعبر عنه بالجمل . فيقول مثلا — « باب » قاصداً افتح الباب ، و « شباك » قاصداً اقفل الشباك ، و « عصا » قاصداً اضرب القط بالعصا . . . وهلم جراً . ويفهم غرضه من السياق والظروف المحيطة به والإشارات اليدوية والجسمية التى تصحب كلامه .

ويختار الطفل عادة للتعبير عن الجملة الكلمة التى يجيد النطق بها أو الكلمة التى تسبق غيرها إلى لسانه ، ولو لم تكن ذات أهمية فى المعنى الذى يريد تقريره . فمن ذلك أن ابنتى عفاف وسنها ثمانية عشر شهراً وبضعة أيام (٢ - ٨ - ٣٥) كانت تسير القهقرى ، فعثرت فى طبق كان يوضع فيه اللبن لهرتها وأولادها الصغار ، وكاد يختل توازنها ؛ ولما تبين لها السبب فى عثرتها قالت « بو » (بو = أمبو = الشرب) أى إن السبب فى ذلك هو الطبق الذى تشرب فيه الهرة وأولادها لبنها .

ثم ترتقى لغة الطفل بهذا الصدد فتصبح ثنائية الكلمات (عفاف فى أوائل السنة

الثالثة : « ماء مم » أى الخروف يأكل ؛ « ماما ننا » أى لتغادر ماما هذا المكان ...) .
وبعد ذلك بقليل تصبح لغته ثلاثية الكلمات (عفاف فى الشهر الرابع من السنة الثالثة :
«ماما أوه إنا» = ماما ألم هنا ، مشيرة إلى رقبة والدتها ، أى إن برقبة أمها ألما أو مرضا) .

أما تركيب الجمل تركيبا كاملا فلا يصل إليه الطفل إلا فى أواخر هذه المرحلة .

٥ — وفى مبدأ ظهور الجمل فى لغة الطفل تبدو عارية عن الروابط والحروف ، ويبدو تركيبها ساذجا ، وتبدو كلماتها بدون تنسيق ولا ترتيب فيوضع بعضها بجانب بعض كيفما اتفق . ومن نماذج ذلك ما قالته ابنتى عفاف فى ٢٠-٧-٣٦ « أنا نونو دده (وقوست ظهرها لتمثل الحالة التى كانت عليها وهى صغيرة) ماما دزساه » أى حينما كنت صغيرة على هذه الصورة كانت والدتى ترضعنى الشاى فى الثدى الصناعى .

وقد يرتب الطفل أحيانا كلمات جملته بشكل يتفق مع ما لكل منها من أهمية فى نظره ، فيبدأ بأكبرها أهمية ويتدرج حتى ينتهى بأقلها شأناً . فيقول مثلا : « عصايا بابا ضرب محمد » قاصداً أن أباه قد ضرب محمداً بالعصا . فيقدم العصا لأنها أكبر عناصر الجملة أهمية فى نظره ، فانتباهه قد تعلق بها أكثر من تعلقه بما عداها ، ولأن بيان آلة الضرب هو أهم ما يرمى إليه من جملته ؛ ثم يتبعها بالكلمة الدالة على الشخص الذى اتصل بها اتصالا مباشراً وقام بتحريكها وهو بابا ؛ ثم يأتى بالكلمة الدالة على أثر تحريك أبيه للعصا وهى ضرب ؛ ويختم جملته بمحمد الذى لم يقم بعمل إيجابى فى الحادث الذى يريد الطفل التعبير عنه .

٦ — وأول كلمات تبدو عند معظم الأطفال هى أسماء الذوات ، وتظهر بعدها الأفعال (١) ، ثم الصفات (٢) ، ثم الضمائر (ولعدم وجود الضمائر فى لغة الطفل فى

(١) لاحظت أن أول نوع من الأفعال ظهر فى لغة ابنتى عفاف كان فعل الأمر . فى أوائل السنة الثالثة (ابتداء من ٤ — ٣ — ٣٦) نطقت بفعل « تعانى » = تعال (أمر بالمجىء) و « استنى » (أمر بالانتظار) وكانت تستعمل هذين الفعلين مسندين للمذكر دائما ولو كان المخاطب مؤنثا ؛ و « أدى » = خدى (أمر بالأخذ) و « آتى » = هاتى (أمر بالاعطاء) وكانت تستعملهما مسندين للمؤنث دائما ولو كان المخاطب مذكرا . — ولم يظهر المضارع والماضى فى لغتها إلا فى مرحلة لاحقة لهذه المرحلة . ومثل هذا لاحظته على ابنى اقدام وابنتى حزم ، وقد ظهر فعل من أفعال الأمر وهو « أوم » = قم عند ابنتى حزم فى مرحلة مبكرة (فى الشهر الخامس من سنتها الثانية) كما سبقت الاشارة إلى ذلك بصفحة ١٠١).

(٢) قد تظهر الصفات عند بعض الأطفال فى مرحلة سابقة لمرحلة ظهور الأفعال ؛ بل لاحظ العلامة بريير Preyer أن أول كلمة نطق بها ابنه كانت صفة كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرة الأخيرة من هذا الفصل . — والذى لاحظته على ابنتى عفاف أن الصفات والأفعال قد ظهرا لديها فى وقت واحد ،

مبدأ هذه المرحلة نراه يعبر عن نفسه باسمه العلم فيقول مثلا « فيفى مم » أى فيفى تريد أن تأكل (١) ، ولا تظهر الحروف وما يشبهها من الظروف والروابط وأسماء الشرط إلا فى منتصف هذه المرحلة أو أواخرها (٢) . ولذلك تظهر جمل الطفل فى المبدأ عارية عن الروابط والحروف كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٣) .

والسبب فى هذا راجع إلى ماسنذكره فى الفقرة التالية من أن الطفل يسير فى ارتقائه اللغوى وفقا لارتقاء فهمه . فدرجة نموه الفكرى فى مبدأ هذه المرحلة لا تتيح له أكثر من فهم الكلمات الدالة على أمور حسية يمكن أن يشار إليها ، ولذلك اقتصر متن لغته فى هذا الدور على أسماء الذوات ، فإذا نما تفكيره أمكنه أن يدرك مدلولات الكلمات المعبرة عن أمور معنوية ، وحينئذ تظهر فى لغته الأفعال (الدالة على الحدث والزمان) والصفات (الدالة على معنى كلى تتلبس به الذوات بشكل عارض) وما إليهما ؛ ولما كانت الحروف والروابط أدق أنواع الكلمات مدلولا ، لم يتح له فهمها إلا فى أواسط هذه المرحلة أو أواخرها ، فتأخر ظهورها تبعاً لذلك .

= ولكنهما ظهرا متأخرين عن أسماء الذوات . ففى الوقت الذى كانت تنطق فيه بأفعال الأمر التى تقدمت الاشارة إليها فى التعليق السابق كانت تنطق ببعض صفات : فمن ذلك « دح » بمعنى جميل (٤ — ٣ — ٣٦) و « أحمح » بمعنى أحمر (وكانت تستعمله فى صيغة المذكر دائما ولو كان الموصوف مؤنثا) و « بيده » أى بيضاء (وكانت تستعملها فى صيغة المؤنث دائما ولو كان الموصوف مذكرا) وقد ظهرا لديها فى ١١ — ٧ — ٣٦ . ومثل هذا لاحظته على ابنى اقدام وابنتى حزم .

(١) غير أنى لاحظت على ابنتى عفاف أن ضمير المتكلم المنفصل « أنا » قد ظهر فى لغتها يوم ٢٩ — ١ — ٣٦ أى قبيل ظهور الصفات والأفعال ، ولاحظت كذلك أنها تستخدمه استخداما صحيحا فلا تعامله معاملة الأعلام كما يفعل بعض الأطفال فى هذه المرحلة بل تستعمله حينما تريد الاشارة الى نفسها .

(٢) لم تظهر الحروف وما اليها فى صورة واضحة عند ابنتى عفاف إلا فى أوائل الشهر الرابع من سنتها الثالثة . ففى ١١ — ٥ — ٣٦ ظهرت « إنا » بكسر الهمزة بمعنى هنا (ماما أوه إنا = ماما تشكو ألما هنا مشيرة إلى رقبتها) ، وفى ١١ — ٧ — ٣٦ ظهر فى لغتها « بئيد » بمعنى بعيد ، و « ايه ده » أى ما هذا و « ياء النداء » (إيه ده يا بابا = ما هذا يا بابا) .

أما قبل هذا العهد فما كان يوجد فى لغتها من هذه الفصيلة إلا كلمتان ظهرتا مبكرتين قبل أوانهما إحداهما « نأ » بنون مفتوحة فهمزة ساكنة ، بمعنى لا (أداة النفى . — وقد ظهرت فى الشهر التاسع من سنتها الثانية) وثانيتهما « نأم » بنون مفتوحة فهمزة ساكنة فميم ، بمعنى نعم (أداة الايجاب . — وقد ظهرت يوم ٢٠ — ١٢ — ٣٥) . — ومن غريب ما لاحظته على ابنتى عفاف بهذا الصدد أن واو العطف ، مع كثرة تكرارها فى الكلام ومع فهمها لمدلولها قد تأخر ظهورها كثيرا فى لغتها . فقد طلب إليها يوم ٢٦ — ٧ — ٣٦ أن تقول للخادمة : « إنت كخ وعبيطة » فقالت لها : « إنت كخ إنت أبيطة » فكررت الضمير بدلا من واو العطف ، ومن الواضح أن تكرارها الضمير دليل على فهمها لمدلول واو العطف .

(٣) انظر رقم ٥ صفحة ١٠٤ .

وقد قسم العلامة شترن Stern هذا الطريق إلى ثلاث مراحل : سمى أولها « مرحلة المادة » Stade de la Substance وهى المرحلة التى تظهر فيها أسماء الذوات ؛ وسمى ثانيتها « مرحلة العمل » Stade de l'action وهى المرحلة التى تظهر فيها الأفعال ؛ وسمى الثالثة « مرحلة العلاقات » Stade des Relations وهى المرحلة التى تظهر فيها الحروف والروابط[1] .

٧ — يكثر فى لغة الطفل فى أوائل هذه المرحلة الكلمات المأخوذة عن أصوات الحيوان والأشياء والتى يقصد بها التعبير عن مصادرها أو عن أمور تتصل بها (ماء للخروف ، وكاكا للدجاجة ، وأأ للضرب وممْ للأكل ... وهلم جرا) . — وقد ثبت أن بعض هذه الكلمات يصل إليها الطفل بنفسه بدون تلقين الكبار .

٨ — ويعتمد الطفل فى معظم هذه المرحلة اعتمادا كبيرا على لغة الإشارات فيمزجها بلغته الصوتية لتحديد مدلولاتها وتوضيح مبهمها وتكملة نقصها وتمثيل حقائقها[2] . — وقد يستخدمها وحدها فى التعبير عما يود التعبير عنه . ويكثر هذا لديه قبل ظهور اللغة ، أى قبل دخوله فى مرحلة التقليد ، وفى أوائل هذه المرحلة . ففى أواخر السنة الثانية كانت ابنتى عفاف تقتصر فى التعبير عن كثير من حاجاتها على الإشارة اليدوية والجسمية . فمن ذلك أنها فى تعبيرها عن الفيل كانت تقبض أصابعها ما عدا السبابة وتضع كفها بهذا الشكل تحت شفتيها وتحرك السبابة كما يحركه المصلى فى تشهده ، ممثلة بذلك خرطوم الفيل وحركته . وكانت تستخدم هذه الحركات كلما طلبت الذهاب الى حديقة الحيوان ، أو سئلت عما رأته بها ، أو طلب إليها بيان ما تمثله صورة فيل ... وهلم جرا . وقد تبلغ لغة الإشارة عند بعض الأطفال شأواً كبيرا ، فيستطيعون التعبير بها عن معان دقيقة وقصص طويلة . فقد أردت مرة (٢٢ - ١١ - ٣٥ أى أواخر السنة الثانية) أن أشغل ابنتى عفاف عن اللعب فى سريرها لتتفرغ للنوم ، فأخذت أقص عليها بالألفاظ التى تفهمها وبالحركات قصة طويلة تتعلق بأسد كان يأكل قطعة لحم فسقط

(١) V. Delacroix : Langage et Pensée, 304, 305

(٢) من أوضح النماذج بهذا الصدد ما صدر عن ابنتى عفاف (يوم ١٣ — ٣ — ٣٦) إذ أشرت فى كتاب فرنسى إلى صورة غزال يرعى الكلأ وطلبت إليها أن تذكر ماتمثله هذه الصورة فقالت « ماء مم » (أى حيوان يأكل) وعززت هذا بأن مثلث هيئة حيوان وحركت فكيها وشفتيها كما تحركها أثناء الأكل . انظر مثالا آخر بصفحة ١٠٤ رقم ٥ .

عليه غراب وضربه بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم وطار بها حتى نزل على شجرة وأخذ يأكلها. فاستأثرت هذه القصة بانتباهها. وكانت كلما فرغتُ من مرحلة من مراحلها، تشير إلىّ إشارة الفاهم المتتبع لحديثى قائلة « إيه، إيه ». وبعد أن فرغت من القصة أخذت أسألها عنها كما يفعل المدرس عقب درس محادثة، فطفقت تمثل بحركات يديها وفمها أعمال الأسد وهو يتناول غذاءه، ثم حركات الغراب إذ ضرب الأسد بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم، وإذ طار بها إلى الشجرة... الخ، غير مستخدمة فى ذلك إلا بضع ألفاظ ككلمة « أأ » التى كانت تعبر بها عن الضرب، وكلمة « مَمْ » التى كانت تعبر بها عن الأكل.

(٤) عوامل كسب الطفل للّغة

يتوقف التقليد اللغوى عند الطفل على عوامل كثيرة أهمها ما يلى :

١ — وضوح الإحساسات السمعية وتمييزها بعضها من بعض :

يولد الطفل أصم ويمتد صممه هذا حتى اليوم الرابع أو الخامس، وحينئذ تبدو لديه أمارات السمع. غير أن إحساساته السمعية تظل مبهمة إبهاماً كبيراً ويظل عاجزا عن تحديد مصادرها حتى أواخر الشهر الرابع. ثم ترتقى ارتقاء بطيئا حتى أوائل السنة الثانية؛ ثم تدخل فى دور النضج الذى يستغرق أمدا غير قصير.

فبالموازنة بين هذه المراحل والمراحل التى تسير فيها لغة الطفل، والتى سبق الكلام عنها فى الفقرة السابقة، يتبين أن ظاهرة التقليد اللغوى تتبع فى رقيها ظاهرة الإحساس السمعى.

أما السبب فى ذلك فلا يحتاج إلى بيان. فالطفل فى تقليده يحاكى ما يصل إليه عن طريق السمع. فمن البديهى أن تتوقف هذه المحاكاة على وجود قدرة السمع لديه وأن تتأثر فى ارتقائها بما ينال هذه الحاسة من دقة وتهذيب.

ولذلك نرى أن من يولد أصم ينشأ أبكم، ولو كانت أعضاء نطقه سليمة.

٢ — الحافظة والذاكرة السمعيتان. — ونعنى بذلك القدرة على حفظ الأصوات المسموعة وعلى تذكرها واستعادتها عند الحاجة إليها.

لاتبدو هذه القدرة عند الطفل إلا بعد بضعة أسابيع بعد ولادته؛ وتظل ضعيفة حتى أواخر الشهر الرابع، ثم ترتقى ارتقاء بطيئا حتى أوائل السنة الثانية، وحينئذ تبدأ مرحلة نضجها.

فهذا العامل يقطع فى طريق نموه نفس المراحل التى يقطعها العامل الأول، وتصحبهما فى سيرهما ظاهرة التقليد اللغوى: تظهر بظهورهما وتنمو بنموهما.

أما وجه توقف التقليد اللغوى على هذه الظاهرة فلا يقل وضوحا عن توقفه على الظاهرة الأولى. وذلك أن الكلمة التى يحاكيها الطفل لاتصبح جزءا من لغته إلا إذا استطاع حفظها واستعادتها عند الحاجة إلى التعبير عما تدل عليه.

٣ — فهم الطفل لمعانى الكلمات. — وقد عرضنا فى الفقرة السابقة لأمور كثيرة تدل على توقف التقليد اللغوى على هذا العامل، وتثبت أن كل ارتقاء فى تفكير الطفل ودرجة فهمه يتبعه ارتقاء فى تقليده ونمو فى محصوله اللغوى، وتبين وجوه العلاقة بين الأمرين. انظر مميزات الدلالة فى هذا الدور (صفحات ١٠٢ — ١٠٧) وخاصة السادس منها (بصفحتى ١٠٥، ١٠٦).

***

غير أنه قد يحدث عند أطفال غير عاديين من الناحية اللغوية أن يتخلف التقليد اللغوى عن هذه العوامل الثلاثة. — ويرجع هذا فى الغالب إلى خمول محلى فى أعضاء النطق، أو كسل طبيعى عام، أو شذوذ الطفل ورغبته عن الاشتراك فى الحياة الاجتماعية.

ولهذا يجدر أن نزيد على هذه العوامل الثلاثة عاملا رابعاً وهو نشاط الطفل الحيوى، ومبلغ عزمه وإرادته، ودرجة رغبته فى الاشتراك فى حلبة الحياة [١].

(٥) مبلغ تمثيل الطفل فى ارتقائه اللغوى

لنشأة اللغة الإنسانية وتطورها

يذهب كثير من العلماء إلى أن المراحل التى يجتازها الطفل فى أى فرع من فروع حياته تمثل المراحل التى اجتازها النوع الإنسانى فى هذا الفرع L' Ontogenèse reproduit la Phylogenèse. — ويطلق على هذه النظرية اسم نظرية التلخيص

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع جميعه (عوامل كسب الطفل للغة) بكتابى «فى التربية» صفحات ٨٦—٩٢.

هذا، وقد ظن بعض العلماء أن لحاسة النظر ورؤية الطفل لحركات فم المتكلم وشفتيه أثراً كبيراً فى التقليد اللغوى. وقد عرضنا بتفصيل فى كتابنا «فى التربية» لهذه النظرية، وذكرنا أدلتها وناقشناها وبينا ما فيها من فساد (انظر «فى التربية» صفحات ٩٥—٩٩).

العام أو نظرية هيكيل Haekel (١).

وعلى هذه النظرية اعتمد كثير من علماء اللغة فى تأييد آرائهم بصدد نشأة اللغة الإنسانية وتطورها.

وقد تكلمنا بتفصيل فى الفصل السابق عن أهم هذه الآراء وناقشناها. فحسبنا هنا أن نشير إليها مبينين وجه اعتمادها على الظواهر المتعلقة بتطور اللغة عند الطفل:

١ — تقدم أن معظم العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية قد نشأت من أنواع التعبير الطبيعى، وأن الإنسان قد افتتح هذا السبيل بمحاكاة أصوات الطبيعة (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعال) وأصوات الحيوان والأشياء (٢).

ومن أهم الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد هذه النظرية أن الطريق الذى ترسمه لنشأة اللغة الإنسانية يتفق مع الطريق الذى يسلكه الطفل فى تعبيره. فقد ظهر مما تقدم أن أول مايظهر من أنواع التعبير المقصود عند الطفل هو محاكاة التعبير الطبيعى عن الانفعال، ثم تظهر بعده محاكاة أصوات الحيوان والأشياء للدلالة على مصادرها أو على أمور تتعلق بها، ثم تظهر بعدهما محاكاة الكلمات (٣).

٢ — تقدم أن معظم علماء اللغة يذهبون إلى أن الكلام الإنسانى كان يعتمد فى المبدأ اعتماداً كبيراً على الإشارات اليدوية والجسمية التى كانت تصحبه فتكمل ناقصه وتوضح مدلوله وتمثل حقائقه، ثم أخذ يستغنى شيئاً فشيئاً عن هذا المساعد حتى كاد يستقل بالتعبير (٤).

ومن أهم الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد هذه النظرية أن المراحل التى ترسمها تتفق مع المراحل التى تسير فيها لغة الطفل. فقد ظهر مما تقدم أن الطفل، فى مبدأ مرحلته الكلامية، يعتمد اعتماداً كبيراً على لغة الإشارات فيمزجها بلغته الصوتية لتحديد مدلولاتها وتوضيح مبهمها وتكملة نقصها وتمثيل حقائقها (٥).

٣ — تقدم أن بعض العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية اجتازت فيما يتعلق

---

(١) يرجع الفضل فى نشرها وتكملتها إلى هيكل الألمانى، ولذلك نسبت إليه، وإن كان قد قال بها من قبله العلامة سر Serres. — V. Traité de Psychologie, par Dumas et collaborateurs, p. 32

(٢) انظر النظرية الرابعة بصفحة ٧٧ وتوابعها.

(٣) انظر صفحات ٩٥ — ٩٧ وصفحتى ١٠٢ (رقم ٦) و ١٠٧ (رقم ٧).

(٤) انظر ص ٧٨.

(٥) انظر ص ١٠٧.

بتطور أصواتها، ثلاث مراحل : « مرحلة الصراخ » التى كانت فيها أصوات اللغة شبيهة بأصوات الحيوان والأشياء ومظاهر الطبيعة ؛ ثم « مرحلة المد » وفيها ظهرت أصوات اللين فى اللغة الإنسانية ؛ ثم « مرحلة المقاطع » وفيها ظهرت الأصوات الساكنة (١) .

ومن أهم الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد هذه النظرية أن المراحل التى تذهب إليها بصدد التطور الصوتى فى اللغة الإنسانية تتفق مع المراحل التى يجتازها الطفل فى هذا السبيل . — فقد ظهر مما تقدم أن أول أصوات تظهر لدى الطفل هى الأصوات المبهمة ، ثم تتلوها أصوات اللين ، وأن الأصوات ذات المقاطع لاتكثر فى لغته إلا فى « مرحلة التمرينات النطقية » (٢) .

٤ — تقدم أن معظم العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية قد بدأت بألفاظ دالة على معان جزئية وأن الألفاظ الدالة على المعانى الكلية لم تظهر إلا بعد ارتقاء اللغة ونهضة التفكير الإنسانى (٣) .

ومن أهم الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد نظريتهم أنها تتفق مع مراحل التطور اللغوى عند الطفل . فقد تبين مما تقدم أن أول كلمات تظهر عند الطفل هى أسماء الذوات الحسية ثم تظهر بعدها الكلمات الدالة على معان كلية (٤) .

٥ — تقدم أن بعض علماء اللغة يذهبون إلى أن الصفة هى أول ما ظهر فى الكلام الإنسانى ، ثم ظهرت أسماء الذوات ثم الأفعال واختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف (٥) .

ومما يعتمد عليه هؤلاء العلماء فى تأييد نظريتهم موضوع التطور اللغوى عند الطفل . غير أن هذا التطور لا يؤيدهم فيما يتعلق بأسبقية الصفات على أسماء الذوات فقد ظهر مما تقدم أن أسماء الذوات هى أول ما يظهر فى لغة الطفل ثم تتلوها الأفعال والصفات (٦) . ولذلك يعتمدون فى هذه النقطة على أمور تتعلق بأصول الكلمات فى اللغات الهندية

---

(١) انظر صفحات ٨٢ — ٨٤ .

(٢) انظر صفحات ٩٥ — ٩٧ ، وما تحيل عليه هذه الصفحات وانظر كذلك الخاصة الثالثة من خواص الأصوات اللغوية للطفل فى مرحلة التقليد بآخر ص ٩٩ وأول ص ١٠٠ .

(٣) انظر ص ٨٤ .

(٤) انظر صفحات ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ .

(٥) انظر صفحتى ٨٥ ، ٨٦ .

(٦) انظر صفحتى ١٠٥ ، ١٠٦ .

— الأوربية كما سبقت الإشارة إلى ذلك[١] . ويرون من جهة أخرى أن أسبقية الأسماء على الصفات فى الطفولة ليست عامة عند جميع الأطفال ، بل إن بعضهم ليفتتح نطقه بكلمات دالة على صفات ، ولا تظهر لديه الأسماء إلا فيما بعد . وفى ذلك يقول العلامة بريير Preyer : « ليس صحيحاً ما يذهب إليه كثير من الباحثين من أن ظهور الأسماء سابق لظهور الصفات عند جميع الأطفال . فقد لاحظت أن أول كلمة لفظها ابنى (وكانت سنه إذ ذاك ثلاثة وعشرين شهراً) كانت صفة فقد قال Hess يقصد Chaud أى ساخن ، (للتعبير عن أن لبنه ساخن لا يستطيع شربه) ، ثم ظهرت لديه الأسماء بعد ذلك » . وقد لاحظ العلامة تين Taine وآخرون بعض ظواهر من هذا القبيل[٢] .

٥ — تقدم أن العلامة شليجيل وأعضاء مدرسته يذهبون إلى أن اللغات الإنسانية الأولى كانت « عازلة » ، أى لا تتصرف فيها الكلمات ولا ترتبط فيها عناصر الجملة بعضها ببعض بروابط ملفوظة[٣] .

ومن الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد نظريتهم تطور اللغة عند الطفل . — فقد ظهر مما تقدم أن لغة الطفل تبدو فى أوائل مرحلة التقليد عارية من الصرف والاشتقاق والتنظيم وربط عناصر الجملة بعضها ببعض[٤] .



(١) انظر ص ٨٥ .

(٢) V. Ribot, op. cit. 84, 85

(٣) انظر صفحات ٨٦ — ٨٩ .

(٤) انظر صفحتى ١٠٤ ، ١٠٥ .

الفصل الثالث

فصائل اللغات

وخواص كل فصيلة منها وما بينها من صلات

---

(١) أشهر الآراء فى فصائل اللغات

حاول كثير من علماء اللغة أن يرجع اللغات الإنسانية إلى فصائل عامة ؛ وقد اختلفت وجهات نظرهم بهذا الصدد اختلافا كبيرا .

فبعضهم نظر إلى الموضوع من ناحية التطور والارتقاء ، فقسم اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل تختلف أفراد كل منها عما عداها فى درجة رقيها ، وتمثل كل منها مرحلة خاصة من المراحل التى اجتازها الكلام الإنسانى فى سبيل تطوره .

وأشهر نظرية بهذا الصدد هى نظرية شليجيل التى تقسم اللغات من هذه الناحية إلى ثلاث فصائل : « اللغات غير المتصرفة أو العازلة » (وتشمل الصينية ، والسيامية ، والبرمانية ، والتبتية . . . الخ) ، و « اللغات اللصقية أو الوصلية » (وتشمل التركية ، والمنغولية ، والمنشورية ، واليابانية ، ولغات الباسك ، . . الخ) ؛ و « اللغات المتصرفة أو التحليلية » (وتشمل الفارسية والهندية واللاتينية والإغريقية والجرمانية والعربية والعبرية . . . الخ) .

وقد شرحنا فى الفصل الأول هذه النظرية وناقشناها فظهر لنا فسادها من عدة وجوه ، وتبين أن الأساليب الثلاثة التى تقسم على أساسها اللغات الإنسانية إلى فصائل (العزل واللصق والتصرف) ، توجد مجتمعة فى كل لغة إنسانية : فلا نكاد نعثر على لغة عارية عن أسلوب منها [1] .

وبعضهم قطع النظر عن موضوع التطور والارتقاء ، وقسم اللغات الإنسانية إلى فصائل يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات قرابة لغوية ، فتتفق فى أصول الكلمات

---

(١) انظر صفحات ٨٦ — ٨٩ .

وقواعد البنية وتركيب الجمل . . . وما إلى ذلك ، ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة ، ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة ، وتؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

وأشهر نظرية قسّمت اللغات على هذه الأسس هى نظرية مكس مولر Max Müller التى ترجع جميع اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل : الفصيلة الهندية الأوروبية ، والفصيلة السامية الحامية ، والفصيلة الطورانية[1] . — وسنتكلم على كل فصيلة منها على حدة فيما يلى :

(٢) الفصيلة الأولى : الهندية الأوروبية

Langues Indo-Européennes

تشمل هذه الفصيلة ثمانى طوائف من اللغات ، وهى :

١ — « اللغات الهندية — الإيرانية » أو « اللغات الآرية » وتشمل شعبتين :

إحداهما شعبة اللغات الهندية (السنسكريتية Sanskrit والبراكريتية Prakrit واللغات الهندية الحديثة Langues Néo-indoues . . . الخ) ؛

والأخرى شعبة اللغات الإيرانية (الفارسية القديمة Vieux perse ، والزند أو الأفستية Zend ou Avestique وهى لغة الأسفار المقدسة المسماة الأفستا أو الزند — أفستا ، والبهلوية Pehlvi ، والفارسية الحديثة Persan ، والكردية Kurde ، والأسيتية Ossète ، وهى لغة الأسيتيين Ossètes وهم سكان القوقاز الأوسط ، والأفغانية . . . وهلم جرا) .

---

(١) فطن كثير من العلماء قبل مكس مولر إلى صلات القرابة التى تربط اللغات الهندية والآرية والأوروبية بعضها ببعض ، وإلى الصفات التى تشترك فيها أفراد الفصيلة الحامية — السامية ؛ كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى فقرة « تاريخ البحوث اللغوية » وكما أشرنا إليه فى كتابنا « فقه اللغة » (انظر صفحتى ٤١ — ٢٤ وانظر كذلك كتابنا « فقه اللغة » صفحتى ٥ ، ٦) . — ولكن يرجع الفضل إلى مكس مولر فى تكملة هذه البحوث ونشرها ، وفى دراسة الفصيلة الهندية الأوروبية على الأخص دراسة عميقة مستوعبة ، وفى إضافة فصيلة ثالثة إلى الفصيلتين السابقتين ، وهى فصيلة اللغات الطورانية (وقد اتفق معه فى جعل هذه اللغات فصيلة ثالثة العلامة الألمانى بونسن Bunsen فى كتاب له Outlines of the philosophy of Universal history ظهر فى نفس العصر الذى ظهر فيه بحث مكس مولر بهذا الصدد Letter on the Classification of the Turanian Languages) . — ولهذا نسب إلى مكس مولر تقسيم اللغات إلى هذه الفصائل الثلاث .

ولكثرة وجوه الشبه بين هاتين الشعبتين عدهما علماء اللغة طائفة واحدة سموها طائفة « اللغات الهندية الإيرانية » أو طائفة « اللغات الآرية » .

وكان القدامى من علماء اللغة يتوسعون فى كلمة « اللغات الآرية » فيطلقونها على جميع طوائف الفصيلة الهندية — الأوروبية ، من قبيل إطلاق الخاص على العام . ولكن المحدثين منهم آثروا العدول عن هذا الاستعمال اتقاء للخلط واللبس ، فأصبحوا لا يطلقون كلمة « اللغات الآرية » إلا على الطائفة التى نحن بصدد الكلام عنها (١) .

٢ — « اللغات الأرمنية » Langues Arméniennes .

٣ — « اللغات الإغريقية » (وتشمل اللغات اليونانية القديمة ، وأشهر هذه اللغات اليونية — الأتيكية ، والدورية ؛ وتشمل كذلك اللغات اليونانية التى تكونت فى القرون السابقة للميلاد وقامت على أنقاض اللغات اليونانية القديمة ، واشتهرت عند علماء اللغة باسم « اليونانية الحديثة » ، وتشمل كذلك اللغات اليونانية فى العصر الحاضر) .

٤ — الألبانية .

٥ — « اللغات الإيطالية » (وتشمل الأسكية Osque ، والأمبرية — السمنية Ombrien - Samnite ، واللاتينية ، واللغات الرومانية Langues Romanes وهى المتفرعة من اللاتينية كالفرنسية والبرتغالية والإيطالية والإسبانية ولغة رومانيا .. الخ) .

٦ — « اللغات السلتية » Langues Celtiques (التى كانت لغات شعوب السلت Les Celtes ، وقد طغت عليها الآن اللغات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية ، ولكن بقى بعض أشكال منها فى كثير من اللهجات المحلية بإرلندا وويلز ومنطقة البريتون Bretagne بغرب فرنسا) .

٧ — « اللغات الجرمانية » Langues Germaniques ، وتشمل ثلاث شعب :

أولاها شعبة الجرمانية الشرقية وهى اللغة الجوتية Gothiques (وهى لغة قبائل الجوث Goths وهو شعب قديم كان يسكن جرمانيا الشرقية) .

وثانيتها شعبة اللغات الجرمانية الشمالية ، وهى لغات أيسلندا والدانيمرك والسويد والنرويج ؛

وثالثتها شعبة اللغات الجرمانية الغربيـــة وتشمل الإنجليزية — السكسونية ،

---

(١) V. Les Langues du Monde p. 28

والإنجليزية الحديثة ، والهولندية واللغة الفلامندية (لغة مقاطعة الفلاندر ببلچيكا . ويتألف من هـذه اللغة مع اللغة الهولندية فرع لغوى واحد يسـمى فرع اللغات النزلاندية) واللغات الألمانية .. الخ .

٨ — « اللغات البلطيقية السلافية » ، وتشمل شعبتين :

إحداهما شعبة اللغات البلطيقيـة : وهى الليتوانية Lituanienne (لغة ليتوانيا Lituanie) والليتونية Lette (لغةليتونيا Lettonie أولاتفيا Latvia) والبروسية القديمة ؛

والأخرى شعبة اللغات السلافية أو الصقلبية : وهى السلافية القديمة ، والروسية ، والبولونية ، والتشيكية ، والسربية — الكرواتية ، والبلغارية الحديثة[١] .

ومن هذا يظهر أن اللغات الهنــدية — الأوروبية هى أكثر اللغات الإنسانية انتشارا ، إذ يتكلم بها الآن جميع سكان أوروبا والأمريكتين وأستراليا وجنوب أفريقيا (ما عدا بعض جماعات قليلة بأوروبا تتكلم البسكية أو الفينية أو المجرية أو التركية . . . وما إلى ذلك ، وما عدا السكان الأصليين للأمريكتين وأستراليا وجنوب أفريقيا الذين الذين انقرض معظمهم ولم يبق منهم الآن إلا عدد يسير آخذ فى الانقراض) ، ويتكلم بها كذلك قسم كبير من سكان آسيا (الهند ، فارس ، أفغانستان ، الكردستان ، القوقاز الأوسط ، أرمينيا ... الخ) .

والشعوب الناطقة بهذه الفصـــيلة هى أرقى الشعوب مدنية فى العصر الحاضر ، وأعظمها نشاطاً ، وأكبرها شأناً ، وأكثرها إنتاجا فى مختلف فروع الحياة ، وأجلها أثراً فى الحضارة الإنسانية الحديثة .

ويرجع الفضل فى انتشار هذه الفصيلة إلى عوامل كثيرة أهمها الغزو والاستعمار . فعلى أثر غزو الآريين للهند انتشرت لغاتهم فى هذه البلاد وقضت على لغات السكان الأصليين (لم يبق من هذه اللغات إلا آثار ضئيلة سنعرض لها فى كلامنا عن الفصيلة الثالثة) . وعلى أثر استعمار الأوروبيين للأمريكتين وأستراليا وجنوب أفريقيا انتقلت إلى هذه المناطق اللغات الإنجليزية والإسبانية والفرنسية .

أما الموطن الأول لهذه الفصيلة فلا نكاد نعرف شيئاً يقينيا عنه ، وقد ذهب العلماء بصدده مذاهب كثيرة تعتمد فى معظم نواحيها على الحدس والتخمين وفى نواح أخرى

---

(١) أما البلغارية القديمة قبل أن يتغلب عليها اللسان الصقلبي فهى من فصيلة اللغات الفينوانية ، انظر آخرص ١٢٣ .

على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمى : فمن قائل إنها نشأت فى آسيا الوسطى بمنطقة التركستان وما إليها ، ومن قائل إنها نشأت بأوروبا الشرقية بالمناطق الروسية ، ومن قائل إنها نشأت بمناطق بحر البلطيق .

وتمتاز هذه الفصيلة بكثرة شعبها واتساع هوة الخلاف بين أفرادها . فقد انقسمت إلى الطوائف الثمان السابق ذكرها ، وانقسمت كل طائفة من هذه الطوائف إلى شعب ، وكل شعبة إلى عدد كبير من اللغات ، وسلكت كل لغة من هذه اللغات فى ارتقائها سبيلا يختلف عن سبيل غيرها ، فكثرت وجوه الخلاف بينها ، وتضاءلت وجوه الشبه ، حتى أن بعضها ليبدو غريباً عن بعض ، ولا تظهر صلة قرابته به إلا بعد تأمل عميق .

ويرجع السبب فى هذا إلى عوامل كثيرة أهمها اختلاف البيئات التى انتشرت فيها هذه الفصيلة واختلاف الشئون الاجتماعية التى اكتنفت الناطقين بكل شعبة منها .

وقد ترتب كذلك على هذه العوامل أن اختلفت كل لغة منها عما عداها فى درجة رقيها ومبلغ بعدها عن أصولها الأولى . فمنها ما لا يزال جامداً على خصائصه القديمة ، ومنها ما قطع فى زمن يسير مرحلة واسعة فى طريق الارتقاء ، ومنها ما سار فى هذه السبيل بخطى متئدة بطيئة . فانتشار الشعبة الإيرانية مثلا فى مناطق عريقة فى الحضارة ، وتأثرها باللغات التى كانت سائدة فى هذه المناطق . . . كل ذلك وما إليه قد ذلل لها وسائل الارتقاء ، فسارت فى هذه السبيل بخطى حثيثة ، حتى وصلت فى أوائل القرن الأول الميلادى إلى شأو لم تبلغ مثله اللغات الأوروبية إلا حوالى القرن العاشر . على حين أن انتشار اللغة الليتوانية مثلا فى منطقة زراعية ضيقة تغلب على أهلها صفة المحافظة على القديم ، وبقاء هذه المنطقة بمعزل عن تيارات الحضارة وعن المؤثرات الخارجية.. كل أولئك قد عاق تقدم اللغة ، فظلت محتفظة بكثير من الأشكال الأولى لفصيلتها .

وسنتكلم بتفصيل عن هذه الأمور وما يتصل بها فى الفصول التالية من الكتاب[١].

(٣) الفصيلة الثانية : الحامية ـ السامية

Langues Chamito — Sémitiques

تشمل هذه الفصيلة مجموعتين من اللغات : إحداهما مجموعة اللغات السامية ، وثانيتهما مجموعة اللغات الحامية .

(١) انظر الفصل الرابع والفصول التالية له .

أما مجموعة اللغات السامية ، فتنتظم طائفتين :

١ — اللغات السامية الشمالية وتشمل اللغات الأكادية Accadien أو الأشورية البابلية Assyro — Babyloniennes [١] ، واللغات الكنعانية (العبرية والفينيقية)[٢] واللغات الآرامية [٣] .

٢ — اللغات السامية الجنوبية وتشمل العربية [٤] واليمنية القديمة [٥] واللغات الحبشية السامية [٦] .

وأما مجموعة اللغات الحامية ، فتنتظم ثلاث طوائف :

١ — اللغات المصرية ، وتشمل المصرية القديمة والقبطية .

٢ — اللغات الليبية أو البربرية ، وهى لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا (طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والصحراء والجزر المتاخمة لها) ، فتشمل اللغات القبيلية Kabyles ، والشاوية Chaouïa (اللغات القديمة لسكان الجزائر) ، والتماشكية Tamachek (وهى اللغات القديمة لقبائل التوارج Touareg ، وهى قبائل رحالة بصحراء المغرب) ، واللغات الشِّلْحِيَّة أو لغات الشلحا أو لغات أهل الشلوح Chellouh (لغات السكان الأصليين لجنوب مراكش) ولغات زناجة Zénaga ، واللغات الجونشية Guanche (لغات السكان الأصليين لجزر قناريا Canaries ، بالمحيط الاطلانطيق ، فى الشمال الغربى من الصحراء الكبرى) . . . وهلم جرا .

٣ — اللغات الكوشيتية Couchitiques [٧] وهى لغات السكان الأصليين للقسم الشرقى من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر (ما عدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية والتى تقدم ذكرها فى المجموعة الأولى وما عدا المناطق السودانية وما إليها التى سيأتى ذكر لغاتها فى الفصيلة الثالثة) ؛

---

(١) انظر تفصيل القول فى اللغات الأكادية فى الفصل الأول من كتابنا « فقه اللغة » .

(٢) انظر تفصيل القول فى اللغات الكنعانية فى الفصل الثانى من كتابنا « فقه اللغة » .

(٣) انظر تفصيل القول فى اللغات الآرامية فى الفصل الثالث من كتابنا « فقه اللغة » .

(٤) انظر تفصيل القول فى اللغة العربية فى الفصل السادس من كتابنا « فقه اللغة » .

(٥) انظر تفصيل القول فى اللغة اليمنية القديمة فى الفصل الرابع من كتابنا « فقه اللغة » .

(٦) انظر تفصيل القول فى اللغات الحبشية السامية فى الفصل الخامس من كتابنا « فقه اللغة » .

(٧) نسبة إلى كوش Cuch وهو أحد أولاد حام (انظر سفر التكوين الإصحاح العاشر الآية السادسة وتوابعها) .

فتشمل اللغات الصومالية ولغات الجالا ، والبدجا ، ودنقله ، والأجاو ، والأفار أو الساهو ، والسيداما .. الخ Somali, Galla, Bedja, Dankali, Agaw, Afar ou Saho, Sidama ... etc. ويتكلم باللغات الكوشية كذلك نحو ثلث سكان الحبشة .

ومن هذا يظهر أن المنطقة التى تشغلها الفصيلة الحامية ـــ السامية أصغر كثيرا من المنطقة التى تشغلها الفصيلة الهندية الأوروبية . فبينما الفصيلة الهندية الأوروبية تشغل أوروبا والأمريكتين وأستراليا وجنوب أفريقيا وقسما كبيرا من آسيا ، إذ الفصيلة الحامية ـ السامية لا تشغل إلا بلاد العرب وشمال أفريقيا وجزءا من شرقيها (إلى درجة عرض ٤ جنوب خط الاستواء) . فمنطقتها لا تتجاوز عشرين مليون كيلو مترا مربعا ، بها قسم كبير صحراوى (ببلاد العرب وشمال أفريقيا) ، وعدد الناطقين بها لا يتجاوز خمسين مليوناً ، أى نحو عشر سكان أوروبا وحدها .

ولكنها تمتاز عن الفصيلة الهندية الأوروبية بأن منطقتها متماسكة الأجزاء لا يتخللها أى عنصر أجنبى .

ويتألف من الناطقين بها مجموعة شديدة التجانس تتلاقى شعوبها فى أصول واحدة قريبة ، وتتفق فى أساليب الحياة ونوع الحضارة والنظم الاجتماعية .

ويجمع بين اللغات السامية (المجموعة الأولى من هذه الفصيلة) كثير من الصفات المشتركة المتعلقة بأصول الكلمات والأصوات ومخارج الحروف وقواعد الصرف والتنظيم ... وما إلى ذلك . ـــ وقد قويت وجوه الشبه بين بعض أفرادها حتى ليحسبها الباحث مجرد لهجات للغة واحدة[١] .

أما مجموعة اللغات الحامية (المجموعة الثانية من هذه الفصيلة) ، فلا يوجد بين طوائفها الثلاث (المصرية والبربرية والكوشيتية) من وجوه الشبه والقرابة اللغوية أكثر مما يوجد بين كل طائفة منها ومجموعة اللغات السامية . فاعتبارها مجموعة متميزة هو مجرد اصطلاح لا يتفق فى شىء مع حقائق الأمور .

ولذلك عدل بعض المحدثين عن تقسيم هذه الفصيلة إلى مجموعتين ، وآثر جعلها من بادىء الأمر أربع مجموعات : السامية والمصرية والبربرية والكوشيتية[٢] .

وتختلف هذه المجموعات الأربع بعضها عن بعض اختلافا غير يسير فى كثير من

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع فى كتابنا « فقه اللغة » وخاصة فى مقدمته .

(٢) وهذا هو ما سار عليه العلامة مارسل كوهين Marcel Cohen . انظر :
Les Langues de Monde P.P. 81 — 153, en part. 83.

الظواهر . ولكن بينها ، على الرغم من ذلك ، من وجوه الشبه والقرابة اللغوية مايسمح بجعلها فصيلة واحدة مقابلة للفصيلة الهندية الأوروبية .

هذا ، وقد تغلبت مجموعة اللغات السامية على المجموعات الثلاث الأخرى واحتلت كثيراً من مناطقها . فاللغات القبطية والبربرية قد انهزمت أمام اللغة العربية ولم يبق منها الآن إلا فلول ضئيلة (١) ، وكذلك كانت نهاية الكوشيتية فى صراعها مع اللغات السامية : فقد احتلت اللغات السامية معظم مناطقها ، ولم يبق الآن من اللغات الكوشيتية إلا بعض لهجات قليلة فى بلاد الحبشة وفى المناطق المتاخمة لها.

وقد اشتبكت اللغات السامية نفسها فى صراع بعضها مع بعض . وأول صراع حدث بينها كان صراع الآرامية مع اللغات الأكادية والكنعانية . فقد اشتبكت فى صراع مع الأكادية أولا وقضت عليها فى أوائل القرن الرابع ق م . ثم صرعت العبرية فى أواخر الرابع ق م ، وتغلبت على الفينيقية بآسيا فى القرن الأول ق م . والصراع الثانى كان صراع العربية مع أخواتها فقد اشتبكت فى صراع مع اللغات اليمنية القديمة وقضت عليها قبيل الإسلام . ولم يفلت من هذا المصير إلا بعض مناطق متطرفة نائية ساعد انعزالها وانزواؤها على نجاتها ، فظلت محتفظة بلهجاتها القديمة حتى العصر الحاضر . ثم اقتحمت العربية على الآرامية معاقلها فى الشرق والغرب وانتزعتها منها معقلا معقلا حتى تم لها القضاء عليها حوالى القرن الثامن الميلادى . ولم يفلت من هذا المصير إلا بعض مناطق جبلية منعزلة لاتزال تتكلم اللهجة الآرامية إلى العصر الحاضر (٢). وامتد أثر العربية إلى الأمم الآرية والطورانية التى اعتنقت الدين الإسلامى (الفرس الهنود ، الأتراك . . . الخ) فاحتلت لديها مكانة مقدسة سامية ، وتركت آثاراً عميقة فى كثير من لغاتها ، فاتسعت بذلك مناطق نفوذها حتى بلغ عدد الناطقين بها والمتأثرين بسلطانها نحو اربعمائة مليون من سكان المعمورة (٣).

---

(١) لاتزال البربرية إلى الوقت الحاضر لغة حديث بين كثير من القبائل المغربية وخاصة فى مراكش وفى بعض الواحات التابعة لطرابلس وغيرها . ومن هذه الواحات واحة «أوجلة» الواقعة عند حدود برقة من الجنوب ، فان أهلها من البربر ولا يزالون يتكلمون البربرية إلى اليوم .

(٢) انظر تفصيل هذه الموضوعات جميعها فى كتابنا « فقه اللغة » .

(٣) يبلغ عدد المسلمين فى العالم حسب أحدث إحصاء ٤٠٠ مليون وتبلغ نسبتهم إلى مجموع سكان العالم البالغ عددهم ٢١٧٠ مليونا ١٨,٥ ٪ . ومنهم بأفريقيا ٦٨ مليونا (٤٠ ٪ من مجموع سكانها) وفى آسيا ٣١٨ مليونا (٢٧ ٪ من مجموع سكانها) وفى أوروبا ١١ مليونا (٢ ٪ من مجموع سكانها) وفى الأمريكتين جاليات إسلامية لا يزيد عددها على ثلاثة ملايين (واحد وكسور فى المائة من مجموع سكانهما البالغ ٢٧٢ مليونا) .

(٤) الفصيلة الثالثة : اللغات الطورانية

Langues Touraniennes

أطلق مكس مولر وبونسن Bunsen [١] اسم « اللغات الطورانية » على طائفة من اللغات الأسيوية والأوروبية التى لاتدخل تحت فصيلة من الفصيلتين السابقتين ، كالتركية والتركمانية والمغولية والمنشورية والفينية وهلم جرا ؛ وتابعهما فى ذلك كثير ممن جاء بعدهما .

فاللغات الطورانية ليست إذن فصيلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى مجموعة ترجع إلى أصول واحدة ويجمع بين أفرادها صلات تشابه وقرابة ، بل هى أمشاج من لغات لايؤلف بينها إلا صفة سلبية وهى عدم دخولها فى إحدى الفصيلتين السابقتين — هذا إلى أن القائلين بها لم يدخلوا تحتها جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين المذكورتين ، بل قصروها على طائفة منها وهى بعض اللغات الأسيوية والأوروبية .

فهذا قسم غير قائم على أساس وغير شامل لما بقى من لغات العالم .

ولذلك عدل المحدثون من علماء اللغة عن استعمال كلمة « اللغات الطورانية [٢] » ؛ وعمدوا إلى ما بقى من اللغات الإنسانية خارجا عن الفصيلتين السابقتين فقسموه إلى فصائل يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات تشابه وقرابة لغوية ، فتتفق فى أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل ، ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة ويؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

وأحدث نظرية بهذا الصدد هى ما ذهبت إليها « جمعية علم اللغة بباريس Société de Linguistique de Paris » فى موسوعتها « لغات العالم «Les Langues du Monde» إذ قسمت ، على الأسس السابق ذكرها ، جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين الحامية — السامية ، والهندية — الأوروبية إلى تسع عشرة فصيلة ، وهى :

---

(١) انظر التعليق الأول بصفحة ١١٤ .

(٢) ذهب هذا المذهب من القدامى أنفسهم العلامة رينان . فعلى الرغم من موافقته مكس مولر (الذى كان معاصرا له) فى كثير من آرائه ، فانه قد رفض الأخذ بنظريته بصدد اللغات الطورانية ، ووجه إليها نقداً لاذعا فى كتابه أصول اللغة . V. Renan : L'Origine du Langage p. p. 40 et suive.

١ — فصيلة اللغات اليابانية .

٢ — « فصيلة اللغات الكورية Coréen » (لغات سكان شبه جزيرة كوريا التابعة لليابان والواقعة بين بحر اليابان والبحر الأصفر) .

٣ — لغة الأينو La Langue Aïou . — ويتكلم بها الآن نحو عشرين ألفاً من سكان جزيرة هوكادو Hokkado وجزيرة ساكهالين Sakhaline وجزيرة شيكوتو Shikotau (وكلها تابعة لليابان) .

ولم تثبت صلة قرابة بين هذه اللغة وأية لغة من اللغات الحية ولذلك عدت فصيلة على حدتها .

٤ — « فصيلة اللغات الصينية ـ التبتية » ، وتشمل اللغات الصينية الأصلية ولهجاتها والتبتية Tibétain ، والبرمانية Birman ، والسيامية Siamois (لغة سيام) .

٥ — « فصيلة اللغات الأسترالية الإسيوية » (التى يتكلم بها القسم الإسيوى الجنوبى المتحدر إلى أستراليا) ، وتطلق على ثلاث شعب : شعبة اللغات الأنامية (لغة سكان أنام من الهند الصينية) ؛ وشعبة اللغات الموندية Langues Mounda أو الكولارية Kolariens (من أقدم لغات الهند ، بل من أقدم اللغات الإنسانية جميعها ، ويتكلم بها الآن نحو مليونى نسمة من الهنود ، ومنطقتها فى الجزء الجنوبى من الهند) ؛ وشعبة اللغات المونكهميرية Les Langues Mon - Khmer (ويدخل فيها المنية Le Mon والكهمرية Khmer أو الكمبدجية Cambodgien والتشامية Tcham . ويتكلم بهذه اللهجات بمنطقة أسام Assam وما إليها) .

٦ — فصيلة االغات الدرافيدية Dravidienne (لغات بعض الشعوب التى كانت تقطن جنوب بلاد الهند قبل أن يهاجر إليها الآريون . وتشمل التامولية Tamoul والكانارية Kanarais وغيرهما) .

٧ ، ٨ — اللغات القوقازية (ولا يطلق هذا الاسم فى اصطلاح علماء اللغة على جميع اللغات القوقازية ، بل على مجموعة خاصة منها ، وهى اللغات القوقازية ، التى ليست سامية ، ولا هندية ـ أوروبية ، ولا أورالية ـ ألتائية) ، وتشمل فصيلتين لم تثبت بعد صلات القرابة بينهما بشكل قاطع ، [١] ولذلك عددناهما فصيلتين لا فصيلة واحدة ، وهما : « فصيلة اللغات القوقازية الشمالية » (وتشمل السامورية Samourien ، والأرتسية

---

(١) V. Langues du Monde p. p. 327 et suiv

Artsi والأديغية Adeghé . . . وغيرها) ؛ و « فصيلة اللغات القوقازية الوسطى » (وتشمل الجيورجية Géorgien ، واللازية Laze . . . وغيرهما) .

٩ — « فصيلة اللغات الأسيوية القديمة » Langues propres de l'Asie antérieure ancienne . — يطلق هذا الاسم فى عرف علماء اللغة على بعض لغات أسيوية قديمة غير سامية ولا هندية ـ أوروبية ، كان يتكلم ببعضها فى مملكة ميزوبوتاميا Mésopotamie (مملكة قديمة كانت تقع بين دجلة والفرات) وببعضها فى آسيا الصغرى وفى المناطق المتصلة بها من حوض البحر الأبيض المتوسط وفى بعض أجزاء من إيطاليا [١] .

ومن أهم لغات هذه الفصيلة اللغة السومرية Sumérien ، وهى لغة غير سامية ولا هندية — أوروبية ، كان يتكلم بها شعب مجهول الأصل كان يسكن حوض الفرات الأدنى بقرب خليج فارس ، أى فى المنطقة التى احتلتها فيما بعد الشعوب السامية الأشورية والبابلية ونشرت فيها لغاتها الأكادية (شعبة من اللغات السامية ، وتسمى كذلك شعبة اللغات الأشورية — البابلية [٢]) .

ويرجع الفضل فى الوقوف على اللغة السومرية إلى ماعثر عليه أخيراً من آثارها مكتوبا بالخط المسمارى . وتتألف هذه الآثار من وثائق هامة بعضها أدبى — لغوى (شعر ، قواعد ، بحوث لغوية . . . الخ) ، وبعضها علمى (فلك ، طبيعة . . . الخ) وبعضها اجتماعى — تاريخى (يعرض للشئون الاقتصادية والقضائية والسياسية والإدارية والدينية والأسطورية والتاريخية . . . وهلم جرا) .

١٠ — فصيلة اللغات التركية والمغولية والمنشورية .

١١ — فصيلة اللغات الفينية Finnois والأجْرية Ougriennes والسامويدية Samoyèdes (ويتكلم بهذه اللغات فى الحوض الأوسط لنهر الفولجا Volga) . ـ ويدخل فى الفينية اللغات الفنلندية والأستونية والبلغارية القديمة [٣] وغيرها . ـ ويدخل فى الأجرية

(١) انتقلت هذه اللهجات إلى ايطاليا على إثر هجرة بعض الشعوب إليها من آسيا الصغرى . — وأشهر اللغات الايطالية القديمة التى تعد من هذه الفصيلة هى اللغة الاتروسكية Etrusque التى كان يتكلم بها الاتروسكيون Etrusques أو الرازينيون Rasennes (وهم سكان المنطقة المسماة قديما إتريريا Etrurie) .

(٢) انظر أول صفحة ١١٨ ؛ وانظر تفصيل الكلام فى اللغتين الأكادية والسومرية بالفصل الأول من كتابنا « فقه اللغة » .

(٣) قد انقرضت هذه اللغة وحل محلها لسان صقلبي كما سنذكر ذلك فى الفصل الرابع : صراع اللغات .

في الفينية اللغات اللابونية Lapons (لا تزال لهذه اللغات بقايا فى السويد والنرويج وغيرهما) واللغات الهنغارية . . . وغيرها . ـ وتنشعب الساموييدية إلى الأستياكية Ostiak واليوراكية Yourak والتاجفوية Tavgui وغيرها .

هذا ، وقد كان القدامى من علماء اللغة يجمعون معظم أفراد الفصيلة العاشرة والحادية عشرة تحت فصيلة واحدة كانوا يسمونها الأورالية — الألتائية Ouralo-Altaïque أوالطورانية . ـ ولكن ظهر للمحدثين فساد هذا المذهب ، وتبين لهم أن كلتا المجموعتين مستقلة عن الأخرى .

١٢ — لغة الباسك Basque أو الأسكارا Euskara . ويتكلم بها الباسكيون ، وهو شعب يقطن منطقة جبال البرانس الغربية فى العدوتين الإسبانية والفرنسية ، بمناطق بيسكاى Biscaye وألافا Alava وجويبوزكوا Guipuzcoa ونافار Navare (بإسبانيا) ، وبمناطق بيون Bayonne ومو ليون Manléon بفرنسا .

ويدل الإحصاء الذى عمله الأستاذ لويس — لوسيان بونابرت Louis - Lucien Bonaparte عام ١٨٧٣ أن عدد المتكلمين بهذه اللغة يبلغ نحو ٦٦٠ الفا فى أسبانيا ونحو ١٤٠ الفا فى فرنسا . ـ ولكن ليس من شك فى أن منطقة اللغة الباسكية ، وبخاصة منطقتها الإسبانية ، كانت قديماً أوسع كثيراً مما يرشد إليه هذا الأحصاء ، وقد ضاقت الآن عما كانت عليه عام ١٨٧٣ لتغلب اللغتين الفرنسية والإسبانية على بعض أجزائها ، وخاصة فى إقليم نافار Navarre .

هذا ، وقد هاجر إلى أمريكا عقب كشفها بعض أسرات من الباسكيين فانتشرت لغتهم فى المناطق التى حلوا بها . ولاينفك يتكلم بها الآن بضعة آلاف من أعقابهم ، وتصدر بها بعض صحفهم ومجلاتهم .

١٣ — اللغات الهيبيربورية Hyperboréennes أو لغات أقصى الشمال ، وهى لغات سيبيريا وما إليها من أقاليم المنطقة المتجمدة الشمالية . ـ وتشمل هذه الفصيلة اللغة اليوكاجيرية Youkagir التى يتكلم بها فى القسم الغربى من هذه المنطقة ؛ والتشوكتشية Tchouktche التى يتكلم بها نحو عشرة آلاف يقطنون سيبيريا شمالى نهر أنادير Anadyr ؛ والكورياكية Koryak التى يتكلم بها فى المنطقة المحصورة بين نهر أنادير وشبه جزيرة كمتشاتكا Kamtchatka ؛ والكمتشادالية Kamtchadal التى يتكلم بها نحو الفين يقطنون شبه جزيزة كمتشاتكا وجزر كوريل Kouriles ؛ والجيلياكية Guiliak التى يتكلم بها فى

شمال جزيرة ساكهالين Sakhaline وفى الحوض الأدنى لنهر آمور Amour .

١٤ — اللغات الملايوية ـ البولينيزية Malayo-Polynésiennes . ويتكلم بهذه الفصيلة فى طائفة كبيرة من جزر المحيطين الهندى والهادى تبدأ شرقاً بجزيرة مدغشقر (٤٠ درجة طول شرقى باريس) وتنتهى غرباً بجزيرة باك Paques (١١٠ درجة طول غربى باريس) ، وتمتد من درجة عرض ٥٠ جنوب خط الاستواء إلى درجة عرض ٣٠ شماليه . فمنطقة هذه الفصيلة تشغل نحو ٢١٠ درجات طول وثمانين درجة عرض .

وتشمل هذه الفصيلة خمس شعب لغوية وهى :

شعبة اللغات الأندونيسية Indonésiennes ، وهى التى يتكلم بها بجزر أندونسيا : جزر الفيليبين ، وسيليب ، وبرنيو ، وجاوة ، وسومطرة ، ومادورا ، ومدغشقر . . . الخ ؛

وشعبة اللغات الميلانيزية Mélanesiennes ، وهى التى يتكلم بها فى جزر ميلانيزيا (جزر سليمان ، وسانت كروز ، وتوريس ، وهابريد الجديدة ، ولويالتى ، وفيدجى ... الخ) ؛

وشعبة اللغات الميكرونيزية Micronésiennes ، وهى التى يتكلم بهـــا فى جزر ميكرونيزيا (جزر جلبرت ، ومرشال ، وكارولين ، وماريان . . . الخ) ؛

وشعبة اللغات البولينيزية Polynésiennes ، وهى التى يتكلم بها فى جزر بولينيزيا (جزر ساموا ، وكوك ، وتاهيتى أو جزر الشركة ، وپوموتى ، وتونجا ، ومنجاريفا ، وباك ، وزيلندا الجديدة . . . الخ) ؛

وشعبة لغات الپاپو Langues Papoues ، وهى اللغات التى يتكلم بها فى غينا الجديدة Nouvelle Guinée والجزر المجاورة لها .

١٥ — لغات سكان أستراليا الأصليين .

١٦ — اللغات الأمريكية . ويتكلم بها سكان أمريكا الأصليون (الهنود الحمر ومن إليهم) . — وكان يبلغ عـددهم حينما كشفت أمريكا حوالى ٤٠ مليوناً (أى بنسبة ساكن واحد تقريباً فى كل كيلو متر مربع) ؛ ثم أخذ عددهم يتناقص شيئاً فشيئاً حتى هبط فى أوائل القرن العشرين إلى حوالى ١٥,٥ مليوناً (أى بنسبة ساكن واحد فى كل ٢,٥ كيلو متر مربع) ؛ منهم نحو نصف مليون فى الولايات المتحدة وجرونلاند ، ونحو ٦,٥ مليون بأمريكا الوسطى (المكسيك ، وهوندراس ، وكوستاريسا ، وبنما ، ونيكاراجا ، وجواتيمالا ، وسلفادور) ، ونحو ٨,٥ مليوناً بأمريكا الجنوبية .

وقد كان لتخلخل السكان فى هذه المنطقة أثر كبير فى تعدد لغاتها . فقد بلغت ،

حسب إحصاء العلامة ريفيه Rivet [١]، ١٢٣ شعبة : منها ٢٦ بأمريكا الشمالية و٢٠ بأمريكا الوسطى و٧٧ بأمريكا الجنوبية .

ومن أشهرها بأمريكا الشمالية لغات الإيروكويين Iroqnois ، والألجنكويين Algonkins ، والإسكيمو Esquimaux ، والسيو Siou ؛ وبأمريكا الوسطى لغات الأموسجو Amosgo ، والكويكاتك Kuikatek ، واللنكا Lenka ، والميا Maya ، والميسكيتو Miskito ؛ وبأمريكا الجنوبية لغات الألاكالوف Alakaluf ، والأروكان Aroukan ، والأراواك Arawak ، والأتاكاما Atakama ، والكاريب Karib ، والإيتوناما Itonama .

هذا ، ولم تظهر بعد بشكل قاطع صلة قرابة لغوية أوصفة مشتركة تربط هذه الشعب بعضها ببعض . فالفصيلة التى نحن بصدد الكلام عنها هى إلى الفصيلة الجغرافية أدنى منها إلى الفصيلة اللغوية .

١٧ — لغات السودان وغانة[٢] . ـ وهى لغات غير سامية ولا حامية تتكلم بها جماعات كثيرة من زنوج السودان وسكان غانة . وقد قسمها العلامة موريس ديلافوس Maurice Delafosse إلى ٤٣٥ لغة ترجع إلى ست عشرة شعبة[٣] : منها الشعبة النيلية التشادية Nilo-tchadien (يتكلم بها فى المنطقة المحصورة بين أسوان شمالا وفاشودة جنوبا ، وتشتمل على ثلاثين لغة من أشهرها لغات النوبة ، والباريا ، والتوبو ، والميمى ، والكوناما . . . الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية — الأبيسينية (يتكلم بها فى الحوض الأوسط للنيل الأزرق وفى حوض النيل الأبيض وبحر الجبل ، وتشتمل على خمس عشرة لغة من أشهرها لغات الشيلوك ، والدنكا ، والديور ، والجاميلا ، والدوكو . . . الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية ـ الاستوائية (يتكلم بها فى جنوب المنطقة السابقة ، وتشتمل على ست وعشرين لغة من أشهرها لغات البارى ، واللاتوكا ، والليرى ، والكافيروندو ، والتاتورو . . . الخ) ؛ وشعبة لغات كردوفان (يتكلم بها فى منطقة كردوفان ، وتشتمل على عشر لغات منها لغات التالورى ، واللافوفا ، والتومتوم ، والكاندرما . . . الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية ـ الكونغوية ؛ وشعبة اللغات البنغالية ـ الغانية ... وهلم جرا .

---

(١) V. Rivet, dans : Les Langues du Monde p. p, 597-713

(٢) هى الجزء الغربى من أفريقيا المحصور بين سنغمبيا شمالا والكنغو جنوبا والواقع على سواحل خليج غانة .

(٣) V. Maurice Delafosse, dans : “Les Langues du Monde” p. p. 463-561

١٨ — اللغات البنطوية Langues Bantou .- ويتكلم بها سكان القسم الجنوبى من أفريقيا فى منطقة واسعة على شكل مثلث ينطبق رأسه على رأس الرجا الصالح ، ويمتد ضلعه الأيمن على الساحل الشرقى لأفريقيا حتى بلاد الصومال [١] ، وضلعه الأيسر على الساحل الغربى حتى مدينة دوالا Douala ببلاد الكمرون[٢] ، وتتجه قاعدته من بلاد الصومال إلى المحيط الاطلانطيق مارة بشمال أوغندة والكنغو . وكل الشعوب التى تقطن هذا المثلث تتكلم البنطوية ماعدا قبائل الهوتنتوت والبوشيمان والنيجريين التى سيأتى ذكرها فى الفصيلة التاسعة عشرة .

وتشتمل هذه الفصيلة على لغات كثيرة من أشهرها لغات السوثو Sotho ، والسواحلى Swahili ، والدوالا Douala ، والجندا Ganda ، والجالوا Galoa ، والتونجا Tonga .

هذا ، وقد كان العرب على اتصال بأهل زنجبار منذ عصور سحيقة ولذلك عنوا بدراسة لغتهم (المسماة السواحلية Swahili) ودونوها بحروف عربية . وعن طريقهم وصلنا كثير من تفاصيل هذه اللهجة . أما اللغات الأخرى من هذه الفصيلة فقد عنى بدراستها كثير من أعضاء الإرساليات الدينية فى هذه المنطقة ، ودونوها بحروف لاتينية ، مع بعض علامات لتمييز الأصوات الخاصة بها .

١٩ — لغات البوشيمان والهوتنتوت والنيجريين Boschimans, Hottentotes Négrilles وهى من القبائل الأفريقية الجنوبية : تقطن أولاها الغابات الاستوائية والمناطق الصحراوية ، ولا يتجاوز عدد أفرادها الآن خمسين ألفاً ؛ وتقطن ثانيتها منطقة محصورة بين خط عرض ٢٤ جنوب خط الاستواء والحوض الأدنى لنهر الأورانج وبعض أجزاء من مستعمرة الكاب ، ولا يتجاوز عدد أفرادها الآن ربع مليون يتألف معظمهم من عشائر الناما Nama [٣] ، وتتألف ثالثتها من أقزام يقطنون الغابات الاستوائية .

* * *

(١) الغاية هنا خارجة ، فلغات الصومال من الشعبة الكوشيتية (إحدى شعب الفصيلة السامية — الحامية) كما تقدم ، انظر آخر ص ١١٨ وأول ص ١١٩ .

(٢) الغاية هنا داخلة ، فلغة دوالا من أهم لغات هذه الفصيلة .

(٣) كانت عشائر الهوتنتوت تقطن قديما منطقة واسعة جنوب نهر زمبيزى ، ثم أخذت هذه المنطقة تضيق شيئا فشيئا تحت تأثير غارات البنطويين من الشمال والأوروبيين من الجنوب حتى انحصرت فى الحدود التى وصفناها .

هذا ، ولما كانت هـــذه الفصائل ممثلة للقسم البدائى أو الذى وقف نموه من لغات بنى الإنسان ، فأهميتها النسبية أقل كثيراً من أهمية الفصيلتين السابقتين (الهندية - الأوروبية ، والحامية - السامية) ؛ ولما كان المقام ، من جهة أخرى ، لا يتسع فى عجالة كهذه للكلام عنها وعن خصائص كل منها [١] ؛ ولأن الباحثين ، من جهة ثالثة ، لم يصلوا بعد فى دراسة معظمها إلى نتائج ذات بال ؛ لهذا كله آثرنا أن نقتصر على ماسبق ذكره بصددها ، ونقف الجزء الباقى من هذا الفصل على تكملة البحث فى الفصيلتين الهندية - الأوروبية والحامية - السامية .

(٥) بعض ما تختلف فيه الفصيلتان السامية والهندية - الأوروبية

تمتاز كل من هاتين الفصيلتين عن الأخرى بخواص كثيرة من أهمها ما يلى [٢] :

١ — تتألف أصول الكلمات فى اللغات السامية فى الغالب من ثلاثة أصوات ساكنة (أحرف ساكنة [٣]) مختلفة . ففى اللغة العربية مثلا ترجع جميع الكلمات التى فيها معنى القتل إلى أصل ثلاثى مؤلف من ثلاثة أصوات ساكنة هى قْ تْ لْ . — ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا بعض الحروف والضمائر وبعض أسماء الشرط والموصول وقليل من أسماء الذوات (يد ، دم) ومن الأفعال (قال ، وعد ، تمّ ، ردّ [٤]) .

(١) حاولت جمعية علم اللغة بباريس Société de Linguistique de Paris تحت إشراف الأستاذين ميية Meillet ومارسل كوهين Marcel Cohen ، أن تعرض فى كتابها « لغات العالم Les Langues du Monde » بحثا موجزا فى هذه الفصائل التسع عشرة فاستغرق بحثها هذا نحو ستمائة صفحة من القطع الكبير (من ١٥٣ — ٧١٣) . وقد اشترك فى تحريره طائفة من أئمة الأخصائيين فى هذه اللغات .

(٢) وقف العلماء على هذا الموضوع مجلدات ضخمة ، من أحسنها وأقربها مأخذا فى اللغات الهندية — الأوروبية كتاب الأستاذ ميية : Meillet : Introduction à l'étude comparative des langues Indo — Européennes ويقع فى نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير ؛ وفى اللغات السامية كتاب العلامة رينان Renan : Histoire générale des langues Sémitiques ويقع كذلك فى نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير . وقد عرضت جمعية علم اللغة بباريس للفصيلتين معا فى كتابها « لغات العالم » فى نحو مائة وخمسين صفحة (١ — ١٥٣) .

(٣) الحرف هو ما يرمز إلى الصوت فى الكتابة . فاستعمال كلمة أصوات فى هذا المقام أدق من استعمال كلمة حروف ، ونريد بالساكنة ما يقابل اللينة .

(٤) انظر تفصيل هذا الموضوع فى مقدمة كتابنا « فقه اللغة » . هذا ، وأما الكلمات التى تبدو رباعية الأصول فى العبرية والعربية فهى متفرعة فى الحقيقة عن أصول ثلاثية دحرج مثلا متفرعة عن درج ، على الرغم من أن علماء الصرف يعتبرون جميع أصواتها أصيلة .

وهذه الأصول لا توجد مستقلة فى اللغات السامية . فالأصل الدال على معنى القتل فى اللغة العربية مثلا وهو قْ تْ لْ لا يوجد مستقلا فى هذه اللغة ، بل لا يمكن النطق به .
والأصوات التى يتألف منها أصل ما توجد مرتبة ، حسب ترتيبها فى هذا الأصل ، فى جميع الكلمات المشتملة على معناه العام . فالأصوات الثلاثة ق ت ل التى يتألف منها الأصل الدال على معنى القتل ، توجد مرتبة بالشكل السابق فى جميع الكلمات المشتملة على هذا المعنى : قتل ، قاتل ، قتال ، قتيل . . . الخ .
واشتمال الكلمة على أصوات أصل ما لا يدل على أكثر من تضمنها للمعنى العام لهذا الأصل .

أما ما عدا المعنى العام فيشار إليه بأصوات مد طويلة (ألف ، ياء ، واو . . . الخ) أو قصيرة (فتحة ، كسرة ، ضمة) تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . فنوع الكلمة (كونها اسما أو فعلا أو حرفا ، اسم فاعل أو اسم مفعول ، متعدية أو لازمة ، مفردة أو مثنى أو جمعاً . . . الخ) وزمنها (حدث معناها فى الماضى أو يحدث فى الحال أو فى الاستقبال) ووظيفتها فى الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافاً إليه أو حالا أو تمييزاً . . . الخ) ... كل ذلك وما إليه تدل عليه فى اللغات السامية أصوات مد طويلة أو قصيرة تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . وأصوات المد الطويلة هى التى يرمز إليها فى الكتابة العربية بحروف اللين الثلاثة (الألف والياء والواو) ، والقصيرة هى التى يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة . فبضم القاف وكسر التاء وفتح اللام فى « قُتِلَ المجرم » مثلا ، تدل الكلمة على فعل قتل حدث فى زمن مضى ومسند للمفعول . وبمد القاف بالألف وكسر التاء وإبقاء اللام ساكنة فى « قَاتِلْ الذى يقاتلك » ، تدل الكلمة على أمر المخاطب بإجراء القتل فى صورة متبادلة مع غيره . وبفتح القاف ومد التاء بالياء وكسر اللام فى « هذا دم القتيل » ، تدل الكلمة على شخص وقع عليه القتل ومنسوب إليه (مضاف إليه) شىء آخر . وبفتح القاف وإبقاء التاء ساكنة ومد اللام بالألف فى « هؤلاء قتلى الحرب » تدل الكلمة على عدة أفراد وقع عليهم القتل . . . وهلم جرا .

وقد يصحب هذا أحيانا أصوات جديدة تسبق أصوات الأصل الثلاثة أو تتخللها أو تلحقها للدلالة على معان خاصة فى الكلمة . فبزيادة ميم محركة بالفتح قبل أصوات الأصل ونون ساكنة فى نهاية الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وفتح التاء واللام فى

« أصاب مقتلا (مَـقْـتَـلَـنْ) » تدل الكلمة على عضو نـكرة تؤدى إصابته إلى القتل وقد وقع عليه الفعل المعبر عنه فى الجملة . وبزيادة ياء مفتوحة قبل أصوات الأصل وتاء مفتوحة بعد القاف ونون مفتوحة فى آخر الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وكسر التاء ومد اللام بالواو فى « القوم يقتتلون » تدل الكلمة على فعل يحدث فى الحال أو فى الاستقبال فى صورة متبادلة بين طائفتين من الذكور الآدميين .

ومما تقدم يتضح أن للأصوات الساكنة (ونعنى بها ما عدا أصوات المد) فى اللغات السامية أهمية تزيد كثيراً على أهمية أصوات المد . فالمعنى الأساسى للكلمة يشار إليه غالبا بالأصوات الساكنة ، أما أصوات المد فلا تعدو وظيفتها فى الغالب تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهات خاصة . هذا إلى أن الأصوات الساكنة تنال فى اللغات السامية أكبر قسط من عناية المتكلم ، وهى لذلك أوضح فى الجرس من أصوات المد وأظهر منها فى السمع . وقد سرت أهمية الأصوات الساكنة فى الدلالة والنطق إلى الرسم نفسه. فأهم ما يعنى الرسم السامى بإظهاره هى الأصوات الساكنة ، أما أصوات المد فيغفل بعضها إغفالا تاما ، ويشير إلى بعضها بالشكل ويرسم بعضها رسما مضطربا غير دقيق . وهذا فى الرسم الحديث . أما الأشكال القديمة للرسم السامى فكانت تغفل جميع أصوات المد .

* * *

أما اللغات الهندية — الأوروبية فتختلف عن اللغات السامية - الحامية فيما يتعلق بأصول الكلمات من أربعة وجوه : أحدها أن أصول الكلمات الهندية - الأوروبية ليست متحدة فى عدد أصواتها كما هو شأن الأصول السامية بل تختلف فى ذلك اختلافا كبيراً ، فمنها الثنائى ومنها الثلاثى ومنها الرباعى . . . وهلم جراً . وثانيها أن أصول الكلمات الهندية الأوروبية ليست مؤلفة من أصوات ساكنة فحسب كما هو شأن الأصول السامية ، بل تختلط فيها الأصوات الساكنة باللينة . وثالثها أن أهمية الأصوات الساكنة لا تزيد فى اللغات الهندية - الأوروبية عن أهمية الأصوات اللينة لا فى الدلالة ولا فى النطق ولا فى الرسم كما هو الشأن فى اللغات السامية . ورابعها أن الأصل الدال على المعنى العـام للكلمة هو نفسه بمنزلة كلمة مستقلة يمكن فصلها والنطق بها على حدة [1] . وقد يتحقق

(١) V. Renan : Langues Sémitiques 455 et suiv.; Meillet : Introduction....etc 115-122.

أحيانا هذا الفصل فى الواقع فيبقى الأصل فى الكلمة مجرداً من كل عنصر آخر [١]. ـ على أنه فى حكم الثابت أن جميع أصول الكلمات الهندية الأوروبية كانت فى عصورها الأولى ـ إذ كانت اللغة غير متصرفة [٢] ـ تستخدم وحدها عارية من كل زيادة [٣].

ويشير الأصل فى الكلمة الهندية - الأوروبية إلى معناها العام.

أما ماعدا ذلك، فيشار إليه بالعلامات الآتية [٤]:

ا ــ أصوات تلحق الأصل فتدل على نوع الكلمة (كونها اسماً أو فعلا أو حرفا اسم فاعل أو مفعول ... الخ) وتسمى هذه الأصوات «باللاحقة» Suffixe. وأصل الكلمة مع لاحقتها يسميان مادة الكلمة Thème.

وقد يتصل بالأصل أكثر من لاحقة واحدة للدلالة على عدة معان فى الكلمة من هذا القبيل. وقد تعرو الكلمة من اللواحق، ولكن تجردها منها يشير هو نفسه إلى معنى خاص فيها.

ب ــ أصوات تأتى عقب اللاحقة فتختتم بها الكلمة لتعيين وظيفتها فى الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه ... الخ) وزمنها (ماضيا أو مضارعا ... الخ) ونوع إسنادها (كونها مسندة إلى المتكلم أو المخاطب أو الغائب .. الخ) ودلالتها على مذكر أو مؤنث، مفرد أو مثنى أو جمع ... وهلم جرا. وتسمى هذه الأصوات «بالخاتمة» Désinence [٥].

ولا يلحق الأصل أكثر من خاتمة واحدة. وقد تتجرد الكلمة من «الخواتم»، ولكن تجردها يشير هو نفسه إلى معنى خاص فيها. فتجرد الفعل مثلا من الخاتمة يدل، فى بعض اللغات الهندية ـ الأوروبية (ومنها الانجليزية والفرنسية) على أمر مسند للمفرد المخاطب Aime , Love.

وقد تتجرد الكلمة من اللاحقة والخاتمة فيبقى الأصل عاريا من كل زيادة. ولكن تجرده هذا يدل هو نفسه على معنى خاص فيه.

حـ ــ أصوات تسبق الأصل فتلصق بالكلمة فى مبدئها للدلالة على معان من

---

(١) Meillet op. eit. 120

(٢) انظر معنى هذه الكلمة بأول صفحة ٨٨.

(٣) Meillet, op. cit. 119. 120.

(٤) انظر فى هذه العلامات وما يتصل بها Meillet op. cit. 115 - 122.

(٥) ليست كلمة «الخاتمة» بترجمة لكلمة Désinence، بل هى كلمة من اصطلاحنا لتسهيل التسمية.

نوع المعانى التى تدل عليها الأصوات اللاحقة السابق ذكرها . وتسمى هذه الأصوات « بالسابقة » Préfixe .

ء — أصوات لين طويلة أو قصـــيرة a, e, é, è, ê, i, o, ô, y, oi, ei, eau, au ui . . . etc ، تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها على نحو ماتقدم شرحه فى اللغات السامية .

هـ — شكل النطق بمختلف أجزاء الكلمة . فى بعض اللغات الهندية ـ الأوروبية يتغير معنى الكلمة بتغير طريقة النطق بأجزائها . فنى الانجليزية مثلا تتردد بعض الكلمات بين الاسمية والفعلية تبعا لطريقة النطق بها : فإذا ضغط فى النطق على جزئها الأول كانت اسماً ، وإذا ضغط على جزئها الأخير كانت فعلا :

The object of our book is ....

I object against this theory ....

و — موقع الكلمة فى الجملة . فى بعض اللغات الهندية ـ الأوروبية لايتميز الفاعل من المفعول إلا بتقديمه فى الجملة Pierre bat Paul .

* * *

وتختلف اللغات الهندية ـ الأوروبية فى مبلغ استخدامها لهذه العلامات الست . فمن اللغات الهندية ـ الأوروبية مايستخدم جميع هذه العلامات ، ومنها مالايستخدم إلا بعضها ، ومنها مايستخدم بعضها بكثرة ولا يلجأ لبعضها الآخر إلا نادراً . وإليك مثلا العلامات التى سميناها « السابقة » (رقم حـ) ؛ فهى لاتوجد فى كثير من اللغات الهندية ـ الأوروبية القديمة ، على حين أنها تكثر فى الحديثة منها كالانجليزية والفرنسية وما إليهما Understand, Comprendre .

٢ — لاتكاد توجد فى اللغات السامية كلمات تشتمل على أكثر من أصل واحد ، على حين أن هذا النوع يكثر فى اللغات الهندية ـ الأوروبية ، وبخاصة الحديث منها . وكل كلمة من هذا القبيل تدل على معنى مركب من معانى الأصول التى تشتمل عليها (١) .

٣ — ليس للفعل فى معظم اللغات السامية إلا زمنان : فعل انتهى زمنه (ماض)

---

(١) توجد هذه الظاهرة فى اللغات السامية فى بعض كلمات قليلة معظمها حديث النشأة ، ومن ذلك ما يسمونه بالكلمات المنحوتة : تلاشى (أصبح لاشىء) حمدل (قال الحمد لله) بسمل (قال بسم الله) طلبق (قال أطال الله بقاءك) . . . الخ . — انظر تفصيل هذا الموضوع بكتابنا « فقه اللغة » ص ١٤٩ وتوابعها .

وفعل لم ينته زمنه (مضارع للحال أو الاستقبال وأمر) [١] على حين أن له فى اللغات الهندية ـ الأوروبية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة : الماضى القريب ، الماضى البعيد ، الماضى الكامل ، الماضى المتصل بالحاضر ، الحاضر ، المستقبل . . . الخ . وقد بلغت هذه الأزمنة فى اللغة الفرنسية أحد عشر فى الجمل الاخبارية وحدها indicatif

Je parle, Je parlais, je parlai, J'ai parlé, j'eu parlé, j'avais parlé, J'ai eu parlé, j'avais eu parlé, je parlerai, j'aurai parlé, j'aurai eu Parlé.

٤ — يحدث فى الغالب تأنيث الاسم والصفة فى اللغات السامية والحامية بإضافة تاء إلى المذكر . أما فى اللغات الهندية ـ الأوروبية فللتأنيث طرق أخرى كثيرة : منها تضعيف الحرف الأخير للمذكر (Chat. te, gras, se) ؛ ومنها استبدال حرف آخر به (Loup, ve; neuf, ve) ؛ ومنها استبدال عدد من الأحرف الأخيرة فى المؤنث بعدد من الأحرف الأخيرة فى المذكر (instituteur, trice; peucheur, chresse) ؛ ومنها مد الحرف الأخير فى المذكر (berger, ère; fermier ,ière) ؛ ومنها زيادة بعض حروف على المذكر (tigre, resse, comte, tesse) .

٥ — يميل الأسلوب كثيراً فى اللغات السامية ـ وبخاصة الأسلوب الأدبى ـ إلى استخدام الكلمات والعبارات فى غير ما وضعت له عن طريق الاستعارة والمجاز المرسل والكناية وما إلى ذلك . أما أساليب اللغات الهندية ـ الأوروبية فيبدو فيها الحرص على استخدام الكلمات فى معناها الأصلى .

***

هذا ، وقد اعتمدنا فى التفرقة بين هاتين الفصيلتين على أمور تتصل بالقواعد لا بالمفردات .

وذلك لأن ناحية القواعد هى أهم ماتمتاز به الفصائل بعضها عن بعض . فمنها تتكون شخصية اللغات وإليها ترجع مقوماتها . وهى التى تمثل المظهر الثابت المستقر فى اللغات : فهى لاتكاد تتغير ، ومايحدث فيها أحيانا من تغير يجرى دائما ببطء وفى نطاق ضيق . وهى ، إلى هذا كله ، لاتنتقل بطريق الاقتباس أو غيره من لغة إلى أخرى [٢] . فتشابه

---

(١) يستثنى من ذلك اللغات الأكادية فان للفعل فيها ثلاثة أزمنة أصيلة : زمنان يشار إليهما بأصوات تلحق أول الفعل ، وهما الزمن الماضى التام والزمن المضارع للاستقبال ، وزمن ثالث يشار إليه بملحق فى آخر الفعل وهو الزمن المعبر عن الاستمرار (انظر الطبعة الثانية من كتابنا « فقه اللغة » ص ٢٣) .

(٢) سنعرض لهذا الموضوع بتفصيل فى الفصل الآتى وسنذكر فيه أن القواعد إذا انتقلت من لغة =

لغتين فى القواعد يدل إذن على انتمائهما إلى فصيلة واحدة ؛ واختلافهما فيها يدل على اختلاف فصيلتيهما .

على حين أن المفردات تمثل المظهر المتقلب والناحية المتنقلة فى اللغات . فهى محاطة بعوامل كثيرة تحول دون ثباتها وتجعلها عرضة للتغير المطرد والتطور السريع ، وتذلل لها وسائل الانتقال من لغة إلى لغة . فتشابه لغتين فى مفرداتهما لايدل على انتمائهما إلى فصيلة واحدة . فقد تكونان من فصيلتين مختلفتين ويكون السبب فى هذا التشابه راجعاً إلى أن إحداهما قد اقتبست مفرداتها عن الأخرى . واختلاف لغتين فى مفرداتهما لايدل على اختلاف فصيلتيهما . فقد تكونان من فصيلة واحدة ويكون السبب فى هذا الاختلاف راجعاً إلى أن مفردات كل منهما قد سلكت فى تطورها طريقا يختلف عن الطريق الذى سلكته مفردات الأخرى لاختلافهما فى المؤثرات المحيطة بهما ، أو أن إحداهما قد اقتبست مفرداتها من لغة ثالثة لاتربطها بها لحمة قرابة فبعدت فى هذه الناحية عن فصيلتها .

فاللغة السريانية مثلا تعد من فصيلة اللغات السامية ، مع أن قسما كبيراً من مفرداتها يتحد مع مفردات اللغة الإغريقية التى تعد من أفراد الهندية ـ الأوروبية . وذلك لأن قواعد الأولى قواعد سامية ، وقواعد الثانية هندية ـ أوروبية . وتشابههما فى المفردات نشأ عن مجرد اقتباس الأولى عن الثانية لما كان يعوزها من كلمات . ـ واللغة التركية تتفق فى قسم كبير من مفرداتها مع الفارسية والعربية ، مع أن كل لغة من هذه اللغات الثلاث تعد من فصيلة خاصة . فالتركية من الفصيلة التترية ، والفارسية من الهندية ـ الأوروبية ، والعربية من السامية . وذلك لاحتفاظ كل منها بقواعد فصيلتها . أما تشابهها فى المفردات فقد نشأ عن مجرد انتقال طائفة من كلمات اللغتين الثانية والثالثة إلى اللغة الأولى عن طريق الاقتباس . وعلى هذا الأساس عدت الفارسية الحديثة من فصيلة اللغات الهندية ـ الأوروبية على الرغم من اتفاقها فى كثير من المفردات مع اللغة العربية التى تعد من فصيلة اللغات السامية .

= إلى أخرى كان انتقالها إيذانا بزوال اللغة التى انتقلت إليها واندماجها فى اللغة التى انتقلت منها ، وإن هذا يحدث حينما تشتبك لغتان فى صراع ويكتب لاحداهما النصر (انظر على الأخص صفحة ١٤٣) .

(٦) وجوه الشبه بين الفصيلتين السامية والهندية ـ الأوروبية

ترى طائفة من العلماء أن هاتين الفصيلتين ، مع اختلافهما فى القواعد ، تتفقان فى كثير من أصول الكلمات . ومن أشهر أفراد هذه الطائفة الأساتذة كلاپروث وبوپ وهمبلت وإوالد وبنفى ولاسن وپوت وكيل وبونسن وليبسيوس وفورست وديليتزش [١] .

Klaproth , Bopp , Humboldt , Ewald , Benfey , Lassen , Pott , Keil , Bunsen , Lepsius , Fürst , Delitzsch.

وقد أوغل كثيراً فى هذه السبيل الأستاذان فورست وديليتزش ، فلم يغادرا أصلا من أصول الفصيلة السامية إلا كشفا عما يشبهه صوتاً ودلالة من أصول الفصيلة الهندية ـ الأوروبية .

أما تعليل هذه الظاهرة فقد انقسم هؤلاء العلماء بصدده إلى ثلاث فرق : ففريق يعللها بأن إحدى الفصيلتين قد انشعبت عن الأخرى وظلت محتفظة بأصول مفرداتها ، ولكنها سلكت فى تكوين قواعدها وجهة تختلف عن وجهة أصلها ، فأخذت تبعد عنه فى هذه الناحية شيئاً فشيئاً حتى وصل الخلاف بينهما إلى الحد الذى هما عليه الآن . وفريق يذهب إلى أنهما قد تفرعتا عن لغة دثرت ولم يصلنا شىء من آثارها ، وأن هذه اللغة كانت متصرفة [٢] ذات قواعد كاملة التكوين ، وأن قواعد كل فصيلة منهما قد سلكت فى تطورها طريقا يختلف عن طريق الأخرى ، ولكن كلتيهما ظلت محتفظة بأصول مفردات اللغة التى انشعبتا عنها . وفريق ثالث يرى أن الشعب الذى تفرع عنه الساميون والآريون كان له فى الأصل لغة مشتركة ، وأن انقسامه إلى هاتين الشعبتين قد حدث ولغته فى الدور الأول من أدوار تكونها ، إذ لم تكن قد تجاوزت بعد مرحلة اللغات العازلة [٣] العارية من القواعد ، وأن كل شعبة منهما ، تحت تأثير عقليتها الخاصة وما كان يكتنفها من شئون طبيعية واجتماعية ، قد اتجهت فى تكملة لغتها وتكوين قواعدها منحى يختلف عن المنحى الذى اتجهت إليه الشعبة الأخرى ، ولكن بقى فى مفردات كلتيهما كثير من آثار الأصل المشترك .

---

(١) من بين هؤلاء من كشف عن وجوه الشبه بين جميع أفراد الفصيلة الأولى وجميع أفراد الفصيلة الثانية ؛ ومنهم من كشف عن وجوه الشبه بين بعض لغات الفصيلة الأولى وبعض لغات الفصيلة الثانية ، كالعلامة ليبسيوس الذى كشف عما تتفق فيه أصول الكلمات السنسكريتية مع أصول الكلمات العبرية .

(٢) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ٨٦ .

(٣) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ٨٨ .

غير أن أساس النظرية نفسه ، وهو اتفاق الفصيلتين فى أصول المفردات اتفاقا يؤذن بانشعاب إحداهما عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل واحد قريب ، غير مسلم به من جمهرة المحققين من علماء اللغة . وذلك لأن القائلين بهذه النظرية لم يقدموا على صحتها دليلا يعتد به . فليس من بين وجوه الشبه التى كشفوا عنها بين هاتين الفصيلتين ماينهض دليلا قاطعاً على صحة نظريتهم ؛ بل إن كثيراً منها لينم على ضعفها وبطلانها . فمن ذلك مثلا ما اعتمد عليه بهذا الصدد الألمانيان فورست وديليتزش . فقد ذهبا إلى أن أصول الكلمات السامية كانت قديما مؤلفة من حرفين اثنين ثم زيد فيما بعد على كل أصل منها حرف ثالث [١] . وعلى أساس هذا المذهب ـ الذى لا يؤيده أى دليل قاطع بل قامت أدلة قوية على بطلانه ـ تحايلا على التقريب بين الأصول السامية والأصول الهندية ـ الأوروبية . فاختارا لكل أصل سامى كلمة هندية ـ أوروبية تقرب منه فى أصواتها ودلالتها ، وقررا تفرعهما عن أصل واحد . ولإثبات ذلك يختاران حرفين تشترك فيهما الكلمتان ، ويقرران أن الأصل السامى كان يتألف قديماً من هذين الحرفين وحدهما ثم زيد عليهما فيما بعد حرف ثالث ، وأن هذا الأصل الثنائى نفسه هو الذى جاءت منه الكلمة الهندية ـ الأوروبية . ولا يخفى مافى هذه الطريقة الاستدلالية من تحكم وتخمين ومجافاة للروح العلمى ومناهج البحث الصحيح [٢] . — ومن ذلك أيضاً ماذهب إليه ديليتزش بصدد التشابه بين طائفة من مفردات اللغة العبرية من جهة وطائفة من مفردات اللغتين الإغريقية واللاتينية من جهة أخرى . فقد اتخذ من هذا التشابه دليلا على صحة النظرية التى نحن بصدد مناقشتها ، غافلا عن أن العبرية الحديثة قد اقتبست كثيراً من مفردات الإغريقية واللاتينية . ومن الغريب أن الكلمات التى ذكرها للاستدلال على مذهبه هى ذاتها من أشهر ما اقتبسته العبرية الحديثة من هاتين اللغتين . ـ وآخرون من المؤيدين لهذه النظرية يعتمدون فى إثبات التشابه بين مفردات الفصيلتين السامية والهندية الأوروبية على كلمات تكاد تتفق فى جميع اللغات لانحدارها من الأصل الأول الذى نشأت منه اللغة الإنسانية ، وهو أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأصوات التى تحدثها الأفعال وأصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات .. وما إلى ذلك . وغنى

---

(١) قد قال بهذا من قبلهما الأستاذ جيزينيوس Gesenius — انظر فيما يتعلق بأصول الكلمات السامية وأصول الكلمات الهندية — الأوروبية صفحات ١٢٨ — ١٣٢ .

(٢) انظر فى الرد على هذه النظرية Renan : Langues Sémitiques, p. 448 et suiv.

عن البيان أن كلمات هذا شأنها لا تدل على ما يذهب إليه أصحاب هذه النظرية من انشعاب إحدى الفصيلتين عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل قريب . ـ وبعض المؤيدين لهذه النظرية يعتمد فى إثبات القرابة بين الفصيلتين على وجوه شبه بعيدة بين مفرداتهما أو على تقارب جاء عن طريق الصدفة والاتفاق . ـ وقصارى القول : لا نكاد نجد من بين الأدلة التى اعتمد عليها أصحاب هذه النظرية ما يستحق المناقشة ، فضلا عن أن ينهض حجة قاطعة على صحتها .

الفصل الرابع

صراع اللغات [1]

(١) نظرة عامة فى عوامله وآثاره فى حياة اللغة

يحدث بين اللغات مايحدث بين أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعى وراء الغلب والسيطرة . وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال : فتارة ترجح كفة أحد المتنازعين فيسارع إلى القضاء على الآخر مستخدما فى ذلك وسائل القسوة والعنف ، ويتعقب فلوله فلا يكاد يبقى على أثر من آثاره ؛ وتارة ترجح كفة أحدهما كذلك ، ولكنه يمهل الآخر ، وينتقص بالتدريج من قوته ونفوذه ، ويعمل على خضد شوكته شيئاً فشيئاً حتى يتم له النصر ؛ وأحيانا تتكافأ قواهما أو تكاد فتظل الحرب بينهما سجالا ويظل كل منهما فى أثنائها محتفظا بشخصيته ومميزاته .

وينشأ هذا الصراع عن عوامل كثيرة أهمها عاملان : أحدهما أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله ؛ وثانيهما أن يتجاور شعبان مختلفا اللغة فيتبادلا المنافع ويتاح لأفرادهما فرص للاحتكاك المادى والثقافى .

وسنقف على دراسة كل عامل من هذين العاملين ونتائجه فقرة على حدتها .

(٢) العامل الأول من عوامل الصراع اللغوى

نزوح عناصر أجنبية إلى البلد

قد يحدث على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة . . . أن ينزح إلى البلد عنصر

---

(١) يندرج موضوع هذا الفصل مع موضوع الفصلين التاليين : « انقسام اللغة إلى لغات » و« تطور اللغة وارتقاؤها » تحت شعبة دراسية واحدة ، وهى « حياة اللغة » انظر ص ٤ رقم ٢) . ولكننا آثرنا أن نقف على كل بحث من هذه البحوث الثلاثة فصلا خاصا ، حرصا على تمييز المسائل بعضها من بعض

أجنبي ينطق بلغة غير لغة أهله ، فيشتبك اللغتان فى صراع ينتهى إلى إحدى نتيجتين : فأحيانا تنتصر لغة منهما على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان قديمهم وحديثهم أصيلهم ودخيلهم ؛ وأحيانا لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معا جنبا لجنب .

١ — الحالات التى يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى ، وهى أن تتغلب إحدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان أصيلهم ودخيلهم ، فى حالتين :

(الحالة الأولى) أن يكون كلا الشعبين همجياً قليل الحضارة منحط الثقافة ، ويزيد عدد أفراد أحدهما عن عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة . ففى هذه الحالة تتغلب لغة أكثرهما عدداً سواء أكانت لغة الغالب أم المغلوب ، لغة الأصيل أم الدخيل ؛ على شريطة أن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . فمن ذلك أن الإنجليز السكسونيين ، حينما نزحوا من أواسط أوروبا إلى إنجلترا ، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتية التى كان يتكلم بها السكان الأصليون . وذلك لأن عدد من بقى من السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئا مذكورا بجانب عدد المغيرين ؛ وكلا الشعبين كان همجيا منحطا فى مستوى حضارته ومبلغ ثقافته ؛ وكلتا اللغتين تنتمى إلى فصيلة اللغات الهندية الأوروبية . ــ والنورمانديون Normands ، حينما أغاروا على انجلترا فى منتصف القرن التاسع الميلادى واحتلوا معظم أقاليمها ، لم تلبث لغة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم ، فأصبح جميع السكان ، أصيلهم ودخيلهم ، إنجليزيهم ونورمانديهم ، يتكلمون الإنجليزية السكسونية . وذلك لأن الإنجليز المغلوبين كانوا أكثر عدداً من النورمانديين الغالبين ؛ ولم يكن لأحد الشعبين إذ ذاك حضارة ولا ثقافة راقية ؛ وكلتا اللغتين من الفصيلة الهندية ـ الأوروبية .

وقد يحدث أحيانا فى هذه الحالة أن تتغلب لغة على أخرى من غير فصيلتها . ولكن هذه الظاهرة نادرة الحدوث ، ولا يتم التغلب فيها إلا بصعوبة وبعد أمد طويل . واللغة التى تنشأ من هذا التغلب ينالها كثير من التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها ، لشدة الاختلاف بينها وبين لغتهم الأصلية ، فتبعد بعداً كبيراً عن صورتها الأولى . فالبلغاريون ، وهم من أصل فينوانى Finois ، حينما نزحوا إلى البلقان وامتزجوا بشعوب الصقالبة (السلافية Slaves) ، أخذت لغتهم تنهزم شيئا فشيئا أمام لغة هذه الشعوب حتى انقرضت وحل محلها لسان صقلبي . وذلك لأن عدد البلغاريين لم يكن شيئا مذكورا بجانب عدد الصقالبة الممتزجين بهم ؛ وكلتا الفئتين كانت إذ ذاك همجية منحطة فى

مستوى حضارتها ومبلغ ثقافتها . وقد حدث هذا التغلب مع اختلاف اللغتين فى الفصيلة، فلغة البلغاريين الأصلية كانت من الفصيلة الفينية (١) ، على حين أن اللغات الصقلبية من الفصيلة الهندية الأوروبية (٢) . ولكن هذا التغلب لم يتم إلا بصعوبة وبعد أمد طويل وصراع عنيف خرجت منه اللغة الغالبة مشوهة محرفة عن مواضعها فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها ، فبعدت بعداً كبيراً عن صورتها القديمة . فالبغارية الحديثة هى أكثر اللهجات الصقلبية تحريفاً وبعداً عن أصولها الأولى .

(الحالة الثانية) أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب فى حضارته وثقافته وآداب لغته ، وأشد منه بأساً وأوسع نفوذا . ففى هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان ، وإن قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب ؛ على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفراده فى بلاد الشعب المغلوب ، وأن تمتزج بأفراد هذا الشعب ، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . فقد نجم عن فتوح الرومان فى وسط أوروبا وجنوبها وشرقها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى Alpes Centrales والإليريا Illyrie ، مع أن الرومان المغيرين كانوا فى هذه البلاد أقليه بالنسبة لسكانها الأصليين . — وقد نجم عن غزو الآراميين للبلاد الناطقة بالأكادية والفينيقية والعبرية أن تغلبت لغتهم على هذه اللغات ، مع أن الآراميين المغيرين كانوا فى هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين (٣) . — وقد نجم عن فتوح العرب فى آسيا وأفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية (٤) . فأصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة فى معظم مناطق شبه الجزيرة العربية وفى مصر وشمال أفريقيا وفى جزء كبير من قسمها الشرقى المتاخم لبلاد الحبشة ، مع أن الجالية العربية فى هذه البلاد كان عددها أقل كثيراً من عدد السكان الأصليين .

* * *

---

(١) انظر ص ١٢٣ رقم ١١ .

(٢) انظر صفحة ١١٦ رقم ٨ .

(٣) انظر تفصيل ذلك فى الفصول الأول والثانى والثالث من كتابنا « فقه اللغة » .

(٤) انظر هذه اللغات بصفحات ١١٨ — ١٢٠ .

وفى كلتا الحالتين السابقتين لايتم النصر غالباً لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يصل أحياناً إلى أربعة قرون ، وقد يمتد إلى أكثر من ذلك . فالرومان قد أخضعوا بلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) فى القرن الأول الميلادى ؛ ولكن لم يتم النصر للغتهم اللاتينية على اللغة السلتية التى كان يتكلم بها أهل هذه البلاد إلا حوالى القرن الرابع الميلادى . ــ ومع ما كان للعرب من قوة الشوكة ، ورقى اللغة ، واتساع الحضارة ، وحماية الدين ، وسطوة الغالب ، لم يتم النصر للغتهم على القبطية والبربرية إلا بعد أمد طويل . على أن اللغة القبطية لا تزال مستخدمة فى كثير من الطقوس الدينية الأرثوذكسية ، واللغات البربرية لاتزال إلى الوقت الحاضر لغة محادثة لدى بعض العشائر المغربية (١) .

* * *

وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل وجهاد عنيف ، لا يخرج المنتصر من معاركه على نفس الحالة التى كان عليها من قبل . فاللغة التى يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها فى كثير من مظاهرها وبخاصة فى مفرداتها .

ويختلف مبلغ هذا التأثر باختلاف الأحوال : فتكثر مظاهره كلما طال أمد احتكاك اللغتين وكان النزاع بينهما عنيفا والمقاومة قوية من جانب اللغة المقهورة ؛ وتقل مظاهره كلما قصرت مدة الصراع ، أو خفت وطأة النزاع ، أو كانت المقاومة ضعيفة من جانب اللغة المغلوبة . ــ فلطول الأمد الذى استغرقه الكفاح بين لغة الإنجليز السكسون بإنجلترا ولغة الفاتحين من الفرنسيين النورمانديين (الذين أغاروا على بلاد الإنجليز فى القرن التاسع الميلادى واحتلوا معظم مناطق إنجلترا كما سبقت الإشارة إلى ذلك) ، ولشدة المقاومة التى أبدتها اللغة النورماندية المقهورة ، خرجت اللغة المنتصرة (الإنجليزية) من هذا الصراع وقد فقدت أكثر من نصف مفرداتها الأصلية واستبدلت به كلمات من اللغة النورماندية المغلوبة ، واقتبست منها فضلا عن هذا مفردات أخرى جديدة . ــ على حين أن لغة بلاد الجول La Gaule التى انتصرت عليها اللغة اللاتينية لم تترك فى اللغة الغالبة أكثر من عشرين كلمة (٢) ، واللغات القبطية والبربرية المغلوبة لم تكد تترك أى أثر فى اللغة العربية الغالبة . وذلك لأن الصراع فى هذين المثالين ، على طول أمده ،

(١) انظر التعليق الأول بصفحة ١٢٠ .

(٢) على أن بعض هذه الكلمات كان قد انتقل إلى اللاتينية قبل غزو الرومان لبلاد الجول .

لم يكن عنيفا، ولم تلق فى أثنائه اللغتان الغالبتان (اللاتينية فى المثال الأول والعربية فى المثال الثانى) مقاومة شديدة من جانب اللغات المقهورة (لغة الجول السلتية فى المثال الأول والقبطية والبربرية فى المثال الثانى).

وتختلف كذلك النواحى التى يبدو فيها تأثر اللغة الغالبة باللغة المغلوبة تبعاً لاختلاف الأحوال التى تكون عليها كلتا اللغتين فى أثناء اشتباكهما، ويبدو هذا التأثر بأوضح صورة فى النواحى التى تكون فيها اللغة المغلوبة متفوقة على اللغة الغالبة. ولذلك تألف معظم المفردات التى أخذتها الإنجليزية (الغالبة) عن الفرنسية النورماندية (المغلوبة) من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهى والطعام. وذلك لأن النورماندية كانت غنية فى هاتين الطائفتين من المفردات، على حين أن الإنجليزية كانت فقيرة فيهما كل الفقر، فعمدت إلى خصيهما المقهور واستلبته ما كان يعوزها قبل أن تجهز عليه. وإلى اقتباسها منه الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهى وألوان الطعام يرجع السبب فى أسلوبها الغريب فى تسمية الحيوانات المأكولة اللحم. فكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها فى الإنجليزية اسمان: اسم جرمانى الأصل يطلق على الحيوان مادام حيا (Sheep , calf , ox ,pig) وإسم آخر فرنسى الأصل يطلق عليه بعد ذبحه وإعداده للغذاء (Mutton , veal , beef , pork).

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها كثير من التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغويا) فتبعد بذلك فى أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى. ويبلغ بعدها هذا أقصى درجاته إذا كانت اللغة المقهورة من فصيلة أخرى غير فصيلة اللغة الغالبة كما سبقت الإشارة إلى ذلك [١].

والألفاظ الدخيلة التى تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك كثير من التحريف فى أصواتها ودلالاتها وطريقة نطقها، فتبعد فى جميع هذه النواحى عن صورتها القديمة. ويظهر هذا بالموازنة بين الكلمات الإنجليزية الآتية والكلمات الفرنسية التى اقتبست منها:

Mutton , veal , beef
Mouton , veau , bœuf

فإن كل كلمة منها تختلف عن أصلها اختلافا غير يسير فى صوتها ودلالتها وطريقة

(١) انظر ماورد بصفحتى ١٣٩ ، ١٤٠ بصدد البلغارية الحديثة.

النطق بها . حتى أن الفرنسى الذى لايعرف الإنجليزية لايكاد يتبينها أو يدرك مدلولها إذا سمعها من إنجليزى . ــ وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاقتباس الناشىء من الصراع بين لغتين كتب لإحداهما النصر ، بل هى ظاهرة عامة تتحقق فى جميع الحالات التى يحدث فيها انتقال مفرد من لغة إلى أخرى .

***

وتقطع اللغة المغلوبة فى سبيل انقراضها مراحل كثيرة تمتاز كل مرحلة منها بمظهر خاص من مظاهر الانحلال وضعف المقاومة . ففى المرحلة الأولى تقذفها اللغة الغالبة بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلى وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللغة المغلوبة تظل طوال هــــذه المرحلة محتفظة بقواعدها ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات : فيؤلف أهلها عباراتهم ويصرفون مفرداتهم وفقا لقواعدهم التنظيمية والمورفولوجية (السنتكس والمورفولوجيا) ، وينطقون بألفاظهم الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقا لأسلوبهم الصوتى ومخارج حروفهم ؛ حتى أنهم ليستبدلون فى الكلمات الدخيلة بالحروف التى لايوجد لها نظير لديهم حروفا قريبة منها من حروف لغتهم . ــ وفى المرحلة التالية تتسرب إلى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات . فينطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من نفس المخارج وبنفس الطريقة التى يسير عليها النطق فى اللغة الغالبة . فيزداد بذلك انحلال اللغة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول . ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة فى الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (قواعد المورفولوجيا والسنتكس) وفى مقاومة قواعد اللغة الغالبة . فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . ــ وفى المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئا فشيئا فتأخذ قواعد اللغة الغالبة فى الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الإجهاز على اللغة المغلوبة . فالقواعد فى اللغة المغلوبة أشبه شىء بالقلعة التى تحتمى بها فلول الجيش المنهزم وتقاتل عنها حتى آخر رمق ، والتى يتم بسقوطها استيلاء العدو على البلاد .

ب ــ الحالات التى لاتقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب

وأما النتيجة الثانية وهى عدم تغلب إحدى اللغتين على الأخرى وبقاؤهما معاً جنباً لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما فى الفقرة السابقة .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الغابرة وفى العصر الحاضر. فاللغة اللاتينية لم تقو على اللغة الإغريقية، مع أن الأولى كانت لغة الشعب الغالب؛ وذلك لأن الإغريق، مع خضوعهم للرومان، كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأرقى لغة؛ وقد سبق أن انهزام لغة الشعب المغلوب أمام لغة الشعب الغالب لا يحدث إلا إذا كان الشعب الثانى أرقى من الشعب الأول فى جميع هذه الأمور[١]. — ولهذه الأسباب نفسها لم تقو لغات الشعوب الجرمانية التى قوضت الامبراطورية الرومانية الغربية فى فاتحة العصور الوسطى على التغلب على اللغة اللاتينية فى البلاد التى قهرتها بمناطق الجول La Caule (فرنسا) وما إليها. — واللغة اللاتينية لم تقو على التغلب على لغات أهل بريطانيا العظمى، على الرغم من فتح الرومان لبلادهم واحتلالهم إياها نحو مائة وخمسين سنة، وعلى الرغم من أن الشعب الغالب كان أرقى كثيراً من الشعب المغلوب فى حضارته وثقافته. وذلك لأن الجالية الرومانية فى الجزر البريطانية لم تكن شيئا مذكوراً ولم تمتزج امتزاجا كافيا بأفراد الشعب المغلوب. وقد تقدم أن الغلب اللغوى لا يتم فى مثل هذه الحالات إلا إذا أقامت فى البلاد المقهورة جالية يعتد بها من أفراد الشعب الغالب وتم الامتزاج بينها وبين أفراد الشعب الآخر[٢]. — واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية، على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس وبقائها تحت سلطانهم أمداً طويلا. وذلك لأن الشعب العربى لم يكن إذ ذاك أرقى حضارة من الشعب الفارسى، ولقلة عدد الجالية العربية بفارس وضعف امتزاجها بالسكان، ولانتماء اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين (فالعربية من الفصيلة السامية والفارسية من الفصيلة الهندية - الأوروبيه)[٣]. — واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغات الإسـبانية على الرغم من فتح العرب للأندلس وبقائها تحت سلطانهم نحو سبعة قرون. وذلك لانتماء العربية إلى فصيلة غير فصيلة اللغات الإسبانية ولعدم امتزاج الشعوب القوطية بالشعب العربى. — واللغة التركية لم تقو على التغلب على لغة أية أمة من الأمم التى كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية بأوروبا وآسيا وأفريقيا، على الرغم من بقاء هذه الأمم مدة طويلة تحت سلطان تركيا. وذلك لاختلاف فصائل

---

(١) انظر صفحة ١٤٠.

(١) انظر صفحة ١٤٠.

(٢) تقدم أن انتماء اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين يحول غالباً دون انتصار إحداهما على الأخرى (انظر صفحتى ١٣٩، ١٤٠).

اللغات (فالتركية من الفصيلة الطورانية على حين أن لغات معظم الأمم التى كانت خاضعة لتركيا من الفصيلة السامية ـ الحامية أو الهندية ـ الأوروبية) ، ولأن الترك كانوا أقل حضارة وثقافة من معظم الشعوب التى كانت تابعة لهم ، ولقلة عدد جاليتهم فى بلاد هذه الشعوب ، ولضعف امتزاجها بالسكان . ولم تقو الإنجليزية على التغلب على اللغات الهندية على الرغم من خضوع الهند لإنجلترا منذ أمد طويل . وذلك لأن شعوب الهند أعرق حضارة من الإنجليز ، ولقلة أفراد الجالية الإنجليزية بهذه البلاد ، وعدم امتزاجها بالسكان .

* * *

ولكن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى . فقد تأثرت اللاتينية بالإغريقية فى أساليبها وآدابها واقتبست منها طائفة كبيرة من مفرداتها . وتأثرت الإنجليزية بعض التأثر باللاتينية من قبل أن تتأثر تأثراً كبيراً بشعبة من شعبها وهى النورماندية . وقد تركت اللغة العربية آثاراً قوية فى الإسبانية والبرتغالية ، وبخاصة فى المناطق التى كانت تسمى بالأندلس أو أندلوسيا Andalousie حيث دام سلطان العرب عدة قرون [١] . والصراع بين العربية والفارسية ، وإن لم ينته إلى تغلب إحداهما ، قد ترك فى كل منهما آثارا واضحة من الأخرى ، وبخاصة من ناحية المفردات . والصراع بين التركية ولغات الأمم التى كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية ، وإن لم ينته إلى تغلب لغوى ، قد ترك فى التركية آثارا قوية من هذه اللغات وبخاصة من اللغة العربية ، وترك كذلك فى كثير من هذه اللغات آثارا ظاهرة من التركية [٢] .

ح ـ الخلاصة

وقصارى القول : متى اجتمع لغتان فى بلد واحد لامناص من تأثر كل منهما

---

(١) ويظهر أن الآثار التى تركتها العربية فى البرتغالية قد بلغت هى أيضا درجة كبيرة من الضخامة حتى أن بعض الباحثين أفرد مؤلفات خاصة فى الكلمات البرتغالية المأخوذة من العربية . ومن هؤلاء الأستاذ راجى باسيل فى ريودى جانيرو بالبرازيل . فقد طبع أربع كراسات عنوانها « معجم الكلمات البرتغالية المأخوذة من العربية » وقدم هذه الكراسات إلى جريدة الأهرام كما ورد بعددها الصادر فى ٣٩ — ٣ — ١٩٤٤ .

(٢) قد بلغ هذا التأثر مبلغا كبيرا فى بعض هذه اللغات . فلغة العراق فى العصر الحاضر مثلا قد أخذت عن التركية كثيرا من المفردات وبعض الأصوات التى لا نظير لها فى العربية (كالصوت الذى ينطق به بين الشين والجيم المعطشة فى مثل عربنجى) وطائفة من القواعد الصرفية كقواعد النسب والنعت والاضافة فى مثل : عربنجى (سائق العربة) ، خوش ولد (خوش كلمة فارسية الأصل معناها حسن) ، كتبخانة (دار الكتب) .

بالأخرى سواء أتغلبت إحداهما أم كتب لكلتيهما البقاء . غير أن هذا التأثر يختلف في مبلغه ومنهجه ونواحي ظهوره ونتائجه في الحالة الأولى عنه في الحالة الثانية . فإذا كان الغلب كتب لإحداهما نراها تسيغ كل ماتأخذه من الأخرى مهما كثرت كميته ، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ، فتزداد به قوة ونشاطا ، بدون أن تدع له مجالا للتأثير في بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلي ؛ على حين أن المغلوبة لاتقوى على مقاومة ماتقذفها به الغالبة من مفردات وقواعد وأساليب ولاتكاد تسيغ ماتتجرعه منها ، فيتخمها ويضعف بنيتها ، فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئا فشيئا حتى تزول : كما كان شأن الإنجليزية الغالبة مع النورماندية المغلوبة . — وإذا كان البقاء قد كتب لكلتيهما تعمد كل منهما إلى ماتأخذه من الأخرى فتسيغه وتفيض عليه من حيويتها وتقاوم آثاره الهادمة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية موفورة القوى سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع العربية .

(٣) العامل الثاني من عوامل الصراع اللغوى

تجاور شعبين مختلفي اللغة

يتيح تجاور شعبين مختلفي اللغة فرصاً كثيرة لاحتكاك لغتيهما ، فتشتبكان في صراع ينتهي إلى واحدة من نفس النتيجتين اللتين ينتهي إليهما الصراع في العامل الأول : فأحيانا تنتصر إحدى اللغتين على الأخرى وتحتل مناطقها ، فتصبح لغة مشتركة بين الشعبين ؛ وأحيانا لاتقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معاً جنبا لجنب .

١ — الحالات التي يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى وهي تغلب إحدى اللغتين على الأخرى في حالتين :

(الحالة الأولى) إذا كانت نسبة النمو في أحد الشعبين كبيرة لدرجة يتكاثف فيها ساكنوه ، وتضيق مساحته بهم ذرعا ، فيشتد ضغطه على حدود الشعب المجاور له ، وتكثر تبعا لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين . وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف السكان على لغة المناطق المجاورة له ، على شريطة ألا يقل عن أهلها في حضارته وثقافته وآداب لغته ، ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى من أهلها في هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . وأكثرها دلالة بهذا الصدد ماكان من أمر اللغة الألمانية . فقد طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوروبا الوسطى (بسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا . . . الخ) وقضت على لهجاتها الأولى [١] .

(الحالة الثانية) إذا تغلغل نفوذ أحد الشعبين فى الشعب المجاور له . وفى هذه الحالة تتغلب لغة الشعب القوى النفوذ، على شريطة ألا يقل عن الآخر فى حضارته وثقافته وآداب لغته، ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى منه فى هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى مختلف مراحل التاريخ . فلغة شعوب الباسك قد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية فى المناطق التى تغلغل فيها نفوذ الفرنسيين وأمام اللغة الإسبانية فى المناطق التى تغلغل فيها نفوذ الإسبانيين، حتى كادت تنقرض فى كلتيهما كما سبقت الإشارة إلى ذلك [٢] . ـ واللهجات السلتية [٣] التى كان يتكلم بها معظم السكان بإيرلندا وويلز واسكتلندا قد أخذت تنهزم أمام اللغة الإنجليزية منذ أن تغلغل نفوذ إنجلترا فى هذه البلاد حتى زالت من لغة الأدب والكتابة، وكادت تنقرض انقراضاً تاما من لغة الحديث . ـ وهكذا كان مصير اللهجة السلتية التى بقيت بمقاطعة البريتون Bretagne [٤] (فى القسم الغربى من فرنسا على سواحل الإطلانطيق)؛ فقد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية منذ أن تغلغل نفوذ فرنسا فى هذه المقاطعة ، حتى لم يبق لها إلا آثار ضئيلة فى لغة الحديث بين الأميين من الشيوخ [٥] . ـ واللغة الفرنسية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها ببلجيكا وسويسرا ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لجميع سكان

---

(١) ترجع بعض مظاهر هذا التغلب اللغوى إلى الغارات التى شنها الجرمان قديما على هذه المناطق ، أى إلى أمور تتصل بالعامل الأول لا بهذا العامل . فالتمثيل هنا مقصور على الحالات التى تم فيها تغلب اللغة الألمانية فى صورة سلمية تحت تأثير الجوار وتكاثف السكان .

(٢) انظر ص ١٢٤ (رقم ١٢) .

(٣) انظر ص ١١٥ (رقم ٦) .

(٤) انظر ص ١١٥ (رقم ٦) .

(٥) ظلت هذه المقاطعة تتمتع بشىء من استقلالها الذاتى حتى عام ١٤٩١، (فى عهد شارل الثامن) . ومن ذلك العهد اعتبرت تابعة للتاج الفرنسى . ولكن لم يتم ضمها إلى فرنسا إلا عام ١٥٣٢ فى عهد فرنسوا الأول . ـ وقد انقرضت اللغة السلتية فى هذه المقاطعة انقراضا تاما من لغة الكتابة والأدب . وانقرضت كذلك من لغة الحديث بين أبناء الجيل الحاضر . وكادت تنقرض من لغة الشيوخ أنفسهم . وقد زرت هذه المقاطعة وقضيت عدة أشهر متنقلا فى بلادها ، فلم أسمع هذه اللغة إلا من عدد قليل من الشيوخ الأميين . وحتى هؤلاء أنفسهم لا يتكلمون لغتهم هذه إلا فيما بينهم . أما مع غيرهم فيتكلمون الفرنسية ؛ ولكن ينال كلماتها وتراكيبها وأساليبها فى ألسنتهم كثير من التحريف .

« والونيا » Wallonie ببلجيكا ولنحو ٢٢ ٪ من سكان سويسرا . ـ واللغة الإيطالية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها بسويسرا ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٥,٣ ٪ من سكان هذه الجمهورية . واللغة العربية المضرية قد تغلبت فى العصور السابقة للإسلام على اللغة اليمنية القديمة بحكم الجوار وتغلغل نفوذ العرب فى البلاد اليمنية مع توافر الشروط الأخرى (١) .

وعلى هذا الأساس نفسه تتغلب فى المملكة الواحدة لغة المقاطعة التى تكون بها العاصمة أو يكون لأهلها السلطان والنفوذ . فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) فى مقاطعة « والونيا » ذات اللسان الفرنسى (٢) ، ولأن سكان هذه المقاطعة يتمتعون بقسط كبير من النفوذ والسلطان فى هذه المملكة ، أخذت اللغة الفرنسية تتغلب على الفلامندية (لغة القسم الشمالى من بلجيكا المسمى « فلاندر ») (٣) وتنتقصها من أطرافها . ـ ولوقوع عاصمة سويسرا (برن) فى القسم الناطق بالألمانية ، ولأن سكان هذا القسم يتمتعون بأكبر قسط من النفوذ والسلطان وتتألف منهم الأغلبية الساحقة (يتكلم الألمانية فى سويسرا نحو ٧٠ ٪ من أهلها) ، أخذت اللغة الألمانية تطغى على ألسنة الناطقين بالفرنسية من السويسريين . ـ وقد أخذت لغة قريش قبيل الإسلام تتغلب على اللغات المضرية الأخرى ، لما كانت تتمتع به من سلطان أدبى ، ويستأثر به أهلها من نفوذ دينى وسياسى .

***

وفى كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالبا لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يبلغ أحيانا بضعة قرون (٤) . فالصراع بين الألمانية والفرنسية بسويسرا قد بدأ منذ عهد سحيق ، ومع ذلك لم يتم بعد للألمانية النصر النهائى . ـ والصراع بين اللغة الفرنسية واللسان السلتى الذى يتكلم به البريتونيون (سكان مقاطعة البريتون Bretagne) قد نشب

(١) انظر تفصيل ذلك فى الفصلين الرابع والسادس من كتابنا « فقه اللغة » (الطبعة الثانية صفحات ٦٠ — ٦٦ ، ٩٨) .

(٢) وهو القسم الجنوبى من بلجيكا ، وينحدر سكانه من أصول سلتية ولاتينية . على حين أن القسم الشمالى المسمى بالفلاندر Flandre ينحدر سكانه من أصل جرمانى ويتكلمون اللغة الفلامندية Flamande التى يتألف منها ومن اللهجات الهولندية فرع اللغات النئرلاندية Néerlandaises وهو أحد فروع اللغات الجرمانية الغربية (انظر ص ١١٥ رقم ٧) .

(٣) انظر التعليق السابق .

(٤) تزيد عادة المدة التى يظهر فيها أثر هذا العامل عن المدة التى يظهر فيها أثر العامل السابق والتى أشرنا إليها بصفحة ١٤١ .

منذ عدة قرون ؛ ومع ذلك لايزال كثير من شيوخ البريتون فى العصر الحاضر يتكلمون بهذا اللسان [١] . ـ ولاتزال اللهجه السلتية لغة محادثة بين عامة الإيرلنديين فى العصر الحاضر ، مع أن تغلب الإنجليزية عليها قد بدأ فى هذه البلاد منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . ـ وقد أخذت لغة قريش تطغى على اللغات المضرية الأخرى منذ العصر الجاهلى ؛ ومع ذلك ظلت هذه اللغات حية فى كثير من المواطن إلى أواخر العصر العباسى .

* * *

وغنى عن البيان أن انتصاراً لايتم إلا بعد أمد طويل لايخرج المنتصر من معاركه على الحالة التى كان عليها من قبل . فاللغة التى يتم لها الغلب لاتخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها فى بعض مظاهرها وبخاصة فى مفرداتها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى العامل الأول [٢] . غيرأن تجرد العامل الذى نحن بصدد الكلام عنه من عنف النزاع وشدة المقاومة ، وحدوث نتائجه فى صورة سلمية متدرجة بطيئة ، كل ذلك يعمل على وقاية اللغة ويخفف من مبلغ تأثرها باللغة المغلوبة .

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها بعض التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغويا) ، فتختلف بعض الاختلاف فى أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى .

والكلمات الدخيلة التى تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك بعض التحريف فى حروفها ومعانيها وأساليب نطقها ، فتبعد فى جميع هذه النواحى عن شكلها القديم .

* * *

وتقطع اللغة المغلوبة فى سبيل انقراضها نفس المراحل التى أشرنا إليها فى العامل الأول : فينفذ الانحلال أولا إلى مفرداتها ، ثم إلى أصواتها ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ؛ ويتم الإجهازعليها بالقضاء على قواعدها [٣] .

---

(١) انظر ص ١٤٧ وتعليق ٥ .

(٢) انظر صفحة ١٤١ وتوابعها .

(٣) انظر ص ١٤٣ .

ب — الحالات التى لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب

وأما النتيجة الثانية وهى عدم تغلب إحدى اللغتين المتجاورتين على الأخرى وبقاؤهما معا جنبا لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما فى الفقرة السابقة.

ويدخل فى هذا الباب معظم العلاقات بين اللغات المتجاورة فى العصر الحاضر. فالجوار بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال لم يؤد إلى تغلب لغة شعب منها على لغة شعب آخر ؛ لأن احتكاك لغاتها لا ينطبق على حالة من الحالتين اللتين يحدث فيهما التغلب بالمجاورة. — ولهذا السبب نفسه لم يؤد الجوار بين الفارسية والعراقية والتركية والأفغانية إلى تغلب لغة منها على لغة أخرى. وكذلك شأن الإنجليزية فى الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية مع الإسبانية المجاورة لها فى المكسيك ؛ وشأن البرتغالية التى يتكلم بها فى البرازيل مع الإسبانية التى يتكلم بها فى الجمهوريات المتاخمة للبرازيل بأمريكا الجنوبية (كولومبيا، بيرو، بوليفيا، باراجواى، أوروجواى، الأرجنتين.. الخ)؛ وكذلك شأن الحبشية مع الصومالية... وهلم جرا.

* * *

غير أن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى. فالإنجليزية الحديثة بإنجلترا والفرنسية الحديثة بفرنسا تتقارضان المفردات منذ أن أتيح للشعبين المتجاورين فرص للاحتكاك وتبادل المنافع. — وكذلك تفعل الفرنسية بفرنسا مع الألمانية بألمانيا[1] ومع أخواتها المجاورة لها فى الجنوب الشرقى والغربى بإيطاليا وإسبانيا والبرتغال. — وتجاور التركية والفارسية، وإن لم يؤد إلى تغلب إحداهما على الأخرى، قد ترك فى التركية آثاراً واضحة من الفارسية وبخاصة فى المفردات، وترك كذلك فى الفارسية بعض آثار من التركية. — وتجاور الفارسية والعراقية فى العصر الحاضر، وإن لم ينته إلى تغلب لغوى، قد نقل إلى كل منهما كثيراً من آثار الأخرى فى المفردات والقواعد والأساليب. — ومجاورة الجرمانية واللاتينية فى العصور القديمة، وإن لم ينته إلى تغلب إحداهما، قد نقل إلى

(١) انتقل إلى الألمانية الحديثة، تحت تأثير جوارها لفرنسا، كثير من المفردات الفرنسية، لدرجة أزعجت أولى الأمر وحملتهم على التدخل لصد هذا التيار وإحلال مفردات ألمانية محل المفردات الفرنسية الدخيلة. ولكن قسطا كبيراً من جهودهم بهذا الصدد قد ذهب أدراج الرياح.

أولاهما كثيراً من مفردات الثانية (١) وترك فى الثانية بعض آثار من الأولى (٢) .

حـ — الخلاصة

وقصارى القول : متى أتيح للغتين متجاورتين فرص للاحتكاك ، لامناص من تأثر كل منهما بالأخرى ، سواء أتغلبت إحداهما أم كتب لكلتيهما البقاء . غير أن هذا التأثر يختلف فى الحالة الأولى عنه فى الحالة الثانية . فإذا كان الفناء قد حق على إحداهما ، فانها لاتقوى على مقاومة ما تقذفها به الثانية من مفردات وقواعد وأساليب ولاتكاد تسيغ ماتتجرعه منها ، فيتخمها ويضعف بنيتها ، فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئاً فشيئاً حتى تزول ، على حين أن الغالبة تسيغ كل ماتأخذه من الأخرى مهما كبرت كميته وعظم شأنه ، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ، فتزداد به قوة ونشاطاً ، بدون أن تدع له مجالا للتأثير فى بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلى : كما كان شأن الإنجليزية والفرنسية الغالبتين مع اللهجات السلتية المغلوبة بإرلندا وويلز ومقاطعة البريتون (٣) .— وإذا كان البقاء قد كتب لكلتيهما ، تعمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتقاوم آثاره الهادمة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية ، موفورة القوى ، سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع التركية والفرنسية مع الإيطالية والإسبانية والبرتغالية .

(٤) عوامل أخرى للاحتكاك اللغوى

هذا ، وفيما عدا العاملين السابقين ، توجد عوامل أخرى كثيرة تتيح الفرص للاحتكاك بين اللغات ، ولكنها أقل شأنا من هذين العاملين . وأضعف منهما أثراً ، إذ ليس منها ماينجم عنه صراع جدى ، أو يؤدى إلى نتائج ذات بال .

ومن أهم هذه العوامل مايلى :

---

(١) كثير من المفردات الألمانية تبدو جرمانية خالصة ، ولكن يظهر عند البحث أنها مقتبسة فى الأصل من اللاتينية . فمن ذلك مثلا : schreiben = يكتب ؛ lesen = يقرأ ؛ Katze = قط ؛ Pflanze = نبات ؛ فانها على الرغم من ظاهرها الجرمانى مأخوذة من الكلمات اللاتينية : Scripere, Legere, Catta, Planta

(٢) غير أن تأثر اللاتينية بالجرمانية كان فى حكم العدم قبل غارات الجرمان على الامبراطورية الرومانية الغربية فى فاتحة العصور الوسطى .

(٣) لم تترك اللغات المغلوبة فى هذه الأمثلة أثراً مذكوراً فى اللغتين الغالبتين .

١ – اشتباك شعبين مختلفى اللغة أو شعوب مختلفة اللغات فى حرب طويلة الأمد. وذلك أن طول الاحتكاك بين الشعوب المتحاربة ينقل إلى لغة كل شعب منها آثاراً من لغات الشعوب الأخرى، سواء فى ذلك لغات الحلفاء ولغات الأعداء. فاحتكاك الألمانية والفرنسية والإنجليزية فى الحرب العظمى قد نقل إلى كل لغة منها مفردات من اللغتين الأخريين. – «وحرب الثلاثين» التى نشبت بين حماة البروتستانتية وحماة الكاثوليكية، وامتدت من سنة ١٦١٨ إلى سنة ١٦٤٨، أتاحت فرصاً كثيرة للاحتكاك بين الفرنسية والألمانية[1] فنقلت إلى كل منهما بعض مفردات من الأخرى. – وحروب فرنسا مع إيطاليا قد نقلت إلى الفرنسية كثيراً من الكلمات المتعلقة بشئون الحرب والفنون الجميلة وما إلى ذلك من الأمور التى كانت اللغة الإيطالية أوسع ثروة فيها من اللغة الفرنسية، ونقلت كذلك إلى الإيطالية عدداً غير يسير من الكلمات الفرنسية. – والحروب الصليبية قد نقلت إلى كثير من اللغات الأوروبية، وبخاصة إلى اللغة الفرنسية، كثيراً من مفردات اللغة العربية، ونقلت كذلك إلى بعض لهجات الأمم العربية بعض كلمات أوروبية.

٢ – توثق العلاقات التجارية بين شعبين مختلفى اللغة. وذلك أن منتجات كل شعب تحمل معها أسماءها الأصلية، فلا تلبث أن تنتشر بين أفراد الشعب الآخر وتمتزج بمتن لغته، وكثرة الاحتكاك التجارى بين أفراد الشعبين ينقل إلى لغة كل منهما آثاراً من اللغة الأخرى.

٣ – توثق العلاقات الثقافية بين شعبين مختلفى اللغة. فإن ذلك ينقل إلى لغة كل منهما، وبخاصة إلى لغة الكتابة، آثاراً كثيرة من الأخرى. وهذه الآثار لا تقف عند حدّ المفردات، بل تتجاوزها غالباً إلى القواعد والأساليب. والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الحاضرة والغابرة. فاللغة العربية فى العصر العباسى، وبخاصة لغة الكتابة، قد انتقل إليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغتين الفارسية واليونانية. ولغة الكتابة بمصر فى العصر الحاضر، سواء فى ذلك لغة العلوم ولغة الآداب ولغة الصحافة، قد انتقل إليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغات الأوروبية وبخاصة الإنجليزية والفرنسية.

* * *

(١) وذلك على الرغم من أن فرنسا لم تشترك اشتراكا صريحا إلا فى المرحلة الأخيرة من هذه الحرب (من سنة ١٦٣٥ إلى سنة ١٦٤٨).

غير أن علاقة هذه العوامل وما إليها بتطور اللغة وارتقائها أشد كثيراً من علاقتها بالصراع بين اللغات . فهى تتيح الفرص لاقتباس اللغات بعضها من بعض وتبادلها المفردات والقواعد والأساليب ، بدون أن تحدث بينها صراعا جديا ، أو تحمل إحداها على محاولة التغلب على الأخرى .

ولذلك آثرنا إرجاء الكلام عن تفصيل هذه العوامل وآثارها إلى الفصل السادس من هذا الكتاب ، حيث نعرض لارتقاء اللغة وتطورها ، وخاصة إذ نعالج موضوع اقتباس اللغات بعضها من بعض .

الفصل الخامس

تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات [1]

---

(١) انتشار اللغة واسبابه

تختلف اللغات الإنسانية فى مبلغ انتشارها اختلافا كبيراً ، فمنها ما تتاح له فرص مواتية ، فينتشر فى مناطق شاسعة من الأرض ، ويتكلم به عدد كبير من الأمم الإنسانية ؛ كما حدث للاتينية والعربية فى العصور القديمة والوسطى ، وللإنجليزية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والألمانية فى العصور الحديثة . ومنها ماتسد أمامه المسالك ، فيقضى عليه أن يظل حبيساً على منطقة ضيقة من الأرض وفئة قليلة من الناس ؛ كما حدث للأينو [2] والبسكية [3] والليتونية [4] . ومنها ما يكون حاله وسطا بين هذا وذاك فلا تتسع مناطقه كل السعة ولا تضيق كل الضيق ؛ كما هو شأن الحبشية والفارسية .

هذا ، ولانتشار اللغة أسباب كثيرة يرجع أهمها إلى ما يلى :

١ — أن تشتبك اللغة فى صراع مع لغة أو لغات أخرى ، وتقضى نواميس الصراع اللغوى المتقدم ذكرها فى الفصل السابق أن يكتب لها النصر ، فتحتل مناطق اللغة أو اللغات المقهورة فيتسع بذلك مدى انتشارها ، وتدخل أمم جديدة فى عداد الناطقين بها . كما حدث للاتينية فى العصور القديمة إذ تغلبت على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا والبرتغال وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى والإليريا Illyrie ،

---

(١) يطلق على هذا المبحث اسم الديالكتولوجيا Dialectologie ، وقد تقدم الكلام عن موضوعه وأهميته ومبلغ عناية العلماء به فى صفحات ٤ (رقم ٢) ، ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) يتكلم بها الآن نحو عشرين ألفا من سكان جزر هوكادو وسكهالين وشيكوتو التابعة لليابان (انظر ص ١٢٢ رقم ٣) .

(٣) يتكلم بها الآن نحو ٨٠٠٠٠٠ من الباسكيين الذين يقطنون جبال البرانس الغربية فى العدوتين الفرنسية والإسبانية (انظر ص ١٢٤ رقم ١٢) .

(٤) يتكلم بها سكان ليتونيا الذين يبلغ عددهم الآن ١,٨٤٤,٨٠٠ (انظر ص ١١٦ رقم ٨) .

فأصبحت لغة الحديث والكتابة فى منطقة شاسعة فى القسم الجنوبى الغربى من أوروبا ، بعد أن كانت قديما مقصورة على منطقة ضيقة فى وسط إيطاليا ، هى منطقة اللاتيوم Latium [١] . وكما حدث للغة العربية إذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية ، حتى بلغ الآن عدد الناطقين بها نحو ٤٠ مليونا ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانوا قديما لا يتجاوزون بضعة آلاف يقطنون منطقة ضيقة فى الجنوب الغربى من بلاد العرب[٢] . وكما حدث للألمانية إذ طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لها بأوروبا الوسطى (بألمانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا . . . الخ) وقضت على لهجاتها الأولى ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٩٠ مليونا من سكان أوروبا ، بعد أن كانت قديما مقصورة على بعض المقاطعات الألمانية [٣] .

٢ — أن ينتشر أفراد شعب ما ـ على أثر هجرة أو استعمار ـ فى مناطق جديدة بعيدة عن أوطانهم الأولى ، ويتكون من سلالتهم بهذه المناطق أمة أو أمم متميزة كثيرة السكان ، فيتسع بذلك مدى انتشار لغتهم ، وتتعدد الجماعات الناطقة بها ، ويكثر أفرادها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى العصور الحديثة . فقد نجم عن استعمار الإنجليز السكسون لأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا أن انتشرت الإنجليزية فى هذه المناطق الشاسعة ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو مائتى مليون موزعين على مختلف قارات الأرض ، بعد أن كانت قديما محصورة فى منطقة ضيقة من الجزر البريطانية [٤] . ونجم عن الاستعمار الإسبانى فى الدنيا الجديدة أن أصبحت الإسبانية لغة بلاد المكسيك وجزر الفيليبين وجميع دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ماعدا البرازيل ، فبلغ عدد الناطقين بها ٧٠ مليونا ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانت محصورة فى منطقة ضيقة فى الجنوب الغربى من أوروبا . ونجم عن الاستعمار البرتغالى فى الدنيا

---

(١) انظر ص ١٤٠ .

(٢) انظر صفحة ١٤٠ .

(٣) انظر أول ص ١٤٧ .

(٤) يتكلم كذلك فى جنوب أفريقيا بلغة تسمى الأفريكانية ، وهى منحدرة من الهولندية التى كان يتكلم بها الهولنديون (وقد كانوا أول من أقام فى مستعمرة الكاب) ، ومن اللغة الفرنسية التى كان يتحدث بها المهاجرون (الهوجنوت) الذين قدموا فيما بعد إلى الكاب ، وتعد الأفريكانية إحدى اللغتين الرسميتين فى الاتحاد . أما الثانية فهى اللغة الانجليزية . ويتخاطب بالأفريكانية معظم أهل جنوب أفريقيا بطلاقة .

الجديدة وأفريقيا والأوقيانوسية أن أصبحت البرتغالية لغة سكان البرازيل بأمريكا الجنوبية وسكان المستعمرات البرتغالية بأفريقيا وجزر المحيط الهندى ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٥٠ مليونا ينتمون إلى عدة أمم ، بعد أن كانت محصورة فى منطقة ضيقة فى بلاد البرتغال نفسها .

٣ — أن يتاح لجماعة ما أسباب مواتية للنمو الطبيعى فى أوطانها الأصلية نفسها ، فيأخذ عدد أفرادها وطوائفها فى الزيادة المطردة ، وتنشط حركة العمران فى بلادها ، فتكثر فيها المدن والقرى وتتعدد الأقاليم والمناطق ، فيتسع تبعاً لذلك نطاق لغتها ومدى انتشارها : كما حدث لليابانية والفرنسية والإيطالية . فبفضل هـــذا العامل بلغ عدد الناطقين باليابانية فى اليابان مايزيد على ٧٠ مليونا (١) ، وبفضله كذلك ، مع مساعدة العاملين السابقين ، بلغ عدد الناطقين بالفرنسية نحو ٥٠ مليونا (٢) . وبالإيطالية نحو ٤٥ مليونا (٣) .

(٢) تفرع اللغة إلى لهجات ولغات نتيجة لازمة لسعة انتشارها

متى انتشرت اللغة فى مناطق شاسعة من الأرض تحت تأثير عامل من العوامل السابق ذكرها ، وتكلم بها جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس ، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلا . فلا تلبث أن تتشعب إلى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات فى سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها ، ولاتنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين أخواتها حتى تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضها عن بعض فى كثير من الوجوه . ولـكنها تظل مع ذلك متفقة فى وجوه أخرى ، إذ يترك الأصل الأول فى كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة ولحمة نسب لغوى . وكثيراً مايبقى الأصل الأول مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منه ، ولـكنه لايلبث أن يتنحى عن ذلك بعد أن يكتمل نمو هذه اللغات .

---

(١) يدل آخر تعداد رسمى على أن عدد الشعب اليابانى بلغ ٣٠٨ ,٧٣,١١٤ . أما عدد سكان الأمبراطورية اليابانية فيبلغ ١٠٥,٢٦٦,١٠١ .

(٢) منهم بفرنسا نحو ٤١ مليونا والباقى ببلجيكا وسويسرا وكندا والمستعمرات الفرنسية .

(٣) معظمهم بايطاليا نفسها والباقى بسويسرا والمستعمرات الايطالية .

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر .
فاللغة الهندية ــ الأوروبية الأولى قد انشعبت فى ضحى الإنسانية إلى مجموعات كثيرة ، وكل مجموعة منها تفرعت إلى عدة طوائف ، وكل طائفة منها انقسمت إلى شُعب ، وكل شعبة إلى لغات . . . وهكذا دواليك (١). ومثل هذا حدث للغة السامية ــ الحامية الأولى (٢) ولجميع الفصائل اللغوية الأخرى (٣) .

وقد شهدت عصورنا التاريخية نفسها كثيراً من آثار هذا القانون . فاللغة اللاتينية ، وهى إحدى لغات الفرع الإيطالى المنشعب من الهندية ــ الأوروبية ، قد أخذت هى نفسها ، فى أواخر العصور القديمة وفى العصور الوسطى ، تنشعب إلى عدد كبير من اللهجات ، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك فى سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها ، حتى انفصلت عنها انفصالا تاما ، وأصبحت لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وقد بقيت اللاتينية مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منها (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا . . .) ؛ ولكنها لم تلبث أن تنحت عن ذلك بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات .

والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيراً من آثار هذا القانون . فلانتشار اللغة الإسبانية فى مناطق شاسعة من الأرض ، ولاختلاف الطوائف المتكلمة بها . أخذت تفقد وحدتها ، فانشعب عنها فى أمريكا الجنوبية لهجات كثيرة تختلف كل منها عن الإسبانية الأصلية اختلافا غير يسير فى كلماتها وأصواتها ؛ بل إن بعض هذه اللهجات أخذ يختلف عن الإسبانية الأصلية فى القواعد نفسها (٤) . ومثل هذا حدث بين البرتغالية فى البرتغال والبرتغالية فى البرازيل . فقد وصل الخلاف بينهما إلى القواعد نفسها بل إلى شكل الرسم كذلك (٥) . وهذا هو ما يحدث الآن للإنجليزية والألمانية . فقد أخذت إنجليزية

---

(١) انظر صفحات ١١٤ ــ ١١٧ .

(٢) انظر آخر ص ١١٧ ــ ١٢٠ .

(٣) انظر صفحات ١٢١ ــ ١٢٨ .

(٤) وقد ألف بعض العلماء كتبا مستقلة فى قواعد بعض هذه اللهجات ككتاب الاستاذ لنز Lenz قواعد لهجة شيلى .

(٥) جاء بجريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم ٢٩ / ٣ / ١٩٤٤ بصدد اتفاق هجائى لغوى بين البرتغال والبرازيل ما يلى : « تلقت وزارة الخارجية من معالى محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى إسبانيا والبرتغال تقريراً عن اتفاق هجائى لغوى عقد أخيراً بين الحكومتين البرتغالية والبرازيلية الغرض الأساسى منه تنظيم اللغة البرتغالية وتنقيحها وذلك بتوحيد شكلها الهجائى ونطق كلماتها . . . =

الولايات المتحدة بأمريكا تختلف عن إنجليزية الجزر البريطانية فى كثير من المفردات وأساليب النطق(١)، وأخذت ألمانية سويسرا تبتعد عن أصلها ويزداد تأثرها بجارتها الفرنسية، حتى توشك أن تكون لهجة متميزة عن ألمانية الألمان . وقد اتسعت مسافة الخلف بين اللهجات المتشعبة عن العربية حتى أصبح بعضها غريبا على بعض : فلهجة العراق فى العصر الحاضر مثلا لا يكاد يفهمها المصرى . غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوى بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

***

والعامل الرئيسى فى تفرع اللغة إلى لهجات ولغات هو سعة انتشارها . غير أن هذا العامل لا يؤدى إلى ذلك بشكل مباشر، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدى إلى هذه النتيجة . وباستقراء هذه العوامل فى الماضى والحاضر يظهر أن أهمها يرجع إلى الطوائف الآتية :

١ — عوامل اجتماعية سياسية تتعلق باستقلال المناطق التى انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات . وذلك أن اتساع الدولة، وكثرة المناطق التابعة لها، واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها . . كل ذلك يؤدى غالبا إلى ضعف سلطانها المركزى، وتفككها من الناحية السياسية، وانقسامها إلى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض . — وغنى عن البيان أن انفصام الوحدة السياسية يؤدى إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية .

٢ — عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحى التفكير والوجدان . — فمن الواضح أن الاختلاف فى هذه الأمور يتردد صداه فى أداة التعبير .

= وكان الوصول إلى وضع هذا الاتفاق بفضل مساعى كبار الكتاب فى البلدين . وهذا أول اتفاق من يعزز الفكرة التى ترمى إلى توحيد الشعوب التى تتكلم لغة واحدة . وختم الوزير المفوض تقريره بالاعراب عن أمنية هى أن تعمل البلاد الغربية على تنظيم لغتنا وتوحيد اصطلاحاتها وتعميم نطقها الصحيح بين مختلف الشعوب الناطقة بالضاد » .

(١) حتى أن الانجليز ليسخرون من اللهجة الأمريكية، كما يسخر الأمريكان من لهجة الانجليز، ولا يكتم كل منهم سخريته هذه حتى فى أحرج الأوقات وأدعاها إلى نسيان الفروق . يدل على ذلك ما جاء فى نشرة وزعتها القيادة الأمريكية على قواتها الموجودة فى بريطانيا، إذ تقول مخاطبة أفراد هذه القوات: « ولا تسخر باللهجة البريطانية لأن لهجتك قد تكون مثار سخرهم ولكنهم أكثر أدبا من أن يظهروا لك ذلك » جريدة الأهرام عدد ١٣ — ٧ — ١٩٤٢ .

٣ — عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها . . . وما إلى ذلك ، وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات ... وهلم جرا . — فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدى ، عاجلا أو آجلا ، إلى فروق وفواصل فى اللغات .

٤ — عوامل شعبية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى الأجناس والفصائل الإنسانية التى ينتمون إليها والأصول التى انحدروا منها . — فمن الواضح أن لهذه الفروق آثاراً بليغة فى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

٥ — عوامل جسمية فيزيولوجية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى التكوين الطبيعى لأعضاء النطق (١) . — فمن المحال مع فروق كهذه ، أن تظل اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمداً طويلا .

***

فانقسام المتكلمين باللغة الواحدة تحت تأثير هذه العوامل إلى جماعات متميزة ، واختلاف هـــذه الجماعات بعضها عن بعض فى شئونها السياسية والاجتماعية ، وفى خواصها الشعبية والجسمية والنفسية ، وفيما يحيط بها من ظروف طبيعية وجغرافية ، كل ذلك وما إليه يوجه اللغة عند كل جماعة منها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ، ويرسم لتطورها فى النواحى الصوتية والدلالية وغيرها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها ، فتتعدد مناهج التطور اللغوى حسب تعدد الجماعات ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بين اللهجات الناشئة عن هذا التعدد ، حتى تصبح كل لهجة منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها .

***

ويبدأ الخلاف بين هذه اللهجات من ناحيتين : إحداهما الناحية المتعلقة بالصوت ، فتختلف الأصوات (الحروف) التى تتألف منها الكلمة الواحدة ، وتختلف طريقة النطق بها تبعا لاختلاف اللهجات ، والأخرى الناحية المتعلقة بدلالة المفردات ، فتختلف معانى بعض الكلمات باختلاف الجماعات الناطقة بها .

أما القواعد La Grammaire ، سواء فى ذلك مايتعلق منها بالبنية (المورفولوجيا) (٢)

(١) ترجع هذه الفروق إلى عوامل كثيرة منها العاملان الجغرافى والشعبى المشار إليهما آنفاً تحت رقمى ٣ ، ٤ .
(٢) انظر صفحة ٦ رقم ب .

أو ما يتعلق منها بالتنظيم (السنتكس [١]) ، فلا ينالها فى المبدأ كثير من التغيير . وإليك مثلا اللهجات العامية التى انشعبت عن العربية بالعراق والشام والحجاز واليمن وبلاد المغرب . . . فإنه لا يوجد بينها إلا فروق ضئيلة فى نظام تكوين الجملة وتغيير البنيـــة وقواعد الاشتقاق والجمع والتأنيث والوصف والنسب والتصغير . . . وما إلى ذلك ؛ على حين أن مسافة الخلف بينها فى الناحيتين الصوتية والدلالية قد بلغت حداً جعل بعضها غريباً على بعض كما سبقت الإشارة إلى ذلك [٢] .

ولكن هذه الوحدة فى القواعد لا تقوى على مقاومة عوامل التفريق إلا لأجل معلوم ؛ ثم تهن قواها وتستسلم لهذه العوامل فيصيبها منها ما أصاب الصوت والدلالة من قبل . وحينئذ تقوى وجوه الخلاف بين اللهجات ، وتبدأ مرحلة تحولها إلى لغات مستقلة ، ولا تنفك تذهب حثيثا فى هذا الطريق حتى تبلغ غايته .

غير أنه يبقى بها ، على الرغم من هذا كله ، وجوه شبه قريبة أو بعيدة فى أصول المفردات وبعض مظاهر القواعد العامة . وإليك مثلا طوائف اللغات الهندية ـ الأوروبية . فعلى الرغم من استحكام ما بينها من حلقات الخلاف ، فإن الأصل الأول قد ترك فى كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة وتشهد بتفرعها عن أرومة واحدة .

* * *

ومن هذا يتبين أن اللغة لا تموت حتف أنفها . فما لم تصرعها لغة أخرى على الوجوه التى تقدم شرحها فى الفصل السابق ، لا يتطرق إليها الفناء . وخلودها هذا يبدو فى أحد مظهرين : فأحيانا تحتفظ بوحدتها ، وذلك إذا ظلت حبيسة على منطقة ضيقة وفئة قليلة ؛ وأحياناً تنشعب إلى لهجات ولغات ، وذلك إذا انتشرت فى مساحات شاسعة من الأرض ، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس .

* * *

ومن ثم يظهر كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالميـــة (إسپرنتو Espéranto) يتحدث بها الناس من مختلف الأمم والعصور . وذلك أن هذه اللغة الصناعية ، على فرض إمكان اختراعها وإلزام الناس باستخدامها [٣] ، لا تلبث بعد

---

(١) انظر صفحة ٦ رقم حـ .

(٢) انظر ص ١٥٨ .

(٣) هذه الأمنية ، وإن كانت ممكنة نظريا ، يحول دون تحقيقها عمليا صعوبات جمة .

تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التى تخضع لها اللغات الطبيعية والتى خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان . فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين فى أصولهم الشعبية ، وفى التكوين الطبيعى لجسومهم وأعضاء نطقهم ، وفى الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفى قواهم الإدراكية والوجدانية ، وما دامت سنة الطبيعة تقتضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له فى كل هذه الأمور ، فلابد أن تختلف هذه اللغة الصناعية فى كلماتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها ... باختلاف العصور ، وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وتنقسم إلى لهجات تختلف كل واحدة منها عما عداها ، وتتفرع منها لغات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالا تاماً وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من اللغات . وهكذا لا يمضى زمن قصير أو طويل حتى يتولد من هذا العلاج نفس المشكلة التى يحاولون القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم . . » ؛ « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين » .

(٣) اللهجات المحلية ، وصراعها بعضها مع بعض ،

ونشأة لغة الدولة أو اللغة الفصحى أو لغة الكتابة

يترتب على القانون السابق أن تختلف اللهجات فى الأمة الواحدة تبعاً لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل إقليم منها من ظروف وما يمتاز به أهله من خصائص . وقد جرت عادة علماء اللغة أن يطلقوا على هذا النوع من اللهجات اسم اللهجات المحلية Dialectes Locaux .

وتختلف هذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافا كبيراً فى المساحة التى يشغلها كل منها : فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة ؛ ومنها ما تضيق منطقته فلا تشمل إلا بضع قرى متقاربة ؛ ومنها ما يكون وسطا بين هذا وذاك . وكثيراً ما تختلف هذه المناطق اللغوية فى حدودها عن المناطق المصطلح عليها فى التقسيم الإدارى والسياسى . فقد تقسم القرى التى تتألف منها منطقة لغوية واحدة بين مديريتين أو أكثر ؛ وقد يجتمع فى مديرية واحدة أو مركز واحد عدد كبير من المناطق اللغوية . ولدينا نحن المصريين على

ذلك شواهد كثيرة فى مختلف أقاليم الصعيد والوجه البحرى .

وتعمل كل لهجة من اللهجات المحلية على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها ، فلا تدخر وسعاً فى محاربة عوامل الابتداع والتغيير فى داخل منطقتها ، ولا تألو جهداً فى درء ما يوجه إليها من خارجها من هجمات .

أما محاربة عوامل الابتداع فى داخل منطقتها فتتم بفضل العلاقات الوثيقة التى تربط الناطقين بها بعضهم ببعض وتربطهم ببيئتهم ومجتمعهم . وذلك أنه بقوة هذه العلاقات يقوى الضمير الجمعى ، وتتأكد سيطرة النظم الاجتماعية ، ويعظم نفوذها ، ويشتد بطشها بالمعتدين . فكل محاولة فردية للخروج على النظام اللغوى تلقى فى مجتمع قوى كهذا مقاومة عنيفة تكفل القضاء عليها فى مهدها . وبذلك تتقى اللهجة ما عسى أن يوجه إليها فى داخل منطقتها من محاولات الابتداع وعوامل التغيير .

وأما حمايتها من اللهجات المجاورة لها فيرجع الفضل فيها إلى ضعف الصلات التى تربط أهلها بمجاوريهم ، وقلة فرص احتكاكهم بهم ، ومايبدونه فى العادة من نزوع إلى العزلة والاستقلال . — ويظهر هذا على الأخص فى البيئات الزراعية التى تقل فيها وسائل المواصلات ، وتضعف حركة انتقال الأفراد ، ويكاد سكان كل منطقة يعيشون فى معزل عن سكان المناطق الأخرى . — حقا إن تزوج بعض الرجال فى هذه البيئات إلى نساء من غير مناطقهم ، وهجرة بعض الأفراد من بلادهم إلى البلاد المجاورة لها ، كل ذلك وما إليه يجلب إلى البلد عناصر أجنبية عنه . ولكن قلة عدد من ينفذ من الأجانب عن هذه الطرق وما شاكلها ، وانتماءهم فى الأصل إلى مناطق لغوية مختلفة ، ودخولهم البلد فرادى وفى أزمنة متباعدة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وإقامة كل منهم بين مجموعة من الناس تختلف لهجة أفرادها عن لهجته ، ومايبديه أهل المنطقة حيال لهجاتهم من سخرية وازدراء ، وصعوبة فهم حديثهم أحيانا . . . كل ذلك وما إليه لا يحول دون تأثر لهجة البلد بلهجاتهم فحسب ، بل من شأنه كذلك أن يحملهم على محاكاة لسان المنطقة التى يقيمون فيها . — وأما البيئات التجارية والصناعية والساحلية التى يكثر فى العادة احتكاك أهلها بغيرهم ، فيرجع الفضل فى حماية لهجاتها إلى قلة عدد الأجانب بالنسبة إلى سكانها الأصليين ، وانتمائهم إلى مناطق لغوية مختلفة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وقصر مدة إقامتهم ، لأن معظمهم يفد إلى

البلد فى شئون لا تقتضيه إلا إقامة ساعات أو أيام .

* * *

غير أنه قد يتاح أحياناً للهجة محلية فرص للاحتكاك الدائم بلهجة أخرى . وحينئذ تشتبك اللهجتان فى صراع أهلى لا يختلف كثيرا فى مظاهره وطرقه عن الصراع الذى ينشب بين لغتين مختلفتين والذى عالجناه فى الفصل السابق .

وينتهى هذا الصراع إلى إحدى نتيجتين : فأحياناً لا تكاد إحدى اللهجتين تؤثر فى الأخرى ، وذلك إذا تساوى أهل المنطقتين فى الثقافة والقوة والنفوذ ، وأحيانا تتأثر إحداهما بالأخرى ، وذلك إذا كانت أقل منها فى مظهر من المظاهر السابقة .

وتختلف درجة التأثر باختلاف الأحوال : فأحيانا يكون يسيراً لا ينال إلا بعض مظاهر ، وأحياناً يكون عميقا ينتهى بالقضاء على اللهجة المغلوبة .

فيكون يسيرا إذا لم تكن الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى الثقافة والنفوذ والسلطان . ويبدو هذا فى تأثر لهجة القرى بلهجة المدينة التى تجاورها أو يكون بها مقر المديرية أو المركز ، أو فى تأثرها بلهجة البلد الذى يتخذ مقرا لنقطة البوليس أو للعمدية أو التى يقام فيها السوق الأسبوعى . . . وهلم جرا . فى هذه الحالات وما إليها يقف التأثر عند حد اقتباس الكلمات والتراكيب وطرق استخدام المفردات فى معانيها الحقيقية والمجازية . . . وما إلى ذلك . أما الأساليب الصوتية وطريقة النطق بالحروف والكلمات فتظل بمنجاة من التأثر والتحريف . ومن ثم نرى أن القرى المحيطة بقاعدة مديرية من مديريات القطر المصرى قد تقتبس عنها كثيرا من ألفاظها وتراكيبها ومدلولات مفرداتها . . . ، ولكن لهجاتها تظل سليمة فيما يتعلق بالأصوات وطريقة النطق بالكلمات . فالقرى المصرية التى تقلب فى لهجاتها القاف العربية جيما غير معطشة (جلنا = قلنا) قد تجاور مدينة تختلف عنها فى هذا الأسلوب الصوتى (بأن تقلب فيها مثلا القاف العربية همزة : ألنا = قلنا) ، فتقتبس عنها كثيرا من مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها وأساليبها ، ولكن تظل طريقتها الصوتية حيال القاف العربية بمأمن من التأثر بطريقة المدينة ، اللهم إلا فى الكلمات التى تقتبسها منها .

أما إذا كانت الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى ناحية من النواحى السابق ذكرها ،

فإن التأثر يكون عميقاً لدرجة تصل أحيانا إلى القضاء على اللهجة المغلوبة . ويحدث هذا فى حالتين :

(الحالة الأولى) أن تكون إحدى المنطقتين خاضعة لسلطان المنطقة الأخرى . فى هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات السلطان ، على شريطة أن لاتقل عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآدابا . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ القديم والحديث : فلهجة باريس ، حيث مقر الحكومة والسلطان ، قد قضت على كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التى خضعت لنفوذ باريس ؛ وكذلك فعلت لهجة لندن مع عدد كبير من اللهجات الإنجليزية الأخرى ؛ ولهجة مدريد مع اللهجات الإسبانية ؛ ولهجة روما فى العصور القديمة مع أخواتها الإيطالية ؛ ولهجة قريش قبيل الإسلام مع اللهجات المضرية الأخرى . . . وهلم جرا [١] .

(الحالة الثانية) أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة الأخرى فى ثقافتها وحضارتها وآداب لغتها . فى هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان سياسى على المنطقة الأخرى . ولذلك أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة برلين [٢] ؛ وأخذت التوسكانية Toscan بإيطاليا تقهر اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادى . أى قبل أن تتكون الدولة الإيطالية الحديثة ، وقبل أن يظهر سلطان روما [٣] ؛ وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من إنتاج أدبى لايذكر بجانبه إنتاج أخواتها التى اشتبكت معها فى هذا الصراع .

وفى كلتا الحالتين السابقتين يختلف الصراع فى مدته وعنفه تبعا لمبلغ قرب اللهجتين إحداهما من الأخرى ومبلغ ثقافة المنطقة المغلوبة . فيطول أمده ويشتدعنفه كلما كثرت وجوه الخلف بين اللهجتين أو قلت ثقافة الناطقين باللهجة المقهورة . فلهجة مدريد لم تقو

---

(١) ضربنا بعض هذه الأمثلة فى الفصل السابق بصدد صراع اللغات بعضها مع بعض . وذلك لأنها تصلح أمثلة للامرين معا . فاللغات المضرية مثلا يصح اعتبار كل منها لغة مستقلة ، ويصح النظر اليها على أنها لهجات قد انشعبت عن لغة واحدة . وكذلك لهجة روما قديما مع اللهجات الايطالية . . . وهلم جرا.

(٢) على أن برلين لم تكن مهد السكسونية ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

(٣) على أن روما لم تكن مهد الايطالية الحديثة ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

بعد على التغلب على كثير من اللهجات الإسبانية الأخرى ، ولا تزال إلى الآن تلقى مقاومة عنيفة من جانبها ، وذلك لتفشى الجهل والأمية بين الناطقين بهذه اللهجات . ولهذا السبب نفسه لم يتم بعد للهجة القاهرة التغلب على لهجات المناطق المصرية المجاورة لها . — وفى القسم الفرنسى اللغة من سويسرا لا تزال اللهجات المحلية تقاوم الفرنسية الفصحى فى المناطق الكاثوليكية (ڤاليه ، فريبورج . . . Valais , Fribourg) ، على حين أنه قد تم انقراض هذه اللهجات أو كاد فى المناطق البروتستانتية (نيوشاتل ، جنيف) ؛ وذلك لأن المناطق البروتستانتية من هذا القسم أرقى ثقافة وعلماً من المناطق الكاثوليكية وأقدم منها عهداً بالمدارس . — ولسان باريس قد تغلب بسهولة على اللهجات التى كانت منتشرة فى إقليمى السين واللوار ، لقلة وجوه الخلف بينه وبينها ؛ على حين أنه لم يقو بعد على التغلب على لهجات جنوب فرنسا ولا يزال يلقى منها مقاومة عنيفة لكثرة الفروق التى تفصلها عنه .

هذا ، ويسير تغلب لهجة على أخرى على نفس السنن الذى يسير عليه تغلب اللغات المختلفة بعضها على بعض والذى أشرنا إليه فى الفصل السابق [١] . ففى المرحلة الأولى تقذف اللهجة الغالبة اللهجة الأخرى بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلى وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللهجة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بمخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات فينطق أهلها بألفاظهم الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقاً لأسلوبهم الصوتى ومخارج حروفهم ، حتى أنهم ليستبدلون فى الكلمات الدخيلة بالحروف التى لا يوجد لها نظير لديهم حروفاً قريبة منها من حروف لهجتهم . — وفى المرحلة التالية تتسرب إلى اللهجة المغلوبة أصوات اللهجة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ، فينطق أهل اللهجة المغلوبة بألفاظهم الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من نفس المخارج وبنفس الطريقة التى يسير عليها النطق فى اللهجة الغالبة ، فيزداد بذلك انحلال اللهجة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول . ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة فى الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (المورفولوجيا والسنتكس) وفى مقاومة قواعد اللهجة الغالبة ، إن كانت تختلف عنها فى القواعد [٢] فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . — وفى

(١) انظر ص ١٤٣ .

(٢) لا يكون الاختلاف فى العادة كبيراً فى القواعد بين اللهجات المتشعبة عن لغة واحدة قبل أن يستقل بعضها عن بعض وتصبح لغات منفصلة كما سبقت الاشارة إلى ذلك بآخر ص ١٥٩ وأول ١٦٠ .

المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئا فشيئا ، فتأخذ قواعد اللهجة الغالبة فى الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الإجهاز على اللهجة المغلوبة . — غير أنها كثيرا ماتترك فى ألسنة أهلها بعض آثار من قواعدها القديمة . فكثير من سكان جنوب فرنسا لايزالون يؤلفون عباراتهم فى صور تختلف عن قواعد الفرنسية الفصحى ، ولكنها تتفق مع قواعد لهجاتهم المندثرة .

***

واللهجة التى يتاح لها التغلب فى أمة ما على بقية أخواتها ، أو على معظمها تصبح عاجلا أو آجلا ، « لغة الدولة » أو ما يطلق عليه اسم « اللغة القومية » أو « اللغة الفصحى » أو « لغة الكتابة » . فتعلم وحدها فى مدارس الدولة ، ويجرى بها تدريس المواد المختلفة فى معاهدها ، وتؤلف بها الكتب والصحف والمجلات ، وتصدر بها المكاتبات الرسمية وغيرها ، وتستخدم فى مختلف مناحى الوعظ والخطابة ، وتلقى بها الأوامر ويجرى بها التخاطب فى الجيش . . . وهلم جرا [١] . فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت « لغة الدولة » بفرنسا ، وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية . وهذا هو ماحدث عقب تغلب لهجة لندن بإنجلترا ومدريد بإسبانيا واللهجة السكسونية بألمانيا والتوسكانية بإيطاليا ، فقد أصبحت هذه اللهجات هى اللغات الرسمية ، وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية .

وتسلك لغات الكتابة فى تطورها طريقا خاصة تختلف عن الطريق التى تسلكها لغات المحادثة ، كما سيظهر ذلك فى الفقرة التالية وفى الفصل السادس . ولذلك نرى أن لغة الكتابة ، مع اتفاقها فى المبدأ مع لهجة المحادثة الغالبة ، لاتلبث فيما بعد أن تختلف عنها فى كثير من الشئون ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينهما حتى تستقل كل منهما عن الأخرى . فلغة الكتابة بفرنسا تختلف الآن عن لهجة المحادثة الباريسية اختلافا غير يسير .

---

(١) قد لا يكون للأمة أى لغة قومية مستقلة ، كما هو شأن النمسا ، فان لغتها هى الألمانية . وقد يكون للدولة أكثر من لغة رسمية واحدة ، كما هو شأن سويسرا . فان بها ثلاث لغات رسميـة : الألمانية والفرنسية والايطالية . — وقد تكون اللغة الرسمية ولغة الكتابة فى الأمة هى اللغة القديمة التى انشعبت منها لهجتها ، كما كان شأن اللاتينية بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال ورومانيا ، وكما هو شأن اللغة العربية الآن بمصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا .

(٤) اختلاف مناحى اللغة الفصحى باختلاف فنون القول

لغة الآداب وخصائصها وأنواعها : الشعر والنثر

وظيفتا اللغة : الدلالة والإيحاء

كما تتشعب لغة المحادثة إلى لهجات مختلفة تبعا لاختلاف الأقاليم وما يحيط بكل أقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ، تتشعب كذلك لغة الكتابة أو اللغة الفصحى إلى شعب مختلفة تبعاً لاختلاف فنون القول التى تستخدم فيها ، وما يمتاز به كل فن منها : الشعر، النثر الأدبى ، الخطابة ، القصة ، الرسائل ، التاريخ ، القانون ، تدوين العلوم ... الخ . وذلك أن كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه فى طبيعته وأغراضه البيانية ومناهج الاستدلال فيه ، ومقدار صلته بكل من الناحيتين الوجدانية والإدراكية ، ومدى إقبال الجمهور عليه وأثره فى نفسه وتلاؤمه مع اتجاهاته وحاجاته ، ومبلغ نشاط المشتغلين به وما يخترعونه فيه من اصطلاحات ويدخلونه من أساليب ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار . . . وهلم جرا .

وغنى عن البيان أن الاختلاف فى هذه الأمور وما إليها يؤدى حتما إلى اختلاف كل فن من الفنون السابق ذكرها عما عداه فى مفرداته وأساليبه ومعانيه وأفكاره وطريقة علاجه للحقائق . . . وما إلى ذلك . وقد تتسع مسافة الخلف بين هذه الفنون فتصبح لغة كل منها أشبه شىء بلغة مستقلة . وهذا هو المشاهد الآن فى كثير من اللغات الراقية . فبمجرد سماع عبارة فى اللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات الراقية يستطاع بسهولة معرفة الفن الذى تتصل به : فعلى ضوء مفرداتها وأسلوبها ونظمها وتراكيبها وطريقة إبانتها عن الحقائق . . . يستطاع بسهولة الحكم إن كانت شعرا أم خطابة أم كتابة رسائل أم مقالا صحفيا أم بحثا علمياً . . . وهلم جرا .

✡ ✡ ✡

ومن أهم شعب اللغة الفصحى ما يسمونه لغة الأدب Langue Littéraire ، وهى التى تستخدم فى الأدب شعره ونثره . وتمتاز هذه الشعبة عن أخواتها بأن ما يتخذه غيرها وسيلة تتخذه هى غاية ، أو توجه إليه على الأقل أكبر قسط من العناية . فى جميع الشعب الأخرى (لغة العلوم ، لغة الفلسفة ، لغة التاريخ . . .) يتخذ الكلام مجرد وسيلة

للتعبير عن الحقائق . أما فى هذه الشعبة فيتخذ البيان نفسه غرضاً فى ذاته ويوجه إلى تجويده أكبر قسط من المجهود . فأهم ما يقام له وزن فى لغة الأدب هو جمال القول ، ورقة الأسلوب ، وحسن البيان ، ورصانة اللفظ ، وفصاحة الكلام ، وبلاغة التعبير .. وهلم جرا .

وتنقسم الآداب نفسها إلى فنون كثيرة ، أهمها الشعر وملحقاته ، والنثر الأدبى ، والخطابة ، والقصة . ويختلف كل فن من هذه الفنون عن إخوته فى طبيعته ، وموضوعاته ، ومواطن استخدامه ، ومقدار صلته بالوجدان والإدراك ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يناله من تطور وتجديد ، وما يرمى إليه من أغراض . . الخ . وقد ترتب على ذلك أن كان لكل فن منها خصائصه اللغوية ومميزاته فى النظم والوزن ، والتأليف الموسيقى ، وجرس الألفاظ ، وتركيب الجمل ، وطريقة الاستدلال ، وشرح الحقائق ، ومنحى الأسلوب .

وأهم ما يمتاز به الشعر عن غيره أنه يتجه أولا وبالذات إلى مخاطبة الوجدان والعواطف لا الإدراك والتفكير ، وأن غرضه الأساسى هو الإيحاء بالحقائق والإحساسات لا شرح المسائل وتقريبها إلى الأذهان . ولذلك يظهر فيه تعمد الغموض والميل إلى الإبهام ، ويسيطر على أساليبه الخيال ، ويكثر فى عباراته التشبيه واستخدام الكلمات والعبارات فى غير ما وضعت له عن طريق الكناية والمجاز ، ويبدو فيه النفور من تحليل الحقائق وكراهته التعمق فى الشرح والاستدلال . أما نظم العبارات فى أوزان خاصة فليس شرطاً أساسياً فى الشعر : فإذا توافرت الصفات السابقة فى كلام منثور اعتبر شعراً فى الاصطلاح الأدبى ؛ وإن جنح كلام منظوم إلى الشرح والاستدلال والتعمق فى توضيح الحقائق ، وتغلبت فيه وجهة الدلالة على وجهة الإيحاء ، فإنه لا يعد شعراً على الرغم من أوزانه وقوافيه .

(٥) اختلاف اللهجات فى البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وفئاتهم

« اللهجات الاجتماعية » Dialectes Sociaux

تنشعب أحياناً لغة المحادثة فى البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم : فيكون ثمة مثلا لهجة للطبقة الأريستوقراطية ، وأخرى للجنود ، وثالثة للبحارة ، ورابعة للرياضيين ، وخامسة للبرادين ، وسادسة

للنجارين . . . وهلم جرا . ويطلق المحدثون من علماء اللغة على هذا النوع من اللهجات اسم « اللهجات الاجتماعية » Dialectes Sociaux تمييزاً لها عن « اللهجات المحليـة » Dialectes Locaux التى كانت موضوع حديثنا فى الفقرة الثالثة من هـــذا الفصل (١) .

ويؤدى إلى نشأة هذه اللهجات ما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق فى الثقافة والتربية ، ومناحى التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والبيئة الاجتماعية ، والتقاليد والعادات ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم . . . وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الفوارق وما إليها من شأنها أن توجه اللهجة فى كل طبقة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ، فلا تلبث أن تتشعب اللهجة العامة إلى لهجات تختلف كل منها عن أخواتها فى المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ . . . وما إلى ذلك . وقد تذهب بعض اللهجات الاجتماعية بعيداً فى هذا الطريق ، فيشتد انحرافها عن الأصل الذى انشعبت منه ، وتتسع مسافة الخلف بينها وبين أخواتها حتى تكاد تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها ؛ كما هو شأن اللهجات الفرنسية المستخدمة بين طبقات اللصوص والمجرمين وبعض طبقات العمال Argots des Voleurs, des Malfaiteurs, et des ouvriers.

ويزداد فى العادة انحراف اللهجة الاجتماعية عن أخواتها كلما كثرت الفوارق بين الطبقة الناطقة بها وبقية الطبقات ، أو كانت حياة أهلها قائمة على مبدأ العزلة عن المجتمع أو على أساس الخروج على نظمه وقوانينه . ولذلك كانت فى فرنسا لهجات الطبقات الدنيا من العمال ، واللهجات السرية لجماعات المتصوفين والرهبان ، ولهجات المجرمين واللصوص ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافا عن الأصل الذى انشعبت منـه ،

---

(١) يرجع الفضل فى هاتين التسميتين إلى العلامة پول پاسى Paul Passy

وبعداً عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية .

ولا تظل اللهجات الاجتماعية جامدة على حالة واحدة ، بل تسير فى نفس السبيل الارتقائى الذى تسير فيه اللهجات المحلية ، فيتسع نطاقها باتساع شئون الناطقين بها ، ومبلغ نشاطهم ، واحتكاكهم بالأجانب وبأهل الطبقات الأخرى من مواطنيهم ، وما يخترعونه من مصطلحات ويتواضعون عليه من عبارات ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ، وتختلف أساليبها وطرق تركيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بالطبقات الناطقة بها . فلهجات العمال والمجرمين بفرنسا تختلف بعد الحرب العظمى اختلافا بيّناً عما كانت عليه قبل ذلك ، وتختلف فى القرن العشرين اختلافاً كبيراً عما كانت عليه مثلا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولا أدل على ذلك من أن معظم القطع التى كتبها بتلك اللهجات فى القرن الخامس عشر الشاعر الفرنسى فرنسوا ڤيلون François Villon (١) لم يُستطع بعدُ فى العصر الحاضر حل رموزها وفهم مدلولاتها .

وتؤثر اللهجات الاجتماعية فى لغة المحادثة العادية تأثيراً كبيرا ، فتستعير منها هذه اللغة كثيرا من التراكيب والمفردات ، وبخاصة المفردات التى خصص مدلولها العام واصطلح على إطلاقها على أمور خاصة تتعلق بفن أو حرفة وما إلى ذلك . فلغة المحادثة العادية بباريس فى العصر الحاضر قد دخل فيها عن هذا الطريق كثير من مفردات اللهجات الاجتماعية وبخاصة لهجات العمال والمجرمين .

ولا تتميز فى العادة اللهجات الاجتماعية بعضها من بعض تميزا واضحاً إلا فى المدن الكبيرة حيث يتكاثف السكان ، ويزدحم الناس ، وتنشط الحركة الاقتصادية ، وتتنوع الوظائف وتتعدد المهن ، ويشتد النزاع بين الطبقات : كنيويورك ولندن وباريس فى العصر الحاضر وكبغداد فى العصر العباسى .

وأهم أنواع اللهجات الاجتماعية ما يسمونه « باللهجات الحِرْفية » وهى اللهجات التى يتكلم بها فيما بينهم أهل الحرف المختلفة كالبرادين والنجارين والنقاشين والصيادين والبحارة . . . وهلم جرا . وتتميز اللهجات الحرفية بعضها من بعض تميزاً كبيرا فى المناطق التى يسود فيها « نظام الطوائف » Regime des Castes حيث تختص كل طبقة بحرفة

(١) شاعر فرنسى ولد بباريس سنة ١٤٣١ وتوفى سنة ١٤٨٩ . وقد عاش فى وسط اللصوص والمجرمين ، واتهم أكثر من مرة بالسرقة والقتل . ومن أشهر مؤلفاته « العهد الصغير » و « العهد الكبير » Petit Testament ; Grand Testament

أو وظيفة خاصة تكون وقفاً على أفرادها لا يجوز لهم ولا لأعقابهم من بعدهم الاشتغال بغيرها ، كما لا يجوز لغيرهم الاشتغال بها : كما هو الحال فى كثير من بلاد الهند . على حين أنه فى الأمم الحديثة التى قضى فيها على نظام الطوائف ، فأصبحت الحرف حظاً مشاعا بين جميع أفراد السكان ، يزاول كل منهم المهنة التى تروقه ، وينتقل إذا شاء من مهنة إلى أخرى ، وأصبحت الطبقات الاجتماعية غير واضحة الحدود ولا موصدة الأبواب على غير أهلها ، فى هذه الأمم تتداخل اللهجات الحرفية بعضها فى بعض ، ويتأثر بعضها ببعض ، وتقل بينها الفروق ، وتضعف المميزات .

* * *

هذا ، وقد خيل إلى بعض علماء « الأتنوجرافيا » أن اللهجات الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها ، بل تخلق خلقاً ، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة الواحدة ، وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها ارتجالا . وقد تابعهم فى هذا الرأى بعض القدامى من علماء اللغة ، ولذلك لم تنل هذه اللهجات كبير حظ من عنايتهم .

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو تاريخى . بل إن ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية ؛ فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالا ولا تخلق خلقاً ، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هذا إلى أن معظم هذه اللهجات منتشر بين طبقات فقيرة جاهلة منحطة المدارك ضعيفة التفكير ، لا يتاح لمثلها أن تنشىء إنشاء لغة كاملة المفردات متميزة القواعد ، بل لا يتاح لها مجرد التفكير فى مثل هذا المشروع الخطير : طبقات المتسولين واللصوص والحدادين والصيادين ... وهلم جرا .

والحق أن « اللهجات الاجتماعية » لا تختلف فى نشأتها عن « اللهجات المحلية » التى تكلمنا عنها فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل . كلا النوعين ينشعب عن اللغة الأصلية ويستمد منها أصول مفرداته ووجهة أساليبه وتراكيبه وقواعده ؛ وكلاهما تلقائى النشأة ينبعث عن مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئون البيئة . وكل ما بينهما من فرق أن السبب الرئيسى لنشأة « اللهجات المحلية » يرجع إلى اختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به أهله من خصائص ؛ على حين أن السبب الرئيسى فى نشأة « اللهجات الاجتماعية » يرجع إلى اختلاف طبقات الناس فى الإقليم الواحد وما يكتنف كل طبقة منها من شئون وما يفصلها بعضها عن بعض من مميزات فى شتى مظاهر الحياة .

غير أننا قد نعثر أحياناً فى بعض اللهجات الاجتماعية على مفردات لا أصل لها مطلقا فى لغة البلد ولا فى اللغات الأجنبية . ومفردات كهذه يغلب على الظن أنها قد اخترعت فى الأصل اختراعا من بعض الأفراد وانتشرت عن طريق التقليد. ولكن هذه الظاهرة تكاد تكون مقصورة على لهجات الطبقات الراقية ، ولا تبدو إلا فى عدد قليل من الكلمات . أما معظم المفردات فترجع أصولها إلى كلمات منحدرة من لغة البلد أو مقتبسة من بعض لغات أجنبية . غير أن الغالب أن ينالها ، مع تقادم الزمن ، كثير من التحريف والتغيير ، فتبعد بعداً كبيراً عن الأصل الذى أخذت منه . وقد تصل فى انحرافها هذا إلى درجة يخيل معها للباحث السطحى أنها ابتدعت بالتواضع والارتجال .

ولعل هذا هو ما حدا بعض العلماء على الظن بأن اللهجات الاجتماعية ناشئة عن تأليف واختراع [١] .

(٦) اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء

قد يحدث فى بعض الشعوب التى يقلّ فيها اتصال الرجال بالنساء ، أو يكون فيها كلا الجنسين بمعزل عن الجنس الآخر ، تحت تأثير نظم دينية أو تقاليد اجتماعية ، أن تختلف لهجة الرجال عن لهجة النساء اختلافاً يسيراً أو كبيراً .

وتكثر مظاهر هذا الاختلاف اللغوى كلما استحكمت حلقات الانفصال بين الجنسين ، حتى أنه لينشأ أحياناً من جرّاء ذلك لكل منهما لهجة تختلف اختلافاً بيّناً عن لهجة الآخر ، أو تشتمل لهجة كل منهما على مفردات وجمل كثيرة لا تستخدم فى اللهجة الأخرى وقد لوحظ ذلك فى بعض الشعوب البدائية على الأخص [٢] .

ويخفّ هذا الاختلاف اللغوى كلما خفت قيود الاتصال بين الجنسين ؛ فتقتصر مظاهره على بعض فروق يسيرة فى الأصوات والمفردات والجمل والأساليب ؛ كما هو مشاهد فى كثير من المناطق المصرية .

وليست هذه اللهجات فى الواقع إلا نوعاً من أنواع « اللهجات الاجتماعية » التى تقدم الكلام عنها فى الفقرة السابقة . فمعظم ما قلناه هناك فى نشأة اللهجات الاجتماعية وعواملها وتطورها . . . وما إلى ذلك ، يصدق على هذا النوع .

---

(١) يرجع الفضل فى دراسة اللهجات الاجتماعية إلى طائفة من علماء اللغة وعلماء الاجتماع . ومن أشهر من عنى بدراستها من علماء الاجتماع العلامة فان جينيب V. Van. Gennep : Essai d' une théorie des Langues Speciales (Revue des Etudes Éthnographiques et Sociologiques, juin - juillet 1908).

(٢) V. Durkheim : "La Prohibition de l'Inceste", dans "l'Année Sociologique" T. I. P. 49.

الفصل السادس

تطور اللغة وارتقاؤها

تتأثر اللغة فى تطورها وارتقائها بعوامل كثيرة يرجع أهمها إلى أربع طوائف :

(إحداها) انتقال اللغة من السلف إلى الخلف ؛

(وثانيتها) تأثر اللغة بلغة أخرى ؛

(وثالثتها) عوامل اجتماعية ونفسية وطبيعية ، كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها ، وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ومناحى وجدانها ونزوعها ، وبيئتها الجغرافية .. وما إلى ذلك [1] .

(ورابعتها) عوامل أدبية مقصودة تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة ، وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما إليها فى سبيل حمايتها والارتقاء بها . . . وهلم جرا [2] .

وسنتكلم بتفصيل فى الفصل السابع عن آثار هذه العوامل فى تطور الأصوات ، وفى الفصل الثامن عن آثارها فى تطور الدلالات والقواعد والأساليب ... وما إلى ذلك . فحسبنا هنا أن نشير إشارة مجملة إلى آثار كل طائفة منها فى التطور اللغوى العام الذى جعلناه موضوع هذا الفصل .

(١) انتقال اللغة من السلف إلى الخلف وأثره فى التطور اللغوى

على الرغم من أن الطفل يأخذ اللغة عن أبويه والمحيطين به ، فإن لغة الخلف فى كل أمة تختلف عن لغة السلف فى كثير من المظاهر ، وبخاصة مظاهر الصوت .

---

(١) تشترك هذه العوامل جميعها فى أنها من مقومات الحياة الاجتماعية ؛ ولذلك جعلناها طائفة واحدة على الرغم من اختلافها فى نوعها .

(٢) ترجع فى الواقع هذه الطائفة من العوامل إلى الطائفة الثالثة ، لأن آداب الأمة ليست إلا مظهراً من مظاهر حياتها الاجتماعية . ولكننا آثرنا فصل الطائفتين لاختلاف آثار كل منهما بهذا الصدد عن آثار الأخرى .

ويرجع جزء يسير من نواحى هذا الاختلاف إلى أمور خاصة مقصورة على بعض الأفراد : كالعيوب الصوتية التى يصاب بها بعض الناس ، وضعف السمع ، واختلال أعضاء النطق ... وما إلى ذلك . — وليس لمثل هذه الأمور شأن كبير فى تطور اللغة ؛ لأن آثارها مقصورة على أصحابها ، تبقى معهم وحدهم فى حياتهم وتختفى بموتهم .

أما معظم نواحى هذا الاختلاف وأكبرها أثراً فى تطور اللغة فترجع إلى أمور عامة يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة ويمتازون بها عن أفراد الطبقة السابقة لهم : كالارتقاء الطبيعى لأعضاء النطق فى الفصيلة الإنسانية (لأن أعضاء النطق فى تطور طبيعى مطرد ، فتختلف فى كل طبقة عنها فى الطبقة السابقة لها) ؛ والارتقاء الطبيعى للظواهر النفسية (فالقوى العقلية بمختلف أنواعها فى تطور طبيعى مطرد فتختلف فى كل طبقة عنها فى الطبقة السابقة لها ، شأنها فى ذلك شأن أعضاء النطق ، ومن الواضح أن كل تطور يحدث فى هذه القوى ينبعث صداه فى اللغة) ، والأخطاء التى تنتشر بين الصغار فى طبقة ما ولا يفطن لها الكبار لدقتها وخفائها أو يهملون إصلاحها ولا يعنون بالقضاء عليها . فالفروق اللغوية الناشئة عن هذه الطائفة من العوامل يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة ، وتمتاز بها لغتهم عن لغة الطبقة السابقة لهم .

ومن هذا يظهر أن ناحية هامة من ناحية التطور اللغوى ترجع إلى عوامل جبرية ، لا اختيار للإنسان فيها ، ولا يد له على وقف آثارها أو تغيير ما تؤدى إليه .

ومن هذا يظهر كذلك أنه ليس فى قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص . فمهما أجادوا فى وضع معاجمها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها وضبط قواعدها وأصواتها . . . ، ومهما أجهدوا أنفسهم فى إتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقا وفى وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة فى محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير فى السبيل التى تريدها على السير فيها سنن التطور والارتقاء الطبيعيين .

حقاً إنه يمكن أحيانا التحكم فى لغة الكتابة والجمود بها زمنا طويلا على أصولها القديمة أو ما يقرب منها . ولكن لغة الكتابة التى تجمد بهذا الشكل لا تمثل تمثيلا صحيحا حالة الحياة اللغوية فى الأمة ، وتتسع كثيرا مسافة الخلف بينها وبين لغة المحادثة ؛ لأن هذه اللغة الأخيرة فى تطور مطرد ، ولا تستطيع أية قوة إلى تعويق تطورها سبيلا ؛

فلا تنفك تبعد عن لغة الكتابة الجامدة ، حتى تصبح كل منهما غريبة عن الأخرى ، ويصبح تعليم لغة الكتابة فى الأمة أشبه شىء بتعليم لغة أجنبية ؛ وهذا هو ما كان عليه الحال بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال أيام أن كانت لغة الكتابة فيها هى اللاتينية ، وكانت لهجاتها المحلية مقصورة على شئون المحادثة ، وما عليه الحال الآن فى مصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا بصدد العلاقة بين لهجات المحادثة واللغة العربية الفصحى المتخذة لغة كتابة فى هذه الممالك .

على أن ظاهرة كهذه لا تكاد تبدو إلا حيث تكون لغة المحادثة غير تامة التكون ولا كاملة النمو ؛ ولا تبقى إلا ما بقيت لغة المحادثة على هذا الحال . فإذا ما بلغت هذه اللغة أشدها ، وتم تكونها ، واكتمل نموها ، واتسع متنها ، ووضحت دلالات مفرداتها ووجوه استخدامها ، وتشعبت فيها فنون القول ودقت مناحى التعبير ، وقويت على تأدية حقائق الآداب والعلوم ، أخذت تطارد لغة الكتابة وتستلبها وظائفها وظيفة وظيفة حتى تجردها منها جميعاً ، فتصبح هى لغة الكتابة ، وتقذف بلغة الكتابة القديمة فى زوايا اللغات الميتة . وهذا هو ما انتهى إليه أمر اللاتينية مع لغات المحادثة بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال .

فما أشبه لغة الكتابة الجامدة فى حالات كهذه بجبل ثلج ثابت على سطح البحر ، ولغات المحادثة المتطورة بالتيارات المائية التى تموج تحته . فمهما طال بقاء هذا الثلج ، فإن مصيره إلى التحطم والذوبان ؛ وحينئذ تطفو تلك التيارات إلى سطح البحر ، وتعيد إليه ما كان مستوراً تحت هذا الجبل الجامد من مظاهر النشاط والحياة .

(٢) تأثر اللغة باللغات الأخرى : تبادل المفردات بين اللغات

تقدم أن أى احتكاك يحدث بين لغتين أو بين لهجتين ـ أياً كان سبب هذا الاحتكاك ، ومهما كانت درجته ، وكيفما كانت نتائجه الأخيرة ـ يؤدى لا محالة إلى تأثر كل منهما بالأخرى[١] .

ولما كان من المتعذر أن تظل لغة بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى ، لذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للتطور المطرد عن هذا الطريق .

وأهم ناحية يظهر فيها هذا التأثر هى الناحية المتعلقة بالمفردات كما سبقت الإشارة

(١) انظر جميع الفصل الرابع (صفحات ١٣٨ — ١٥٣) والفقرة الثالثة من الفصل الخامس .

إلى ذلك . ففى هذه الناحية على الأخص تنشط حركة التبادل بين اللغات ويكثر اقتباسها بعضها من بعض . وقد تذهب بعض اللغات بعيدا فى هذا السبيل ، فتقتبس معظم مفرداتها أو قسما كبيرا منها عن غيرها : كما فعلت التركية مع الفارسية والعربية ، والسريانية مع اليونانية ، والفارسية مع العربية . . . وهلم جرا [١].

وأما القواعد وأساليب الصوت فلا تنتقل فى الغالب من لغة إلى أخرى إلا بعد صراع طويل بين اللغتين ، ويكون انتقالها إيذانا بقرب زوال اللغة التى انتقلت إليها واندماجها فى اللغة التى انتقلت منها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك [٢] .

ولهذا تخضع فى الغالب الكلمات المقتبسة للأساليب الصوتية فى اللغة التى اقتبستها ، فينالها كثير من التحريف فى أصواتها وطريقة نطقها ، وتبعد فى جميع هذه النواحى عن صورتها القديمة . فالكلمات التى أخذتها العربية مثلا عن الفارسية أو اليونانية قد صبغ معظمها بصبغة اللسان العربى حتى بعد كثيرا عن أصله . — ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة قد تنتقل من لغة إلى عدة لغات ، فتتشكل فى كل لغة منها بالشكل الذى يتفق مع أساليبها الصوتية ومناهج نطقها ، حتى لتبدو فى كل لغة منها غريبة عن نظائرها فى اللغات الأخرى . فالكلمات العربية مثلا التى انتقلت إلى اللغات الأوروبية قد تمثلت فى كل لغة منها بصورة تختلف اختلافاً غير يسير عن صورتها فى غيرها .

وكثيرا ما ينال معنى الكلمة نفسه تغيير أو تحريف عند انتقالها من لغة إلى لغة أو من لهجة إلى أخرى : فقد يخصص معناها العام ويقصر على بعض مايدل عليه ، وقد يعمم مدلولها الخاص ، وقد تستعمل فى غير ما وضعت له لعلاقة مابين المعنيين ، وقد تنحط إلى درجة وضيعة فى الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره ، وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه . . . وهلم جرا [٣] .

ويختلف مبلغ ما تأخذه لغة عن أخرى باختلاف العلاقات التى تربط الشعبين وما يتاح لهما من فرص للاحتكاك المادى والثقافى . فكلما قويت العلاقات التى تربط أحدهما بالآخر ، وكثرت فرص احتكاكهما ، نشطت بينهما حركة التبادل اللغوى .

---

(١) انظر ص ١٣٤ .

(٢) انظر صفحات ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) انظر آخر صفحة ١٤٢ وأول صفحة ١٤٣ . وقد ضرب العلامة Dauzat فى كتابه فلسفة اللغة Philosophie du Langage أمثلة طريفة لهذه الظواهر ، انظر آخر ص ٨٢ ، ص ٨٣ من كتابه هذا .

ولذلك تبلغ هذه الحركة أقصى شدتها حينما يسكن الشعبان منطقة واحدة أو منطقتين متجاورتين كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى الفصل الرابع[١]. — فالإنجليزية قد أخذت عن النورماندية أكثر مما أخذته عن أية لغة أخرى ، لأن الغزاة من النورمانديين قد استقر بهم المقام فى نفس بلاد الإنجليز المغلوبين[٢]. واللاتينية قد اقتبست من الإغريقية أكثر مما اقتبسته من أية لغة أخرى ، وذلك لتجاور منطقتيهما وشدة الامتزاج بين الشعبين الناطقين بهما[٣]. ولهذا السبب نفسه بلغت حركة التبادل اللغوى أقصى شدتها بين العربية والفارسية والتركية[٤]. وما اقتبسته ألمانية سويسرا من اللغة الفرنسية لا يذكر بجانبه ما اقتبسته منها ألمانية النمسا مثلا ، وذلك لأن القسم الألمانى اللغـــة فى سويسرا متاخم للقسم الفرنسى اللغة ولشدة الاحتكاك بين سكان القسمين ، على حين أن النمسا غير متاخمة لمنطقة فرنسية اللسان . وقد تسرب إلى لغة رومانيا عدد كبير من مفردات الشعبتين الصقلبية والمجرية ، على حين أن أخواتها اللاتينية الأصل (الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية) لم تكد تتأثر بهذين اللسانين ، وذلك لأن رومانيا قد انعزلت عن أخواتها اللاتينية وأحاط بها من جميع جهاتها أمم صقلبية اللسان أو مجريته .

والمفردات التى تقتبسها لغة ما عن غيرها من اللغات يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل هذه اللغات أو برّزوا فيها أو امتازوا بإنتاجها أو كثرة استخدامها . . . وهلم جرا . فمعظم ما انتقل إلى العربية من المفردات الفارسية واليونانية يتصل بنواح مادية أو فكرية امتاز بها الفرس واليونان وأخـــذها عنهم العرب[٥]. — ويتألف معظم

---

(١) انظر صفحات ١٣٨ — ١٥١ .

(٢) انظر ص ١٣٩ ، والفقرة الأخيرة بصفحة ١٤١ ، و ص ١٤٢ .

(٣) انظر ص ١٤٥ .

(٤) انظر صفحتى ١٤٥ ، ١٥٠ .

(٥) من أشهر المفردات التى انتقلت إلى العربية من الفارسية : الكوز ، الأبريق ، الطست ، الخوان ، الطبق ، والسُّكُرَّجة ، السمور — الخز ، الابريسم ، الديباج ، السندس — الياقوت ، الفيروزج ، البلور — السميذ ، الكعك ، الفالوذج — الفلفل ، الكَرَوِيَّا ، القرفة ، الزنجبيل ، الخولنجان ، الدارصينى — النرجس ، البنفسج ، السوسن ، الياسمين ، الجلنار ، المسك ، العنبر ، الكافور ، الصندل ، القرنفل ... الخ.

ومن أشهر ما أخذته العربية من اليونانية أسماء بعض آلات الرصد والجراحة وبعض مصطلحات الطب والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية وغيرها ؛ وأخذت عنها كذلك أسماء بعض المعادن والوظائف والمنشآت المعمارية وغيرها وأدوات البناء والموازين والأمتعة ... الخ : كالقبرس (وهو أجود النحاس) =

المفردات التى أخذتها الإنجليزية عن النورمانية من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهى والطعام ، وذلك لأن النورمانديين كانوا يفوقون الإنجليز كثيرا فى هاتين الناحيتين ، فغزرت مفرداتهما فى لغتهم بينما قل ورودها فى لغة الإنجليز القديمة [١] . — وقد انتقل إلى اليونانية ، ومنها إلى اللاتينية ، كثير من الكلمات الفينيقية المتصلة بشئون الملاحة والبحرية ، وذلك لأن الفينيقيين قد سبقوا غيرهم من الشعوب فى هذا المضمار . — وانتقل إلى اللاتينية كثير من الكلمات الإغريقية المتعلقة بالمصطلحات الفلسفية والدينية ، وذلك لبراعة الإغريق فى ميدان الفلسفة ولأن الدين المسيحى قد انتشر بفضلهم فى شرق الأمبراطورية الرومانية ووسطها . — وقد أخـــذت اللغات الجرمانية عن اللاتينية كثيراً من المفردات المتصلة بالقضاء والتشريع ونظم الاجتماع والسياسة . . . وما إليها ، وذلك لأن الرومان كانوا مبرزين فى جميع هذه الشئون [٢] . — ولهذا السبب نفسه انتقل إلى الفرنسية كثير من الكلمات الجرمانية المتصلة بشئون الحرب ومنها كلمة الحرب نفسها la guerre [٣] ، وكثير من الكلمات الإيطالية المتصلة بالموسيقى وآلاتها والفنون الجميلة ؛ وانتقل إلى معظم اللغات الأوروبية وغيرها المفردات الإنجليزية المتصلة بالألعاب الرياضية ، والمفردات الفرنسية المتعلقة بالأزياء وألوان الطعام .

ومن أجل ذلك تنتقل مع المنتجات الزراعية والصناعية أسماؤها فى لغة المناطق التى ظهرت فيها لأول مرة أو اشتهرت بإنتاجها أو تصدر منها فى الغالب ، فتنتشر عن هذا الطريق فى لغات البلاد الأخرى . فكلمة « الشاى » مثلا قد انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة جزرماليزيا Malaisie التى كانت المصدر الأول لهذه المادة (« شاى » فى العربية ، « thé » فى الفرنسية ، « tea » فى الإنجليزية ... الخ) . وكذلك كلمة الطباق ؛ فقد انتقلت إلى معظم اللغات الإنسانية من لغة السكان الأصليين لأمريكا حيث كشفت هذه المادة لأول مرة («طباق» فى العربية ، « tabac» فى الفرنسية، todacoe فى الإنجليزية ... الخ) . —

= والبطريق ، والقيطون (وهو البيت الشتوى) ، والقنطرة ، والفردوس (البستان) والقراميد (الآجر) ، والقسطاس (الميزان) ، والقنطار ، والبطاقة ، والسجنجل (المرآة) . . . وهلم جرا .

انظر فى ذلك فقه اللغة للثعالبى ، الباب التاسع والعشرين ؛ وانظر كذلك المزهر للسيوطى الجزء الأول ، النوع التاسع عشر .

(١) انظر صفحة ١٤٢ .

(٢) V. Dauzat : Philosophie du Langage. 105.

(٣) فهى مأخوذة من الكلمة الجرمانية القديمة Werra .

وعن هـــذا الطريق انتقل إلى اللغات الأوروبية كثير من الكلمات العربية الدالة على منتجات زراعية أو صناعية : كالليمون ، والموصلى (وهو نسيج خاص ينسب إلى الموصل) ، والزعفران ، والشراب ، والسكر ، والكافور ، والقنوة (عسل قصب السكر المجمد) ، والقهوة ، والقطن ، والقرمزى ، والكمون ، والدمشق ، (نسيج ينسب إلى دمشق) :

فى الإنجليزية Lemon, muslin, saffron, sherbet, syrup, sugar, camphor, candy, coffee, cotton, crimson, cumin, damask.

وفى الفرنسية Limon, mousseline, safran, sorbet, sirop, sucre, camphre, candi, café, coton, cramoisi, cumin, damas.

(٣) أثر العوامل الاجتماعية والنفسية والجغرافية

فى خصائص اللغة وتطورها

ونقد نظرية دو سوسور De Saussure

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة ، ونظمها وتقاليدها ، وعقائدها ، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها ، ونظرها إلى الحياة ، وأحوال بيئتها الجغرافـــية ، وشئونها الاجتماعية العامة . . . وما إلى ذلك . فكل تطور يحدث فى ناحية من هذه النواحى يتردد صداه فى أداة التعبير . ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب : فبالوقوف على المراحل التى اجتازتها لغة ما ، وعلى ضوء خصائصها فى كل مرحلة منها ، يمكن استخلاص الأدوار التى مرّ بها أهلها فى مختلف مظاهر حياتهم .

فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ، ورقى تفكيرها ، وتهذبت اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها ، وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معانى مفرداتها القديمة ، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة . . . وهلم جرا . —
واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول . فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العربى الضيق الذى امتازت به مدنيتهم فى عصر بنى أمية إلى الأفق العالمى الواسع الذى تحولوا إليه فى عصر بنى العباس ، كان لهذين الانتقالين

أجلُّ أثر فى نهضة لغتهم ورقى أساليبها واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم .

وانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة ، يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ، ويوسع نطاقها ، ويزيل ماعسى أن يكون بها من خشونة ، ويكسبها مرونة فى التعبير والدلالة . وإن موازنة بين حالة اللغة العربية فى عهد بداوة العرب قبل الإسلام وحالتها فى عهد حضارتهم الإسلامية ، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية فى عصرما وما كانت عليه فى الحضر فى نفس هذا العصر ، لأصدق برهان على ذلك . وإن البدوى الذى لم يلهمه شيطانه فى مدحه للأمير أحسن من قوله :

أنت كالكلب فى حفاظك للعهـ ـد وكالتيس فى قراع الخطوب

قد استطاعت قريحته بعد أن هذبتها حضارة بغداد أن تجود بمثل قوله :

عيون المهـا بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وما يحدث بين حضارة الأمة ولغتها من توافق وانسجام ، يحدث مثله بين لغتها ومظاهر بيئتها الجغرافية . فجميع خصائص الإقليم الطبيعية ، تنطبع فى لغة سكانه . ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة فى مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية ، وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية . ومن ثم كذلك نشأت فروق غير يسيرة بين أفراد الفصيلة اللغوية الواحـدة بل بين لهجات اللغة الواحدة .

ففى كل لغة من لغات الفصيلة السامية مثلا ، تتمثل حالة البيئة التى سكنها الناطقون بها . فالآرامية التى نشأت فى الشمال جافة الألفاظ ، قليلة المفردات ، ثقيلة التراكيب ، مضطربة القواعد ، لا تكاد تواتى الأساليب الشعرية الراقية . والعربية التى نشأت فى الجنوب أعذب اللغات السامية ألفاظاً ، وأغناها مفردات . وأدقها قواعد ، وأكثرها مرونة واتساعا لمختلف فنون القول . والعبرية التى نشأت فى منطقة متوسطة بين هاتين المنطقتين تمثل فى رقيها منزلة بين منزلتى الآرامية والعربية ؛ فقد فاقت الأولى ولكنها قصرت عن أن تدرك شأو الثانية . فألفاظها وأساليبها تتسع لكثير من مناحى القول ؛ ولكن العربية تفوقها فى مرونة التعبير ، والترف اللغوى ، وسعة الثروة فى المفردات . وقواعدها سهلة مضبوطة ؛ ولكنها لاتبلغ فى دقتها وتنوعها مبلغ قواعد اللغة العربية. — وتظهر هذه الفروق حتى فى ناحية الأصوات . فالآرامية حوشية الأصوات ، صعبة

النطق ، تلتقى فى كلماتها المقاطع المتنافرة والحروف الساكنة . والعربية عذبة الأصوات، سهلة النطق ، خفيفة الوقع على السمع ، تقل فى كلماتها الحروف غير المتحركة (١) ولا يكاد يجتمع فى مفرداتها ولا فى تراكيبها مقاطع متنافرة ، ولا يلتقى فى ألفاظها ساكنان. والعبرية وسط بين هذه وتلك : فهى لم تصل فى سهولة اللفظ إلى درجة العربية ولا فى صعوبته إلى درجة الآرامية ؛ يتخلل كلماتها حروف المد فى نطاق أوسع من الآرامية، وبدرجة تذلل كثيراً من ظواهر الصعوبة فى النطق ، ولكن بدون أن تصل فى هذه الناحية إلى الشأو الذى وصلت إليه لغة القرآن(٢) .

ولهذا السبب نفسه اختلفت اللهجات الإغريقية القديمة . فعلى الرغم من أن بلاد الإغريق كانت تشغل منطقة ضيقة ، فإن الاختلاف اليسير الذى كان بين أجزاء هذه المنطقة فى طبيعتها الجغرافية قد أحدث بين لهجات سكانها فروقا ذات بال . فاللهجة الدورية مثلا خشنة الألفاظ ، حوشية المخرج ، صعبة النطق ، ثقيلة الأصوات ؛ على حين أن اللهجة اليونية رخوة الكلمات ، سهلة النطق ، عذبة الأصوات ، يتخلل كلماتها كثير من حروف المد وأصوات اللين(٣).

ومظاهر النشاط الاقتصادى تطبع اللغة كذلك بطابع خاص فى مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها . ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة فى الأمم والمناطق تبعاً لاختلافها فى نوع الإنتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهنة السائدة : (الزراعة، الصناعة ، التجارة ، الصيد ، رعى الأنعام . . . الخ) . — وقد تؤثر هذه المظاهر فى أصوات اللغة نفسها . فقد يؤدى نوع العمل الذى يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم فى صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتى .

واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها فى شئونهم الاجتماعية العامة . فعقائد الأمة ، وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادىء فى نواحى السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة ، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم ، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع

---

(١) تكثر فى الكلمات العربية أصوات المد الطويلة (الألف ، الياء ، الواو) والقصيرة (الفتحة ، الكسرة ، الضمة) ، حتى أنه ليقل وجود حرف غير متبوع بواحد منهما .

(٢) V. Renan, L'origine du Langage , p. p 188, 189.

(٣) Renan, op. cit. p. 190

الفنون الجميلة . . . كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة فى جميع مظاهرها : فى الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب . . . وهلم جرا[1] . وإليك مثلا درجة القرابة التى تربط الفرد بكل من أسرة أبيه وأسرة أمه . فإن الأمم التى تسير نظمها الاجتماعية على إنزال هاتين الأسرتين منزلة واحدة تقريباً فى درجة قرابتهما للفرد تطلق لغتها كلمة واحدة على كل من العم والخال oncle , uncle والعمة والخالة tante , aunt وابن العم أو العمة وابن الخال أو الخالة cousin وابنة العم أو العمة وابنة الخال أو الخالة cousine . على حين أن الأمم التى تفرق نظمها الاجتماعية بين هاتين الأسرتين فى درجة قرابتهما للفرد تختلف فى لغتها الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأب عن الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأم : العم ، الخال ، العمة ، الخالة ، ابن العم ، ابن العمة ، ابن الخال ، ابن الخالة ، بنت العم ، بنت العمة ، بنت الخال ، بنت الخالة . . . — وإليك مثلا آخر مبلغ اتجاه الأمة إلى مبادىء المساواة أوانحرافها نحو نظام الطبقات . فإن ما تسير عليه نظمها الاجتماعية بهذا الصدد يؤثر فى مختلف نواحى لغتها حتى فى ناحية القواعد . فمخاطبة المفرد بضمير الجمع تعظيما له (أرجو أن تتفضلوا . . .) ، وإجراء الخطاب فى صيغة الإخبار عن الغائب (يتفضل سيدى . . .) ، كل ذلك وما إليه من أساليب التبجيل لا يبدو فى اللغة إلا حيث ينحرف الناس عن مبادىء المساواة وتكثر الفوارق بين الطبقات . ولذلك يعد تطور هذه الضمائر فى أمة ما أصدق سجل لتطور اتجاهاتها فى هذه الشئون . فالصراع فى اللغة الفرنسية بين « tu » (أنت) و « vous » (أنتم) فى مخاطبة المفرد ، يمثل أصدق تمثيل مراحل الصراع بين روح المساواة ونظام الطبقات فى الشعب الفرنسى . فقد كان الغلبة للضمير الأول فى العصور التى سادت فيها مبادىء المساواة ، وللضمير الثانى فى العصور التى وهنت فيها هذه المبادىء . ومثل هذا يقال فى اللغة العربية . فقد كان العرب فى جاهليتهم من أكثر الشعوب ميلا إلى المساواة بين الأفراد . ولذلك ساد فى خطابهم ضمير المفرد ، ولم تبد فى لغتهم مظاهر المبالغة فى التبجيل . ولكنهم لم يلبثوا بعد اتساع ملكهم ، واحتكاكهم بالأمم الأخرى ، وانغماسهم فى الترف ، ومحاكاتهم لأبهة الفرس وأساليبهم فى الحياة ، واتجاه خاصتهم

---

(١) من أجل البحوث فى هذا الموضوع وما يتصل به ما كتبه العلامة « فانييه » فى المجلد الثانى من مجلة « التربية » سنة ١٩٠٧ صفحات ٤٣٤ — ٤٦٣ تحت عنوان : « روح الأمة وطباعها ممثلة فى لغتها » V. Vannier « L' Esprit et les Mœurs d' une nation d' aprés sa langue : Revue Pédagogique 1907 . T.2 p. p. 434 — 463.

وأغنيائهم إلى الترفع عن الدهماء وطبقات المستضعفين ، لم يلبثوا بعد هذا أن انحرفوا عن مبادئهم الأولى ، فانحرفت معهم أساليب لغتهم ، وساد فيها خطاب المفرد بضمير الجمع وإجراء الخطاب فى صيغة الأخبار عن الغائب ، ونفذت إليها ألفاظ « الحضرة » و « الجناب » . . . وما إلى ذلك .

وتتشكل اللغة كذلك بالشكل الذى يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامحها ونظرها إلى الحياة . فاتجاه الإنجليز مثلا إلى الناحية العملية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية فى مفرداتها، وتراكيبها ، حتى أنه ليقال فيها : « دفع زيارة أو تحية أو شكراً أو انتباهاً » و « أنفق وقته فى كيت وكيت » و« تربح الساعة أو تخسر » .... To pay visit, compliments, attention How can I pay you for all your good ;?! » ; « He spent his time in ... » The watch gains or loses بدلا من « أدى زيارة » و « قدم تحية أو شكراً » و « أبدى انتباها » و « قضى وقته فى عمل ما » . و « الساعة تقدم أو تؤخر » .

وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب فى شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ينبعث كذلك صداه فى لغتهم ألفاظها وتراكيبها . فاللغة اللاتينية لا تستحيي أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة ، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة . على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب فى التعبير عن هذه الشئون ، فتلجأ إلى المجاز فى اللفظ وتستبدل الكناية بصريح القول : القبل ، الدبر ، قارب النساء، لمس امرأته، قضى حاجته ... الخ . ولقد كان لها بهذا الصدد فى ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ؛ « واهجروهن فى المضاجع » ؛ « لامستم النساء » ؛ « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ؛ « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ؛ « فاعتزلوا النساء فى المحيض » ؛ « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة مؤمنة من قبل أن يتماسا » ... وما إلى ذلك من كريم العبارات ونبيل الألفاظ . وما يبدو فى اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله فى اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الشمالية منها . وأكثرها تحرجا فى هذه الناحية اللغة الإنجليزية . فالبطن مثلا لا يعبر عنه فى لغة التخاطب الإنجليزية باسمه الصريح بل يطلق عليه فى الغالب the stomach (أى المعدة)[1] ؛ وسراويل الرجل تطلق عليها أحيانا كلمة معناها الأصلى « مالا يمكن التعبير عنه »

---

(١) تختصر هذه الكلمة عادة فى اللغة الدارجة فيقال tummy

Inexpressible (١)؛ وسراويل المرأة يطلق عليها كلمة معناها الأصلى « الجمع أو التركيب» Combination (٢) . . . وهلم جرا .

وخصائص الأمة العقلية ، ومميزاتها فى الإدراك والوجدان والنزوع ، ومدى ثقافتها ، ومستوى تفكيرها ومنهجه ، وتفسيرها لظواهر الكون ، وفهمها لما وراء الطبيعة . . . كل ذلك وما إليه ينبعث كذلك صداه فى لغتها (٣) . ففى الأمم الأولية الضعيفة التفكير المنحطة المدارك ، تغزر الكلمات الدالة على المحسات والأمور الجزئية ، وتنعدم أو تقل الألفاظ الدالة على المعانى الكلية ، وتخلو دلالة المفردات من الدقة والضبط ، فيكثر فيها الخلط واللبس والإبهام ، وتعرو القواعد أو تكاد تعرو من ظواهر التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة والعبارة بعضها ببعض ، ويضيق متن اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة (٤) . ومن هذا القبيل الشعوب الصينية : فلغاتها أولية ساذجة فى نواحى الألفاظ والدلالة والقواعد ، تكفى للتعبير عن ضروريات الحياة ، وشئون الصناعة اليدوية ، والأدب السهل ، والتأمل الضحل ، ولكنها لا تتسع لعلم ولا لفلسفة ولا لدين بالمعنى الصحيح لهذه الكلمات . حتى أنه لا يوجد فيها إسم للإله ، ويعبر فيها عن مسائل ما وراء الطبيعة بعبارات ملتوية مبهمة مضطربة الدلالة فى أذهان أهلها أنفسهم . — وفى الشعوب السامية القديمة ، حيث كان يسود التفكير الدينى ، وتفسر شئون الحياة تفسيراً سهلا ، وتنسب جميع الظواهر الطبيعية والإنسانيـــة إلى تدخل الأرواح والآلهة ، ويسيطر على المدارك الكسل والخمول ، وتنفر الأفكار من البحث العلمى ، وترغب عن التأمل الفلسفى ، فى مثل هذه الشعوب نرى اللغات سهلة المأخذ ، ساذجة الدلالة ، ضحلة المعانى ، قصيرة الجمل ، قليلة الروابط : تضع أجزاء الجملة وفقرات العبارة بعضها بجانب بعض ، معتمدة فى بيان وظيفة الألفاظ والجمل وعلاقة

---

(١) يطلق عليها غالبا فى اللغة الدارجة كلمة « Pants » وهى اختصار كلمة « بنطالون » .

(٢) تطلق هذه الكلمة على لباس مؤلف من السراويل والقميص ، أما السراويل وحدها فيطلق عليها أحيانا كلمة Bloomer وهو اسم سيدة أمريكية Mrs Bloomer اخترعت طرازا منه فنسب اليها (وكان يحتوى على « جاكتة » وقميص وسراويل ، ثم قصر استعمال الكلمة فيما بعد على السراويل) ؛ وأحياناً كلمة knickers وهى اختصار كلمة Knickerboker (وهذه الكلمة كانت فى الأصل اسما لشخصية روائية ألبسها المؤلف طرازاً خاصا من السراويل ، ثم شاع استعمالها فيما بعد فى سراويل السيدات) .

(٣) V. Vannier op. cit.

(٤) انظر آخر ص ٦٣ ، وأول ٦٤ (وتعليق رقم ١) وصفحات ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ .

كل منها بما عداه على ذكاء المخاطب وسياق الحديث وترتيب المفردات . . . وما إلى ذلك ؛ والروابط التى تشتمل عليها قليلة العدد ، غير متنوعة المعنى ، يرجع معظمها إلى علامات تدل على العطف وما شاكله . — وفى الشعوب الهندية — الأوروبية حيث ينشط التفكير ، ويعمق الإدراك ، ويدق البحث ، وتتجه العقول إلى التأمل الفلسفى ، وتميل إلى تفسير ظواهر الكون والمجتمع الإنسانى تفسيراً علمياً يربطها بأسبابها وقوانينها العامة ، فى مثل هذه الشعوب تكثر فى اللغات الألفاظ الدالة على المعانى الكلية ، والتراكيب المعبرة عن الحقائق العامة ، وتغزر أزمنة الأفعال [١] ، وتطول الجمل وتتعدد أجزاؤها ، وتتنوع الروابط وتختلف دلالاتها ، فتتسع للتعبير عن دقيق الوجدان ، وعميق الإدراك ، وحقائق الفلسفة والعلوم .

* * *

هذا ، وإن ما تقدم ذكره فى هذه الفقرة وفى الفصول الخمسة الأولى من هـــذا الكتاب ليدلنا أوضح دلالة على ما للمجتمع ونظمه وحضارته واتجاهاته من آثار بليغة فى نشأة اللغات [٢] وانتقالها من السلف إلى الخلف [٣] وصراعها بعضها مع بعض [٤] وانشعابها إلى لهجات [٥] وتطورها من جميع الوجوه [٦] .

وقد بالغ جماعة من العلماء فى تقدير هذه الآثار حتى كادوا ينكرون أن لغير الظواهر الاجتماعية أثراً فى شئون اللغة . ومن أشهر أفراد هذه الطائفة العلامة السويسرى فرديناند دوسوسور Ferdinand De Saussure [٧]

(١) ليس للفعل فى معظم اللغات السامية إلا زمنان : فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (أمر ومضارع للحال أو للاستقبال) ؛ على حين أن له فى اللغات الهندية ـ الأوروبية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة . وقد بلغت هذه الأزمنة فى اللغة الفرنسية أحد عشر زمنا فى الجمل الاخبارية وحدها . — انظر آخر ص ١٣٢ وأول ص ١٣٣ .

(٢) انظر الفصل الأول (٣) انظر الفصل الثانى . (٤) انظر الفصل الرابع .

(٥) انظر الفصل الخامس . (٦) انظر ١٧٥ ـ ١٨٥ .

(٧) انظر صفحتى ٥١ ، ٥٢ . يفرق دوسوسور بين اللغة Langage والكلام Parole . ويعنى بالكلام تطبيق الفرد فى تفاهمه مع غيره للنظم اللغوية التى تواضع عليها مجتمعه . فهو عمل فردى فى جوهره . ولذلك يخضع أحيانا لمؤثرات غير اجتماعية (المؤثرات الجسمية والنفسية . . . وما إلى ذلك) . أما اللغة فظاهرة اجتماعية تنشأ من طبيعة الاجتماع ويشرف عليها العقل الجمعى . ولذلك لا يكاد يكون لغير الظواهر الأجتماعية أثر ذو بال فى شئونها (انظر كتاب دوسوسور Cours de

ومذهبهم هذا يجانب جادة القصد من بعض الوجوه .

حقا أن اللغة ظاهرة اجتماعية تقتضيها حاجة الإنسان إلى التفاهم مع أبناء جنسه . فلولا الحياة الاجتماعية ما كانت اللغات (١) .

وحقاً أن أهم المؤثرات فى مختلف ظواهر اللغة ترجع إلى أمور تتعلق بالحياة الاجتماعية و نظم العمران ، كما تدل على ذلك بحوثنا فى هذا الفصل وفى الفصول السابقة من هذا الكتاب .

ولكن من الإفراط فى تقدير هذه العوامل أن ننسب اليها كل شىء و ننكر ما لغيرها من أثر فى هذا السبيل . وإن فى دراستنا السابقة نفسها لآيات على خطأ هذا المذهب . فقد رأينا أن قسطا غير يسير من ظواهر اللغة ترجع أسبابه إلى عوامل جغرافية ، وقسما كبيراً منها ترجع أسبابه إلى عوامل جسمية فيزيولوجية أو نفسية فردية (٢) . وغنى عن البيان أن هذه العوامل وما إليها ليست من مظاهر الاجتماع فى شىء (٣) . وسنرى فى الفصل السادس أن أهم المؤثرات فى التطور الصوتى خاصة ترجع إلى عوامل من هذا القبيل (٤) .

(٤) العوامل الأدبية المقصودة

وأثرها فى حياة اللغة وتطورها ، وخاصة فى لغة الكتابة

الرسم ، التجديد فى اللغة ، البحوث اللغوية ، حركة التأليف والترجمة ، وسائل تعليم اللغة

تشمل هذه الطائفة جميع ما يبذله الأفراد والهيئات من جهود مقصودة فى سبيل حفظ اللغة ، وتعليمها ، وتوسيع نطاقها ، وتكملة نقصها ، وتهذيبها من نواحى المفردات

---

(١) انظر آخر ص ٢٠ وص ٢١ ، والفصل الأول من هذا الكتاب .

(٢) انظر مثلا ٩٨ — ١٠٩ ، ١٥٩ ، وآخر ١٧٣ — ١٧٥ .

(٣) لم نعد العوامل الأدبية المقصودة من بين هذه العوامل ، لأنها — وإن كانت فردية من بعض النواحى — ترجع من بعض وجوهها إلى ظواهر اجتماعية (انظر ص ١٧٣ والتعليق الثانى بها . وانظر كذلك الفقرة الرابعة من هذا الفصل) . — هذا ، وقد حاول بعض المتعصبين لنظرية دوسوسور أن يرجع العوامل الجغرافية والجسمية والنفسية إلى ظواهر اجتماعية ، فلم تخل محاولته هذه من تعسف ظاهر .

(٤) انظر كذلك فى الرد على نظرية دسوسور Delacroix, Langage et Pensée, 47-62

والقواعد والأساليب ، وتدوين آثارها ، واستخدامها فى الترجمة والتأليف الأدبى والعلمى . . . وهلم جرا .

وتمتاز هذه الطائفة من العوامل عن الطوائف الثلاث السابقة بأنها أمور مقصودة ، تسيرها الإرادة الإنسانية ؛ على حين أن الطوائف السابقة تتمثل مظاهرها فى أمور غير مقصودة تحدث من تلقاء نفسها ، وتبدو آثارها فى صورة جبرية لا اختيار للإنسان فيها ولا يد له على وقفها أو تغيير ما تؤدى إليه . وتمتاز عنها كذلك بأن هدفها الأصلى هو لغة الكتابة ؛ بينما تتجه آثار الطوائف السابقة بشكل مباشر إلى لغات المحادثة .

ولهذه الطائفة مظاهر كثيرة من أهمها الرسم ، والتجديد فى اللغة ، والبحوث اللغوية ، وحركة التأليف والترجمة ، ووسائل تعليم اللغة . وسنعقد لكل واحد من هذه الأمور الخمسة فقرة خاصة .

أولا — الرسم :

لم يتح الرسم إلا لعدد قليل من اللغات الإنسانية . أما معظمها فقد اعتمدت حياته على مجرد التناقل الشفوى . فالشرط الأساسى لحياة اللغة هو التكلم بها لا رسمها : فكثيراً ما تعيش اللغة بدون أن يكون لها سند تحريرى ؛ ولكن من المستحيل أن تنشأ لغة أو تبقى بدون أن يكون لها مظهر صوتى . ويصدق هذا حتى على اللغات الصناعية نفسها كالاسبرنتو Espéranto وما إليها . فمن المتعذر أن تتاح الحياة للغة من هذا النوع ما لم تتداولها الألسنة وتصبح أداة للكلام . ولذلك كان أول ما يتجه إليه المفكرون فى هذا النوع من اللغات هو وضع أصواته وأسلوب نطقه والبحث فى وسائل انتشار التحدث به .

وعلى الرغم من ذلك فللرسم فى حياة اللغة ونهضتها آثار تجل عن الحصر . فبفضله تضبط اللغة ، وتدون آثارها ، ويسجل مايصل إليه الذهن الإنسانى ، وتنتشر المعارف ، وتنتقل الحقائق فى الزمان والمكان . وهو قوام اللغات الفصحى ولغات الكتابة ودعامة بقائها . وبفضله كذلك أمكننا الوقوف على كثير من اللغات الميتة كالسنسكريتية والمصرية القديمة والإغريقية واللاتينية والقوطية . . . ؛ فلولا ما وصلنا من الآثار المكتوبة بهذه اللغات ما عرفنا منها شيئاً ولضاعت منا مراحل كثيرة من مراحل التطور اللغوى .

وترجع أساليب الرسم التى استخدمت فى مختلف اللغات إلى أسلوبين اثنين :

(أحدهما) أسلوب الرسم المعنوى Idéographie. Ecriture idéographique وهو الذى يضع لكل معنى صورة خطية خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب فى لغات كثيرة منها الصينية [١] والمصرية القديمة [٢] . ولا نعلم على وجه اليقين أول أمة استخدمته ، ولكن يظهر من شواهد كثيرة أنه أقدم أساليب الرسم الإنسانى .

وترجع الصور الخطية التى تستخدم فى هذا الأسلوب إلى نوعين . فأحياناً تكون صوراً حقيقية للأشياء التى يراد التعبير عنها أو لأجزاء من هذه الأشياء ، كما يشير الرسم الهيروغليفى إلى الشمس بدائرة فى وسطها نقطة ، وإلى القمر بقوس فى وسطه نتوء ، وإلى الزنبق بثلاث فروع من شجرته فى طرف كل منها ثلاث زنبقات ، وإلى الصقر بصورته واقفاً . . . وهلم جرا . وأحياناً تكون مجرد رموز مصطلح عليها للتعبير عن الأشياء والمعانى Symbolisme ؛ كما يشير الرسم الهيروغليفى إلى الشهر بصورة هلال فى وسطه نجم ، وإلى اليوم بدائرة فى وسطها نقطة ؛ وكما يشير الرسم الصينى لمعنى « الإنسانية » بخطين يتكون منهما شكل يشبه رقم ٨ .

ولهذا الأسلوب من الرسم عيوب كثيرة . فهو أسلوب بطىء يقتضى الكاتب إسرافا كبيراً فى الوقت والمجهود . ولكثرة صوره ورموزه تبعاً لكثرة المعانى والأشياء ، يقتضى تعلمه وتعليمه جهوداً شاقة وزمنا طويلا . ولذلك يقضى كثير من الصينيين زهرة شبابهم فى المدارس بدون أن يتموا تعلم الرسم الصينى . وهو لا يقوى على تأدية وظيفته إلا فى صورة ناقصة مبتورة ؛ إذ من المستحيل ، مهما كثرت صوره وتعددت رموزه ، أن ينتظم جميع ما يخطر بالذهن الإنسانى من معان وأفكار وجميع ما ينطق به اللسان

---

(١) يرتكز الرسم الصينى على ٢١٤ رمزاً أصلياً (تسمى بالمفاتيح Clefs أو الأصول Radicaux) ، يعبر كل رمز منها عن معنى عام ، ويعين المقصود منه عدد الخطوط التى تضاف إلى هذا الرمز ونوعها .

(٢) يسمى الرسم المصرى القديم بالهيروغليفى Hiéroglyphe . وقد اجتاز هذا الرسم أربع مراحل . فقد كان فى المبدأ تصويراً للاشياء ؛ فيعبر عن الشمس مثلا بدائرة فى وسطها نقطة ، وعن القمر بقوس فى وسطه نتوء . . . وهلم جرا . ثم دخل فيه بعد ذلك طريقة الرموز البسيطة والمركبة ؛ فيعبر مثلا عن اليوم بصورة الشمس (دائرة فى وسطها نقطة) ، وعن الشهر بصورة نجم تعلوها صورة قمر مستعرضة (قوس فى وسطه نتوء) . وفى المرحلة الثالثة دخلت فيه الطريقة الصوتية المقطعية ؛ فاستخدمت مثلا الصورة التى كان يعبر بها قديما عن الفم وهى صورة الشفتين للتعبير عن مقطع « را » . وفى المرحلة الأخيرة دخلت فيه الطريقة الهجائية ؛ فاستخدمت مثلا الصورة السابقة لا للتعبير عن مقطع « را » بل للتعبير عن صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بحركة كما هو شأن الراء فى الحروف الهجائية العربية . — والمظهران الأولان فقط (الصورى والرمزى) هما اللذان يعدان من النوع الذى نحن بصدد الكلام عنه . أما المظهران الأخيران (المقطعى والهجائى) فمن النوع الثانى الذى سنتكلم عنه وهو الرسم الصوتى .

من ألفاظ وعبارات . هذا إلى أنه بمقتضاه لا يوجد للمعنى الواحد أكثر من صورة واحدة ، مع أنه فى معظم اللغات الإنسانية ، كثيراً ما يوجد للمعنى الواحد عدة ألفاظ مترادفة . فاستخدامه فى حالات كهذه يوقع فى اللبس ويؤدى إلى الاضطراب .

(وثانيهما) أسلوب الرسم الصوتى Ecriture Phonétique. ou Phonétisme الذى يضع لكل صوت صورة خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب من الرسم فى كثير من اللغات القديمة ، ويستخدم الآن فى معظم الشعوب المتمدينة .

وترجع الصور الخطية التى استخدمت فى هذا الرسم إلى طائفتين : إحداهما الصور المقطعية Syllabique وهى التى ترمز إلى مقاطع كاملة ، كما يرمز فى الهيروغليفى بشكل الشفتين إلى مقطع « را » وفى المسمارى بصورة اليد إلى مقطع « سو » ؛ والأخرى الصور الهجائية Alphabétique وهى التى ترمز إلى أصوات مفردة كما يرمز فى الرسم العربى بهذا الحرف : « ل » ، إلى صوت اللام مجردة من جميع الحركات .

ويظهر أن قدماء المصريين كانوا أول من استخدم هذا الأسلوب بنوعيه (المقطعى والهجائى) منذ أكثر من ثلاثين قرنا قبل الميـــلاد . فمن بين صور الخط الهيروغليفى ما يرمز إلى مقاطع صوتية (صورة الشفتين مثلا التى تعبر عن مقطع « را ») ، بل من بينها ما يرمز إلى مجرد أصوات مفردة (صورة الشفتين مثلا التى أصبحت ترمز فيما بعد إلى صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بأية حركة ، كما هو شأن الراء فى الحروف الهجائية العربية) . غير أن قدماء المصريين لم يستخدموا هذا الأسلوب وحده ، بل مزجوه بالأسلوب الأول . فالرسم الهيروغليفى خليط من الرسم الصوتى والرسم المعنوى ؛ يستخدم بجانب الصور المقطعية والهجائية ، صوراً حقيقية ورمزية [١] .

ومن الراجح أن الفينيقيين هم أول من استخدم الأسلوب الهجائى وحده . وقد اضطرهم إلى ذلك نشاطهم التجارى وكثرة تنقلهم وتعدد علاقاتهم بمختلف الشعوب . فقد كانت هذه الشئون تقتضيهم فى جميع أعمالهم السرعة فى الحركة ، والاقتصاد فى المجهود ، وتحرى وجوه الدقة . والأسلوب الهجائى هو أسرع أساليب الرسم ، وأيسرها وأدناها إلى الكمال . وليس من شك فى أنهم قد حاكوا فى أسلوبهم هذا ما كان يشتمل عليه الخط الهيروغليفى من صور هجائية . على أنه قد ثبت أنهم أخذوا أخذاً عن هذا

(١) انظر التعليق الثانى بصفحة ١٨٨ .

الخط نحو ثلاثة عشر حرفا من حروفهم .

وقد انتشرت حروف الهجاء الفينيقية فى معظم أنحاء العالم القديم واستخدمها كثير من شعوبه ، ومنها تفرعت بشكل مباشر أو غير مباشر جميع حروف الهجاء التى استخدمت فيما بعد فى مختلف اللغات الإنسانية .

فمن الحروف الفينيقية اشتقت الحروف العبرية القديمة ، ومن هذه اشتق الرسم العبرى الحديث (الحروف العبرية المربعة **L' hébreu carré**) الذى استخدم بعد رجوع بنى إسرائيل من نفى بابل ، وظل مستخدما إلى الآن بدون أن يناله تغيير ذو بال .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك نوعان من الرسم قريبا الشبه بالعبرية الحديثة (الحروف العبرية المربعة) : أحدهما الخط التدمرى[١] (أو البالميرينى **Palmyrénien**[٢])؛ والآخر الخط النبطى **Nabatéen** . ومن التدمرى اشتقت الحروف السريانية التى أخذت منها الخطوط المغولية والمنشورية . ومن الخط النبطى والخط السريانى اشتقت حروف الهجاء العربية .

ومن الرسم الفينيقى أخذ كذلك الرسم الآرامى . بل إن الرسم الآرامى فى أقدم أشكاله لا يكاد يختلف عن الرسم الفينيقى . وعن الآرامية أخذت الحروف الهندية الباكترياني **Indo-Bactrien** [٣] التى كانت مستخدمة فى شمال الهند ، ومن هذه الحروف اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن فى مختلف لغات الهند وسيام **Siam** وكامبدج **Campodge** (بالهند الصينية) وماليزيا **Malaisie** .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك الرسم الإغريقى ؛ ومن الرسم الإغريقى أخذت الحروف اللاتينية ، ومن الرسمين اللاتينى والإغريقى تفرعت جميع أنواع الرسم

---

(١) نسبة إلى تدمر وهى مملكة قديمة كانت تشمل جزءاً كبيراً من سوريا الحالية . — ومعنى تدمر فى العبرية بلاد النخيل .

(٢) نسبة إلى بالميرين **Plmyrène** وهو اسم فرنسى لبلاد تدمر . ومعناه فى الفرنسية هو نفس معنى تدمر فى العبرية أى بلاد النخيل .

(٣) نسبة إلى باكتريان **Bactriane** وهى منطقة قديمة كان يسكنها الايرانيون وتشمل بعض مناطق تركستان وفارس .

المستخدمة فى مختلف اللغات الأوروبية فى العصر الحاضر .

* * *

والأصل فى الرسم الهجائى أن يكون معبرا تعبيرا دقيقا عن أصوات الكلمة بدون زيادة ولا نقص ولا خلل فى الترتيب ؛ فيرسم فى موضع كل صوت من أصواتها الحرف الذى يرمز إليه ، ولا يوضع فيها حرف زائد لا يكون له مقابل صوتى . وقد حوفظ على هذا الأصل إلى حد كبير فى بعض اللغات الإنسانية ، وخاصة القديم منها . فرسم الكلمة فى السنسكريتية لا يكاد يختلف فى شىء عن صوتها (١) . ولكن معظم أنواع الرسم ، وخاصة الحديث منها ، لا تتوافر فيه هذه المطابقة . فكثيراً ما يرسم فى الكلمة حرف زائد أو حروف زائدة ليس لها مقابل صوتى فى النطق (« مائة » ، فى العربية ؛ « loup » فى الفرنسية ، « thumb » فى الإنجليزية) . ـ وكثيرا ما تشتمل الكلمة على أصوات لا تمثلها حروف فى الرسم (« هذا » فى العربية ؛ « picture » فى الإنجليزية) . ـ وكثيرا ما يرسم فى الكلمة حرف أو أكثر للتعبير عن صوت غير الصوت الذى وضع له (« dompter » فى الفرنسية ؛ « enough » ، « ocean » ، « of » فى الإنجليزية) . ـ وكثيرا ما ينطق بالحرف الواحد أو بالمقطع الواحد بصور صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف الكلمات ، أو اختلاف أزمنتها ، أو اختلاف موقعه فيها ، أو اختلاف ما يسبقه أو يلحقه من حروف . . . فيرقق فى بعض الكلمات ويفخم فى بعضها الآخر ، أو يمد فى بعضها ويقصر فى بعضها الآخر ، أو يضغط عليه فى بعضها ويرسل فى بعضها الآخر . . . ؛ وهلم جرا . (اللام فى « والله » « بالله »

« Law, low » ; « I get apiece of lead, I lead some men » ; « I will read this book, I have just read this book » ; « The lines of demarkation that separate sciences ...., this pook contains separate sciences » ; « I object against this way, the object of our book is . . . ») .

وكثيراً ما تختلف الحروف فى كلمتين ويتحد النطق بهما A piece of bread, in - time of peace

ويرجع السبب فى هذه الظواهر وما إليها إلى عوامل كثيرة من أهمها ثلاثة عوامل :

---

(١) وقد ساعد على ذلك أن الرسم السنسكريتى لم يكد يغادر صوتا من أصوات اللغة إلا وضع له حرفا يرمز إليه . ولذلك كثرت حروف الهجاء فى هذا الرسم ، وقويت على التعبير عن مختلف الأصوات . فقد بلغت ٤٦ حرفا منها ٣٣ حرفا ساكنا و ١٣ حرفا لينا ، هذا إلى ثلاث علامات للشكل .

(أحدها) أن حروف الهجاء فى معظم أنواع الرسم لا تمثل جميع أصوات اللغة التى تكتب بها . فقد جرت العادة مثلا فى معظم أنواع الرسم أن لا يوضع لكل صوت عام أكثر من حرف هجائى واحد ، مع أن الصوت العام كثيراً ما يندرج تحته أصوات مختلفة فى مخرجها ونبرتها وقوتها ومدة النطق بها وما إلى ذلك . فالصوت العام للام مثلا ليس له فى معظم أنواع الرسم الحديثة إلا حرف واحد (ل L . . .) ؛ مع أن هذا الصوت يختلف نطقه باختلاف الكلمات والمواقع . فأحياناً ينطق به مرققا (بالله ، low, hole) ، وأحياناً مفخما (والله law) ؛ وتارة ينطق به مضغوطا عليه (أقسم بالله) وأخرى ينطق به مرسلا (يستعين بالله) . . وهلم جرا ؛ ورسمه واحد فى جميع هذه الحالات . والصوت العام للألف اللينة ليس له فى العربية إلا حرف واحد ؛ مع أنه أحيانا ينطق به مستقيما ، وأحيانا ينطق به ممالا . والصوت العام للجيم ليس له فى العربية إلا حرف واحد ، مع أنه فى بعض اللهجات ينطق به مجرداً من التعطيش ، وفى بعضها ينطق به معطشاً كل التعطيش ، وفى بعضها ينطق به بين هذا وذاك [١] .

(وثانيها) أن كثيراً من أنواع الرسم يقتصر على الرمز إلى الأصوات الهامة فى الكلمة ويغفل ما عداها كأنواع الرسم السامى إذ تغفل الرمز إلى أصوات المد الطويلة والقصيرة معاً أو إلى القصيرة وحدها [٢] .

(وثالثها) أن أصوات اللغة – كما سبقت الإشارة إلى ذلك [٣] وكما سيأتى بيانه مفصلا [٤] – فى تطور مطرد وتغير دائم . فالأصوات التى تتألف منها كلمةما لا تجمد على حالتها القديمة ، بل تتغير بتغير الأزمنة والمناطق ، وتتأثر بطائفة كبيرة من العوامل الطبيعية والاجتماعية واللغوية : فأحياناً يسقط منها بعض أصواتها القديمة ، وأحياناً يضاف إليها أصوات جديدة ، وتارة يستبدل ببعض أصواتها أصوات أخرى ، وتارة تحرف أصواتها عن مواضعها فيختل ترتيبها القديم . . . ؛ وقد ينالها أكثر من تغير واحد من هذه التغيرات . على حين أن الرسم لا يساير النطق فى هذا التطور ، بل يميل غالبا إلى الجمود على حالته القديمة أو ما يقرب منها ؛ فلا يدون الكلمة على الصورة التى

---

(١) انظر صفحة ٣١ . (٢) انظر ص ١٣٠. (٣) انظر ص ١٧٤.

(٤) انظر الفصل السابع .

انتهت إليها أصواتها ، بل على الصورة التى كانت عليها من قبل . وهذا هو منشأ الخلاف فى معظم اللغات الأوروبية الحديثة بين النطق الحالى لكثير من الكلمات وصورتها فى الرسم . فمعظم وجوه هذا الخلاف ترجع إلى جمود الرسم وتمثيله لصور صوتية قديمة نالها مع الزمن كثير من التغيير فى ألسنة الناطقين باللغة .

* * *

ومع ما للرسم من الفوائد الجليلة التى أشرنا إليها فى صدر هـذه الفقرة [1] . فإن عدم مطابقته للنطق يجعل له بعض آثار ضارة . فهو يعرض الناس للخطأ فى رسم الكلمات. ويجعل تعلم القراءة والكتابة لأهل اللغة أنفسهم من الأمور الشاقة المرهقة ، ويطيل زمن الدراسة ، فيسبب إسرافاً كبيراً فى الوقت والمجهود . وما يلاقيـــه أهل اللغة من صعوبات بهذا الصدد يلاقى أضعافه الأجانب الراغبون فى تعلمها . ومن الواضح أن هذا يعوق انتشارها فى الخارج ، ويضيق سبل الانتفاع بآدابها وعلومها ، فيصعب التفاهم بين الشعوب ، وتضعف بينها حركة التبادل العلمى والثقافى . هذا إلى أن تمثيل الرسم لصور صوتية قديمة يعمل على رجع اللغة إلى الوراء وردها إلى أشكالها العتيقة . فكثيراً ما يتأثر الفرد فى نطقه للكلمة بشكلها الكتابى ، فلا يلفظها بالصورة التى انتهى إليها تطورها الصوتى ، بل ينطق بها وفق رسمها فتنحرف إلى الوضع الذى كانت عليـه فى العهود القديمة . وليس الأجانب وحدهم هم المعرضين لهذا الخطر ؛ بل إنه كثيراً ما يصيب أهل اللغة أنفسهم . وإليك مثلا الحرف المشدد فى اللغة الفرنســية فى مثل Savamment, évidemment ... الخ . فقد كان ينطق به وفق رسمه فى العصور الأولى لهذه اللغة . ثم انقرضت هذه الطريقة منذ عهد بعيد ، وأخذ الفرنسيون ينطقون به مخففاً كما ينطقون بحرف واحد (Savaman, évidaman) . ولكن منذ عهـــد قريب أخذت عادة النطق به مشدداً تظهر فى ألسنة كثير منهم تحت تأثير صورته الخطية. فمن جراء الرسم نكصت اللغة على عقبيها فى هذه الناحية خمسة عشر قرناً إلى الوراء [2].

ومن أجل ذلك كان العمل على إصلاح الرسم وتضييق مسافة الخلف بينه وبين النطق

---

(١) انظر آخر ص ١٨٧ .

(٢) ومن ذلك أيضا الحروف الساكنة (غير اللينة) فى آخر الكلمات ، فقد حذفت فى النطق الفرنسى فى معظم المفردات منذ عهد بعيد . ولكن أخذ كثير من الفرنسيين فى العصر الحاضر ينطقون=

موضع عناية كثير من الأمم فى مختلف العصور . ـ فقد ظهر فى هذا السبيل بعض حركات إصلاحية عند اليونان والرومان فى العصور السابقة للميلاد . ـ وفى أواخر القرن التاسع عشر عالج الألمان أساليب رسمهم القديم وأصلحوا كثيراً من نواحيه . ـ ومثل هذا حدث من عهد قريب فى مملكة النرويج ثم فى جمهورية البرازيل . ـ وقد بدت بهذا الصدد محاولات إصلاحية كثيرة فى البلاد الواطئة (هولاندا) وإنجلترا والولايات المتحدة ، ولكن معظم هذه المحاولات لم يؤد إلى نتائج ذات بال . ـ وأدخلت الأكاديمية الفرنسية ، يشد أزرها ويعاونها طائفة من ساسة فرنسا وعلمائها ، إصلاحات كثيرة على الرسم الفرنسى . وقد جانبت فى إصلاحاتها هذه مناهج الطفرة واتبعت سبل التدرج البطىء . فكانت تدخل فى كل طبعة جديدة لمعجمها ، بجانب التنقيحات اللغوية والعلمية ، طائفة من الإصلاحات الإملائية . وقد أقرت عام ١٩٠٦ مجموعة هامة من القواعد الجديدة فى الرسم الفرنسى . هذا إلى إصلاحات العلامة جريار Gréard التى تناولت كثيراً من نواحى الرسم ، وأقرتها الأكاديمية الفرنسية . وكانت كل مجموعة من هذه الإصلاحات تلقى مقاومة عنيفة من جانب غلاة المحافظين . وعلى الرغم من ذلك فقد عم الأخذ بها ، وكان لها أكبر فضل فى تيسير الرسم الفرنسى وتضييق مدى الخلاف بينه وبين النطق الحديث . ـ والرسم العربى نفسه قد تناولته يد الإصلاح أكثر من مرة من قبل الإسلام ومن بعده . ومع ذلك لا يزال عدد كبير من المفكرين فى عصرنا الحاضر يأخذون عليه كثيراً من وجوه النقص والإبهام ، وينادون بإصلاحه من عدة نواح وخاصة رسم الهمزة والألف اللينة وابتداع طريقة لإحلال علامات ظاهرة ترسم فى صلب الكلمة محل الفتحة والكسرة والضمة حتى يتقى اللبس فى نطق الكلمات (عَلِم ، عُلِم ، عِلمٌ ، عَلَمُ . . . الخ) . ولكن الرسم العربى ليس فى حاجة إلى كثير من الإصلاح ؛ فهو من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطا فى القواعد ومطابقة للنطق [1] .

* * *

هذا ، وعلى الرغم من المساوىء السابق ذكرها ، فإن لجمود الرسم على حالته

= بعضها تحت تأثير صورتها الخطية : «but» (نطقها الصحيح bu) قد تحولت الآن فى ألسنة كثير من الفرنسيين إلى « bute » .

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع بكتابنا « فقه اللغة » الطبعة الثانية صفحات ١٣٤ — ١٣٨ .

القديمة أو ما يقرب منها بعض فوائد جديرة بالتنويه . فهو يوحّد شكل الكتابة فى مختلف العصور ، ويسهل تناقل اللغة ، ويمكن الناس فى كل عصر من الانتفاع بمؤلفات سلفهم وآثارهم . فلو كان الرسم يتغير تبعاً لتغير أصوات الكلمات لأصبحت كتابة كل جيل غريبة على الأجيال اللاحقة له ، ولاحتاج الناس فى كل عصر إلى تعلم طرق النطق والإلمام بحالة اللغة فى العصور السابقة لهم حتى يستطيعوا الانتفاع بمخلفات آبائهم . هذا إلى أن جمود الرسم على حالته القديمة يفيد الباحث فى اللغات أكبر فائدة . فهو يعرض له صورة صحيحة لأصول الكلمات ، ويقفه على ما كانت عليه أصواتها فى أقدم عصور اللغة : فالرسم للألفاظ أشبه شىء من هذه الناحية بالمتحف للآثار .

* * *

وقد كان للرسم فى اللغات الأوربية فضل كبير فى تيسير النطق بكثير من الأسماء المتداولة المركبة من عدة كلمات . فقد جرت العادة أن يكتفى فى التعبير عن هذه الأسماء بذكر الحروف الأولى للكلمات التى تتألف منها «T. S. F. = télégraphe sans fil» «M. A. = Master of arts» ؛ وشاع هذا الاستعمال فى أسماء المخترعات والشركات والأحزاب والفرق الحربية والنظريات والشهادات العلمية ... وما إلى ذلك . وقد أنزلت هذه الرموز منزلة الكلمات وأخذ الناس يصرفونها وينسبون إليها ويشتقون منها أفعالا وصفات . وللاقتصار عليها وكثرة استخدامها فى الحديث والكتابة تنوسى أصلها عند عامة الناس ، وأصبح كثير منهم يعتقد أنها كلمات كاملة (النازى ، الأنزاك ، النافى ... الخ) .

* * *

وللرسم أثر كبير فى تحريف النطق بالكلمات التى يقتبسها الكتاب والصحفيون عن اللغات الأجنبية . وذلك أن اختلاف اللغات فى الأصوات ، وحروف الهجاء ، والنطق بها ، وأساليب الرسم ... ، كل ذلك يجعل من المتعذر أن ترسم كلمة أجنبية فى صورة تمثل نطقها الصحيح فى اللغة التى اقتبست منها . فينشأ من جراء ذلك أن ينطق بها معظم الناس بالشكل الذى يتفق مع رسمها فى لغتهم ، ويشيع هذا الأسلوب من النطق ، فتصبح الكلمة غريبة كل الغرابة أو بعض الغرابة عن الأصل الذى أخذت عنه . وليس هذا مقصوراً على اللغات المختلفة فى حروف هجائها كالعربية واللغات الأوروبية ، بل يصدق كذلك على اللغات المتفقة فى حروف الهجاء كالفرنسية والإنجليزية . فجميع

الكلمات الإنجليزية التى انتشرت فى الفرنسية عن طريق رسمها فى الصحف والمؤلفات ينطق بها الفرنسيون فى صورة لا تتفق مع أصلها الإنجليزى (boy - scout ; foot - ball ; rugby ; hockey ; sterling ; standard of living...) ، حتى أن كثيراً منها لا يكاد يتبينها الإنجليزى إذا سمعها من فرنسى .

ثانياً — حركة التجديد فى اللغة :

تبدو حركة التجديد المقصود فى مظاهر كثيرة من أكبرها أثراً فى التطور اللغوى الأمور الآتية :

١ — تأثر الأدباء والكتاب بأساليب اللغات الأجنبية ، واقتباسهم أو ترجمتهم لمفرداتها ومصطلحاتها ، وانتفاعهم بأفكار أهلها وإنتاجهم الأدبى والعلمى . فلا يخفى ما لهذا كله من أثر بليغ فى نهضة لغة الكتابة وتهذيبها واتساع نطاقها وزيادة ثروتها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الغابرة وفى العصر الحاضر . فأكبر قسط من الفضل فى نهضة اللغة العربية فى عصر بنى العباس يرجع إلى انتفاع الأدباء والعلماء باللغتين الفارسية والإغريقية. فقد أخذوا فى ذلك العصر يترجمون آثارها ، ويعقبون عليها بالشرح والتعليق ، ويستغلونها فى بحوثهم ، ويحاكون أساليبهما ، ويقتبسون منهما عددا كبيراً من المفردات العلمية وغيرها ، ويمزجونها بمفردات لغتهم عن طريق تعريبها تارة وعن طريق ترجمتها تارة أخرى ؛ فاتسع بذلك متن اللغة العربية وازدادت مرونة وقدرة على تدوين الآداب والعلوم . — ويرجع كذلك أكبر قسط من الفضل فى نهضة اللغة العربية بمصر فى العصر الحاضر إلى انتفاع الصحفيين والأدباء والعلماء باللغات الأوروبية الحديثة ، ومحاكاتهم لأساليبها ، وتعريبهم أو ترجمتهم لألفاظها ومصطلحاتها ، واستغلالهم فى مؤلفاتهم ومترجماتهم لمنتجات أهلها فى شتى ميادين الحركة الفكرية . ـ ولغة الكتابة بفرنسا فى العصر الحاضر مدينة بأهم نواحى رقيها إلى تأثرها باللغتين اللاتينية والإغريقية من جهة وباللغات الأوروبية الحديثة من جهة أخرى . فمنذ « عصر النهضة » Renaissance لم ينفك أدباء فرنسا وعلماؤها دائبين على اقتباس المفردات اللاتينية واليونانية القديمة ، ومحاكاة أساليب هاتين اللغتين ، وترسم قواعدهما ومناهجهما فى البحث [1] . وقد أخذوا منذ عهد غير بعيد يقتبسون كثيراً من المفردات والأساليب عن اللغات الأوروبية الحديثة

(١) انتشرت بفرنسا حركة المحاكاة للقواعد والأساليب اللاتينية بفضل كتاب القرن السابع عشر، وعلى الأخص بلزاك وديكارت وبوسويه Balzac, Descarts, Boussuet .

وخاصة الإنجليزية والألمانية . ـ ولولا آلاف المفردات التى اقتبسها المحدثون من أدباء ألمانيا وعلمائها من اللغة اللاتينية وما تفرع عنها ومن اللغات الأوروبية الحديثة وبخاصة الفرنسية والإنجليزية ، ما قويت لغة الكتابة بألمانيا أن تصل إلى الشأو الذى هى عليه الآن . ـ ومثل هذا يقال فى معظم لغات الكتابة فى العصر الحاضر .

وكثيراً ما تقتبس لغة الكتابة عن اللغات الأخرى مفردات لها نظير فى متنها الأصلى؛ وكثيراً ما تقتبس مفردا من لغة وتقتبس نظيره فى الدلالة عن لغة أخرى . وإلى هذه الظواهر وما إليها يرجع السبب فى كثرة الألفاظ المترادفة (المشترك المعنوى) فى لغات الكتابة . فما يذهب إليه بعضهم من أن الترادف بالمعنى الكامل لهذه الكلمة لا وجود له فى اللغات ، ليس صحيحاً إلا فيما يتعلق ببعض لغات المحادثة التى تظل بمأمن من الاحتكاك باللغات الأخرى . أما لغات الكتابة التى يستحيل بقاؤها بمعزل عن غيرها، ولغات المحادثة التى يتاح لها هذا الاحتكاك ، فلا تخلو من الترادف بالمعنى الصحيح ، للسبب الذى ذكرناه .

٢ ـ إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة . فكثيرا ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن معان لا يجدون فى المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً ، أو لمجرد الرغبة فى استخدام كلمات غريبة ، أو فى الترفع عن المفردات التى لاكتها الألسنة كثيراً . وبكثرة الاستعمال ، تبعث هذه المفردات خلقا جديداً ، ويزول مافيها من غرابة ، وتندمج فى المتداول المألوف . ولا يخفى ما لذلك من أثر فى نهضة لغة الكتابة واتساع متنها وزيادة قدرتها على التعبير . وقد سار على هذه الوتيرة بمصر فى العصر الحاضر كثير من الأدباء والعلماء والصحفيين ، فردوا بذلك إلى اللغة العربية جزءاً كبيراً من ثروتها المفقودة ، وكشفوا عن عدة نواح من كنوزها المدفونة فى أجداث المعاجم .

٣ ـ خلق الأدباء والعلماء لألفاظ جديدة . فكثيراً ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن أمور لا يجدون فى مفردات اللغة المستعملة ولا فى مفرداتها الداثرة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقا . وقد لا يضطرهم إلى ذلك إلا مجرد الرغبة فى الابتداع ، أو مجانبة الألفاظ المتداولة المألوفة ، أو إبراز المعنى فى صورة رائعة وتثبيته فى الأذهان وتذليل سبل انتشاره بالإغراب فى تسميته . وقد عم استخدام هذه الطريقة فى الأمم الأوروبية منذ القرن التاسع عشر ، وكثر التجاء الأدباء والعلماء إليها بنوع خاص فى تسمية

المستحدث من المخترعات الصناعية والمصطلحات العلمية والأحزاب والمبادىء السياسية والاجتماعية، وفى التعبير عن بعض معان دقيقة فى عالم الأدب والفلسفة ، فناءت مؤلفاتهم بهذه الكلمات المصنوعة ، وتألف منها معظم المصطلحات فى الفلسفة وعلم النفس والعلوم الطبيعية والطب والصيدلة . . . وما إلى ذلك . وقد صبغ معظم هذه المصطلحات بصبغة دولية ، فأقرته المؤتمرات والهيئات العلمية الممثلة لمختلف الأمم الأوروبية وعم استخدامها فى لغاتها (تلغراف ، تليفون ، سوسيولوجيا ، جيولوجيا . . . الخ) . وقد أجاز المجمع اللغوى بمصر الالتجاء إلى هذه الطريقة حيث تدعو إلى ذلك ضرورة ، بأن لا يوجد فى مفردات اللغة متداولها ومهجورها ما يعبر تعبيراً دقيقاً عن الاصطلاح المراد التعبير عنه .

ولا يخفى ما لهذه الوسيلة من أثر فى نهضة لغة الكتابة ، واتساع متنها ، ودقة مصطلحاتها ، وزيادة مرونتها وقدرتها على التعبير .

وقد ارتضى الأدباء والعلماء بعض قواعد عامة فى وضع هذه الألفاظ . ويستعينون عادة فى تكوينها بالنحت والاشتقاق الأكبر ومزج كلمتين أو أكثر فى كلمة واحدة . ويستمدون أصولها من اللغات الحية أو الميتة وخاصة اللاتينية واليونانية القديمة . وكثيرا ما يستعان فى تكوينها بأكثر من لغة واحدة . فمن هذه المفردات ماهو مؤلف من لغتين « سوسيولوجيا » أى علم الاجتماع ، فصدر الكلمة « سوسيو » من أصل لاتينى معناه الجمعية وعجزها « لوجيا » من أصل يونانى معناه المقال أو البحث أو الخطبة :
("Sociologie" du latin "societas"=société, et. du grec "logos,=discours.)
بل منها ماهو مؤلف من ثلاث لغات (« بيسيكلت » أى الدراجة فإن « بى » من أصل لاتينى يدل على التثنية ، و « سيكل » من أصل يونانى معناه الدائرة ، و « إت » علامة فرنسية للتصغير
(Bicyclette : du latin « bi » = deux fois, et du grec « kuklos » = cercle, et du suffixe diminutif français « tte »).

وقوام هذه المفردات هو التواضع والاصطلاح . ولذلك كثيرا ما تختلف معانيها اختلافاً يسيرا أو كبيرا عن معانى الأصول التى استمدت منها .

ولا تبقى هذه الألفاظ جامدة على الحالة التى وضعت عليها . بل ينالها ما ينال غيرها من المفردات ، وتخضع فى تطورها الصوتى والدلالى لنفس القوانين العامة التى تخضع لها الألفاظ الأصيلة . فبمجرد أن يقذف بها فى التداول اللغوى وتتناقلها الألسنة ، تفلت من إرادة مخترعيها وتخضع لنواميس التطور العامة المسيطرة على ظواهر الصوت

والدلالة . فاللفظ الموضوع أشبه شيء بحجر يقذف به القاذف فى جهة معينة بقوة خاصة، فإنه بمجرد أن يفارق يده يخضع فى سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره على تعطيلها أو وقف آثارها . ولذلك يختلف الآن النطق بالألفاظ الموضوعة ويختلف رسمها باختلاف الأمم واللغات . والأسلوب الصوتى الذى كانت تلفظ به منذ قرن أو قرنين مثلا غير الأسلوب الصوتى الذى تلفظ به الآن . وقد أخذ كثير منها عند جميع الكتاب أو عند بعضهم ينحرف فى دلالته نفسها عن المعنى الذى وضع له فى الأصل.

ثالثا . ـ المؤلفات اللغوية

وهى البحوث التى ترمى إلى حفظ اللغة وضبطها وسلامتها وتخليدها والوقوف على خواصها وتاريخها وآثارها . . . وما إلى ذلك . فتشمل المعاجم ودوائر المعارف وكتب القواعد بمختلف أنواعها (النحو ، الصرف ، الاشتقاق ، الوضع ، البيان ، المعانى، البديع . .. الخ) ، وأدب اللغة وتاريخه ، ودراسة أصوات اللغة ومخارج حروفها ودلالة كلماتها وحياتها والأدوار التى سارت فيها من مختلف نواحيها . . . وهلم جرا .

فلا يخفى ما لهذه الجهود من أثر جليل فى حياة لغة الكتابة وحفظها من التحريف وتهذيبها ونهضتها ونقلها من السلف إلى الخلف .

رابعاً ـ نشاط التأليف والترجمة فى الآداب والعلوم والفنون والصحافة ... وما إلى ذلك

فمن الواضح أنه لا حياة للغة الكتابة بدون استخدامها فى هذه الشئون ، وأنه بمقدار نشاط أهلها فى هذه الميادين تتاح لها وسائل الانتشار والرقى والنهوض .

خامسا ـ تعليم لغة الكتابة

تقوم معاهد التعليم فى مختلف الأمم بأهم ناحية من هذه الوظيفة ، وإليها يرجع أكبر قسط من الفضل فى حياة اللغة وتخليدها وسلامتها وما يتاح لها من نهوض . فهى التى تعلم الصغار الكتابة والقراءة وتقوّم ألسنتهم وتصلح فاسد نطقهم وتأخذهم بآداب اللغة وأساليبها ، وتفقهم على قواعدها وتلقنهم آثارها ، وتبعث فى نفوسهم حبها وإجلالها، وتدرس لهم بها مختلف المواد فتزيدها تثبيتاً فى أذهانهم ، وتقدرهم على استخدامها فى مختلف مناحى التعبير .

وتعتمد معاهد التعليم فى أدائها لهذه الوظائف الجليلة على العوامل الأربعة السابق ذكرها ، وعلى طرق إعداد المعلمين ومؤلفات التربية وأساليب التعليم . . . وما يتصل

بذلك، وعلى ما تلقاه من إشراف وتعضيد ومعونة من جانب أولى الأمر والأسرات والهيئات والأفراد.

٭ ٭ ٭

ولا يفوتنا قبل أن نختم هذه الفقرة أن نشير إلى أن كل تطور أو رقى فى لغة الكتابة يؤثر بطريق غير مباشر فى لغة الحديث. فطبقات الخاصة تعمل جاهدة على تقريب لغة حديثها من اللغة الفصحى؛ وانتشار التعليم الأولى يساعد على تهذيب لغة الكلام فى طبقات العامة ويدنو بها من لغة الكتابة. فالعوامل السابق ذكرها فى هذه الفقرة — وإن اتجه أثرها أولا وبالذات إلى لغات الكتابة — تؤثر بطريق غير مباشر فى لغات التخاطب.

الفصل السابع

أصوات اللغة : حياتها وتطورها

(الفونيتيك Phonétique)[1]

ترجع أهم ظواهر اللغة إلى قسمين رئيسيين : الظواهر المتعلقة بالصوت ، والظواهر المتعلقة بالدلالة . وكلتا الناحيتين فى تطور مطرد وتغير مستمر . وهى فى تطورها تتأثر بعوامل شتى وتخضع لطائفة كبيرة من القوانين .

وسندرس فى هذا الفصل ما يتعلق بالصوت وتطوره ، ونقف الفصل التالى على الأمور المتصلة بالدلالة .

(١) خواص التطور الصوتى وعوامله

للتطور الصوتى خواص كثيرة أهمها ما يلى : [2]

١ — أنه يسير ببطء وتدرج . فاختلاف الأصوات اللغوية فى جيل عما كانت عليه فى الجيل السابق له مباشرة لا يكاد يتبينه إلا الراسخون فى ملاحظة هذه الشئون ؛ ولكنه يظهر فى صورة جلية إذا وازنا بين حالتيهما فى جيلين تفصلهما مئات السنين . فلغتنا لا تكاد تختلف فى أصواتها عن لغة آبائنا المباشرين ؛ ولكنها تختلف اختلافا بيناً فى هذه الناحية عما كانت عليه فى ألسنة أجدادنا فى العصور الوسطى أو فى صدر العصور الحديثة .

٢ — أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلى لا دخل فيه للإرادة الإنسانية . فتحول صوت الثاء العربية مثلا إلى تاء (ثلاثة ، تلاتة) ، والذال إلى دال (ذراع ، دراع) ، والظاء إلى ضاد (الظل ، الضل) ، والقاف إلى همزة (قلت ، ألت) أو جاف (جيم غير معطشة : قلت ، جلت) ، وانقراض الأصوات التى كانت تلحق أواخر الكلمات

---

(١) انظر رقم ٣ بصفحة ٥ .

(٢) أشرنا إلى كثير من هذه الخواص فى الفصول السابقة . انظر صفحات ١٧ ، وآخر ٤٥ ، ٤٦ ، وآخر ١٧٣ — ١٧٥ .

للدلالة على إعرابها ووظائفها فى الجمل (كنتُ أحسبُ أن كتابَ محمد أحسنُ من كتاب علىٍّ ، كنتْ أحسبْ أن كتابْ محمدْ أحسنْ من كتابْ على) . . . كل ذلك وما إليه قد حدث من تلقاء نفسه بطريق آلىّ لا دخل فيه للتواضع أو إرداة المتكلمين .

٣ — أنه جبرى الظواهر ، لأنه يخضع فى سيره لقوانين صارمة ، لا اختيار للإنسان فيها ، ولا يد لأحد على وقفها أو تعويقها أو تغيير ما تؤدى إليه . وإليك مثلا حالة اللغة العربية فى صدر الإسلام وما آلت إليه الآن : فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من تحريف ، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين ، فإن ذلك كله لم يحل دون تطور أصواتها إلى الصورة التى تتفق مع نواميس التطور اللغوى ، فأصبحت على الحالة التى هى عليها الآن فى اللغات العامية .

٤ — أنه فى غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان . فمعظم ظواهر التطور الصوتى يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص ، ولا نكاد نعثر على تطور صوتى لحق جميع اللغات الإنسانية فى صورة واحدة . فتحول صوت القاف مثلا إلى همزة (قلت ، ألت) لم يظهر إلا فى بعض المناطق المصرية ومنذ عهد غير بعيد ؛ وتحول صوت a الواقع فى نهاية بعض الكلمات اللاتينية إلى صوت e لم يظهر إلا عند الفرنسيين ، ولم يبد أثره لديهم إلا فى أثناء المدة المحصورة بين نهاية القرن الثامن وأوائل القرن الرابع عشر .

٥ — أنه إذا لحق صوتا معينا فى بيئة ما ظهر أثره فى جميع الكلمات المشتملة على هذا الصوت وعند جميع الأفراد الذين تكتنفهم هذه البيئة . فتحول القاف العربية مثلا إلى همزة فى بعض المناطق المصرية قد ظهر أثره فى جميع الكلمات المشتملة على هذا الصوت وعند جميع أفراد هذه المناطق (١) .

ومن هذا يظهر فساد كثير من النظريات القديمة بهذا الصدد :

فليس بصحيح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن تطور الأصوات يحدث نتيجة لأعمال فردية اختيارية تنتشر عن طريق التقليد والمحاكاة (٢) .

وليس بصحيح كذلك ما كانت تقول به المدرسة الإنجليزية من عهد سايس Sayce إلى عهد سويت Sweet من أن التطور الصوتى يتجه باللغة نحو التهذيب والكمال ؛ ولا

(١) لهذه الخواص بعض استثناءات لا يتسع المقام لذكرها ، ومعظمها يمكن رجعه إلى القوانين العامة لحياة اللغات .

(٢) انظر ص ٤٤ .

ما ذهب إليه العلامة بول باسى Paul Passy من أنه يتجه نحو إظهار العناصر الأساسية فى الكلمة وتجريدها مما عسى أن يكون بها من أصوات لا تدعو إليها كبير ضرورة ، فيخفف بذلك من ثقلها ويزيدها تميزا . وذلك أن اتجاهات كهذه لا يمكن أن تتحقق إلا فى تطور اختيارى مُقصود تقوده الإرادة الإنسانية فى سبيل الإصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الصوتى تطور تلقائى آلىّ لا دخل فيه للإرادة الإنسانية فلا يتصور أن يتقيد فى اتجاهه بالسبل التى تقول بها هذه النظريات . وإن موازنة بين حالة الكلمات فى اللغة العربية الفصحى وما آلت إليه فى اللغات العامية لأكبر دليل على ما نقول . فمن الواضح أن هذا التطور لم يتجه نحو التهذيب والكمال ، ولم يحقق زيادة تميز للكلمات ، بل أدى فى معظم مظاهره إلى اللبس فى وظيفة الكلمات ودلالتها ، وجرد اللغة مما بها من دقة وسمو ، وهوى بها إلى منزلة وضيعة فى التعبير . وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى كثير من اللغات الإنسانية الراقية . فكثير من الكلمات اللاتينية مثلا كانت واضحة الشخصية مميزة الأصوات ، ثم فقدت بعد تطورها شخصيتها ومميزاتها ، وأصبحت فى حالة يكتنفها اللبس والإبهام . ويظهر هذا بالموازنة بين كلمة aqua اللاتينية مثلا وما انتهت إليه فى الفرنسية إذ استحالت إلى صوت واحد من أصوات اللين (eau وينطق بها ô) .

وليس بصحيح كذلك ما ذهب إليه مكس مولر Max Muller وونتى Whitney من أن التطور الصوتى يتجه نحو تسهيل النطق ويعمل على تحقيق الاقتصاد فى المجهود(١) . وذلك أن هذا الاتجاه من قبيل الاتجاهات التى تقول بها النظريات السابقة . فهو مثلها لا يمكن أن يتحقق إلا فى تطور اختيارى مقصود تقوده الإرادة الانسانية فى سبيل الإصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الصوتى تطور تلقائى آلىّ لا دخل فيه للإرادة الإنسانية ، فلا يتصور أن يتقيد فى اتجاهه بالخطة التى تقول بها هذه النظرية . حقا إن الحالة التى تتطور إليها أصوات الكلمة فى جيل ما تكون دائماً أكثر من حالتها الأولى تلاؤما مع طبيعة أعضاء النطق واستعدادها عند أهل هذا الجيل كما سيأتى بيان ذلك (٢) . ولكن لفظها قد يتطلب من الأعمال الصوتية وحركات أعضاء النطق أكثر مما يتطلبه لفظ الكلمة القديمة ، فلا يتحقق حينئذ الاقتصاد الذى تقول به هذه النظرية . ويظهر هذا

(١) «Loi du moindre effort»(Max Muller)—«Principe d'économie»(Whitney).—V. Dauzat : Philosophie du Langage. P.166 ; Patois .P. 117.

(٢) انظر آخر ص ٢٠٤ وتوابعها .

مثلا بالموازنة بين الكلمة العربية « ماء » وما انتهت إليه فى عامية القاهرة إذ أصبحت « مَـيَّه » وبين الكلمة العربية « ذا الوقت » وما انتهت إليه فى عامية بعض مقاطعات الشرقية أصبحت « دَلْـوَجيتى » وبين الكلمة اللاتينية caballicet [١] وما انتهت إليه فى فرنسية العصور الوسطى إذ أصبحت chevalcet (وكان ينطق بها tchevalst).

* * *

أما العوامل التى تؤدى إلى تطور الأصوات فيرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

١ — التطور الطبيعى المطرد لأعضاء النطق فى تكوينها واستعدادها ؛

٢ — اختلاف أعضاء النطق فى تكوينها واستعدادها باختلاف الشعوب races ؛

٣ — الأخطاء السمعية ؛

٤ — تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض ؛

٥ — موقع الصوت فى الكلمة ؛

٦ — تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض ؛

٧ — أثر الأمور النفسية والاجتماعية والجغرافية ؛

٨ — أثر العوامل الأدبية .

وقد تكلمنا بما فيه الكفاية فى الفصلين الخامس والسادس عن أثر العاملين الأخيرين فى التطور الصوتى [٢] . فحسبنا هنا أن نذكر كلمة عن أثر كل عامل من العوامل الستة الأولى فى هذا التطور .

(٢) التطور الطبيعى المطرد لأعضاء النطق

ونظرية روسلو Rousselot

من المقرر أن أعضاء النطق فى الإنســـان فى تطور طبيعى مطرد فى تكوينها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها . فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلوقنا . . . وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين ، إن لم يكن فى تكوينها الطبيعى ، فعلى الأقل فى استعداداتها [٣] ؛ بل إنها لتختلف عما كانت عليه عند آبائنا

(١) Troisième personne du subjonctif présent du verbe chevaucher

(٢) انظر صفحات ١٥٦ — ١٦٦ ، ١٦٨ — ١٧٢ ، ١٧٩ — ١٨١ ، ١٩٣ ـ ١٩٦ .

(٣) يكاد العلماء يجمعون على أن أعضاء النطق تختلف بعض الشىء فى تكوينها واستعدادها =

الأقربين . غير أن هذا التطور يسير ببطء وتدرج ؛ ولذلك لا يبدو أثره بشكل واضح إلا بعد زمن طويل .

وغنى عن البيان أن كل تطور يحدث فى أعضاء النطق أو فى استعدادها يتبعه تطور فى أصوات الكلمات ، فتنحرف هذه الأصوات عن الصورة التى كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق .

وقد كان لكشف هذه الحقيقة أكبر فضل فى نهضة البحوث اللغوية المتعلقة بالصوت ، وفى القضاء على كثير من النظريات الفاسدة التى أشرنا إلى بعضها فى الفقرة السابقة [١] .

وقد اهتدى لهذا الكشف ، من قبل العلامة روسلو Rousselot [٢] ، عدد كبير من الباحثين ، نخص بالذكر منهم هرمان بول Herman Paul [٣] . ولكن جرت العادة بنسبته إلى العلامة روسلو ؛ لأنه وقف قسطاً كبيراً من جهوده على دراسته وتدعيمه بالأدلة القاطعة وتحرى حقائقه بوسائل البحث القديمة وبوسيلة جديدة لم يكد يسبقه أحد إليها ، وهى وسيلة الأجهزة (الفونيتيك التجريبى [٤]) .

وليس من الميسور وضع قواعد عامة مضبوطة لاتجاهات هذا التطور ؛ لأن الأمر يختلف اختلافا كبيراً باختلاف اللغات والبيئات والشعوب كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى الفقرة السابقة [٥] . ولذلك سنقتصر بصدد هذا العامل على ضرب أمثلة من الظواهر الصوتية المترتبة عليه .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والثاء والذال والظاء والقاف . فقد أصبحت هذه الأصوات ثقيلة على أعضاء النطق فى كثير من البلاد العربية ، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب تلقيناً خاصاً ومجهوداً إراديا وقيادة مقصودة

= باختلاف الشعوب وباختلاف الظروف المحيطة بكل شعب كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرة التالية ؛ ويكادون يجمعون كذلك على أنها فى الشعب الواحد والظروف المتشابهة تتطور استعداداتها وتختلف باختلاف العصور . أما تطور تكوينها الطبيعى فى الشعب الواحد والظروف المتشابهة فقد اختلف العلماء بصدده : فمن منكر له ؛ ومن قائل به . والمذهب الأخير هو الأدنى إلى الصواب .

(١) انظر صفحات ٢٠٢ — ٢٠٤ . (٢) انظر أواخر ص ٤٦ .

(٣) انظر صفحات ٤٣ ، ٤٤ ، وآخر ٤٥ ، ٤٦ .

(٤) انظر صفحات ٣٢ — ٣٤ .

(٥) انظر رقم ٤ بصفحة ٢٠٢ .

لحركات المخارج . ولعدم ملاءمتها مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق فى هذه البلاد أخذت تتحول منذ أمد بعيد إلى أصوات أخرى قريبة منها . فالصوت الأول (الجيم) الذى كان ينطق به معطشا بعض التعطيش فى العربية الفصحى قد تحول فى معظم المناطق المصرية إلى جاف (جيم غير معطشة) ، وفى معظم المناطق السورية والمغربية إلى جيم معطشة كل التعطيش (J)[١] . ـ والثاء قد تحولت إلى تاء فى معظم المناطق المصرية وفى بلاد أخرى (فيقال : توب ، تلج . تخين ، تعلب، تعبان، تقل ،تئيل ، تلت، تلاتة ،تمن ، تمانية، تور ، اتنين ،نتر، جتة ، عتة ، عتر . . . الخ ، بدلا من : ثوب ، ثلج ، ثخين ، ثعلب ثعبان ، ثقل ، ثقيل ، ثلث ، ثلاثه ، ثمن ، ثمانية ، ثور ،اثنان ، نثر ، جثة، عثة ، عثر...الخ[٢]).ـ والذال قد تحولت فى كثير من المناطق العربية إلى دال فى معظم الكلمات (فيقال : داب، دراع ، ديب ، ده ، دبل ، دبح ، دبان ، دأن ، أدان ، ودن ، دهب ، ديل . . . الخ ، بدلا من : ذاب ، ذراع ، ذئب ، ذا ، ذى ، ذبل ، ذبح، ذُباب ، ذقن ، أذان ، أذن ، ذهب ، ذيل . . .الخ) ؛ وإلى زاى فى بعض الكلمات (فيقال مثلا : زنْب ، زهن ، زكى ، بزر ، رزالة ..الخ ، بدلا من: ذنْب ، ذهن ، ذكى ، بذر ، رذالة ... الخ) . ـ والظاء قد تحولت إلى ضاد فى معظم الكلمات (فيقال : ضلام ، ضفر ، ضل ، ضهر ... الخ ، بدلا من : ظلام ، ظفر ، ظل ، ظهر ، ... الخ) ؛ وإلى زاى مفخمة فى بعض الكلمات (كما ينطق فى عامية المصريين بكلمات : ظالم ، ظريف ، أظن ، حظ . . . الخ)[٣] . والقاف قد تحولت إلى همزة فى بعض اللهجات المصرية (فيقال : أط ، ألت ، أبل ، عأد ، نطأ . . . الخ ، بدلا من : قط ، قلت ، قبل ، عقد ، نطق . . . الخ) ؛ وإلى جاف (جيم غير معطشة) فى معظم اللهجات العامية بمصر وغيرها من البلاد العربية (فيقال : جط ، جلت ، جبل ، عجد ، نطج . . . الخ ، بدلا من : قط ، قلت ، قبل ، عقد ، نطق . . الخ)[٤] .

---

(١) لا يزال ينطق بصوت الجيم نطقا صحيحا فى عامية العراق وبعض المناطق المصرية ، وخاصة فى مديرية الشرقية .

(٢) تحول هذا الصوت فى كلمات قليلة إلى سين أو صاد : ثواب ينطق بها أحيانا سواب أو صواب .

(٣) لا يزال ينطق بأصوات الثاء والذال والظاء نطقا صحيحا فى عامية العراق والمغرب وخاصة فى طرابلس وفى القبائل العربية النازحة إلى مصر (الفوايد ، الرماح ، البراعصة ، أولاد على ، الضعفاء ، سمالوس . . . الخ) .

(٤) لايزال صوت القاف محتفظا بنطقه الصحيح فى كثير من الكلمات فى عامية العراق وعامية رشيد . وكان مستعملا منذ عهد غير بعيد فى بعض مناطق بنى سويف ؛ وقد سمعت أنا نفسى بعض شيوخ =

ومثل هذا حدث فى كثير من اللغات الأوروبية . فمن ذلك ما لوحظ بصدد تطور الراء الفرنسية فى منطقة باريس وما إليها . فقد كان ينطق بها قديما فى صورة مرققة ؛ ثم أخذت تنحرف عن مخرجها تبعا لتطور أعضاء النطق واستعدادها حتى قربت من آخر الحلق ، فتحولت إلى صوت بين الراء والغين ، وأصبح صوتها القديم ثقيلا على الألسنة يتطلب لفظه من أهل هذه المناطق مجهوداً إراديا وقيادة مقصودة لحركات المخارج .

(٣) اختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب

تختلف أعضاء النطق فى تكوينها واستعدادها ومنهج تطورها تبعا لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتى تنتقل عن طريق الوراثة من السلف إلى الخلف . حقا أن أعضاء النطق تظل مرنة كل المرونة طوال المرحلة الأولى من مراحل الطفولة . فمن المشاهد أن الطفل فى هذه المرحلة لا يستعصى عليه اكتساب أى لغة عن طريق التقليد ، مهما كانت هذه اللغة بعيدة عن لغة أبويه ، بل فى استطاعته أن يكتسب بهذه الوسيلة عدة لغات أجنبية إذا أتيحت له فرصة الاختلاط بالمتكلمين بها ، ويصل فى إجادتها جميعها إلى درجة لا يستطيع معها أكبر خبير فى اللغات أن يميزه من أهلها ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى الفصل الثانى من هذا الكتاب[1] . ولكن ليس من شك فى أنه كلما تقدمت به السن ظهرت عنده الاستعدادات الصوتية الكامنة الخاصة بأمته ، ورسخت لديه عاداتها الكلامية ، فتفقد أعضاء نطقه مرونتها شيئا فشيئا ، وتتشكل بالشكل الذى فطرت عليه فى شعبه ، وتسلك فى تطورها منهجا خاصا يختلف عن المنهج الذى تسلكه أعضاء النطق فى الشعوب الأخرى .

ولا يخفى ما يترتب على اختلاف الشعوب بهذا الصدد من آثار خطيرة فى التطور الصوتى فى مختلف اللغات .

فإلى هذا يرجع بعض السبب فى اختلاف اللغة الواحدة فى تطورها الصوتى باختلاف الشعوب الناطقة بها . وذلك أنها تسلك فى تطورها الصوتى عند كل شعب منها مسلكا

= أسرتى (بلدة الحمام مركز بنى سويف) يتكلمون بالقاف ؛ ولا يزال العامة فى هذه المناطق يتكلمون بالقاف حينما يروون عبارة منسوبة إلى أجدادهم فى الأقاصيص الشعبية وما إليها ؛ وهذا يدل على أن صوت القاف لم ينقرض لديهم إلا منذ أمد قريب .

(١) انظر آخر ص ١٠١ وصفحة ١٠٢ .

يتفق مع مافطرت عليه أعضاء نطقة فى طبيعتها واستعدادها ومنهج ارتقائها . فا للاتينية مثلا قد سلكت فى تطورها الصوتى عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها مسلكا يختلف عن مسلكها فى الشعوب الأخرى ؛ فلم تلبث أن انشعبت من جراء ذلك إلى عدة لغات (الفرنسية، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا ... الخ) . واللغة العربية قد اتجهت كذلك فى تطورها الصوتى عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيره ؛ فلم تلبث أن تولد عنها من جراء ذلك عدة لهجات (عامية العراق ، عامية الشام ، عامية نجد والحجاز ، عامية اليمن ، عامية مصر ، عامية المغرب ... الخ) [١] . ـ حقاً إن كثيراً من مظاهر هذا الاختلاف يرجع إلى عوامل اجتماعية ونفسية أو إلى آثار البيئة الجغرافية [٢] . ولكن ليس من شك فى أن بعض هذه المظاهر يرجع إلى العامل الشعبى الذى نحن بصدد الكلام عنه .

وعلى هذا العامل يقع كذلك قسط من التبعة فيما يصيب اللغة من تحريف فى أصواتها حينما تنتقل من شعب إلى شعب آخر [٣] ، وذلك أنها تتشكل عند الشعب المنتقلة إليه فى الصورة التى تتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقه فى تكونها واستعدادها ، فتبعد بذلك عن أصولها الأولى ، ويزداد بعدها هذا كلما اتسعت مسافة الخلف بين أصول الشعبين . فما أصاب لغة الصقالبة من تحريف فى ألسنة البلغاريين يفوق كثيراً ما أصابها عند غيرهم ؛ وذلك لأن الأصل الفينى Finois الذى ينحدر منه البلغاريون لا تربطه صلة قريبة بالأصل السلافى الذى ينتمى إليه الصقالبة [٤] . ـ وما أصاب الأصوات اللاتينية من من تحريف فى اللغة الفرنسية يفوق كثيرا ما أصابها فى اللغة الإيطالية ، وذلك لأن الإيطاليين أقرب رحماً إلى قدماء الرومان من الفرنسيين ؛ ففيهم يغلب الدم اللاتينى ، بينما يغلب فى الفرنسيين الدم السلتى والجرمانى . ـ ولهجات القسم الجنوبى من فرنسا كالجسكونية والبروفنسية . . . الخ Gascon, Provençal ... etc أقرب إلى أصولها اللاتينية من لهجات القسم الشمالى ، وذلك أن الدم اللاتينى فى سكان الجنوب أغزر منه فى سكان الشمال . ـ

---

(١) انظر صفحات ١٥٧ ـ ١٦١ .

(٢) انظر صفحتى ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٣) انظر صفحات ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٩ . ونقول : « قسط من التبعة » لا كل التبعة ، لأن لهذه الظاهرة أسبابا أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسبابا اجتماعية ونفسية وجغرافية . . . الخ) .

(٤) انظر آخر ص ١٣٩ وأول ص ١٤٠ .

ولهجات الجنوب نفسها تختلف فى مبلغ قربها إلى اللغة اللاتينية تبعاً لاختلاف الناطقين بها فى مبلغ قربهم إلى الأصل اللاتينى . ولذلك كانت البروفنسية Provençal أقرب إلى اللاتينية من الجسكونية Gascon ؛ لأن البروفنسيين أدنى إلى اللاتين من الجسكونيين . ـ ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر (البراعصة ، الفوايد ، الرماح ، الجوازى ، أولاد على ، سمالوس ، ... الخ) أدنى فى ناحيتها الصوتية إلى العربية الفصحى من لهجات المصريين أنفسهم[١] ؛ وذلك لأنهم أقرب رحما إلى العرب من المصريين .

وعلى ضوء هذا العامل يمكن كذلك قياس مسافة الخلف بين « اللهجات المحلية » (وهى اللهجات التى يتكلم بها فى منطقة لغوية واحدة كلهجات البلاد المصرية)[٢] والوقوف على بعض الأسباب التى تؤدى إلى بعدها بعضها عن بعض[٣] . فالمشاهد أن مبلغ اختلاف هذه اللهجات بعضها عن بعض فى أصواتها يتبع إلى حد كبير مبلغ اختلاف الناطقين بها بعضهم عن بعض فى أصولهم الشعبية . فكلما كان هؤلاء متجانسين فى أصولهم ضاقت مسـافة الخلف بين لهجاتهم فى ناحيتها الصوتية ، وكلما تعددت الأصول الشعبية التى ينتمون إليها اتسعت هذه المسافة . فلهجات المصريين لا تختلف كثيراً بعضها عن بعض فى هذه الناحية ؛ وذلك لتجانسهم فى الأصول التى انحدروا منها . ـ ولهجات المنطقة الشمالية بفرنسا (منطقة باريس وما إليها[٤]) تختلف كثيراً عن لهجات المنطقة الجنوبية منها (طولون ، نيس . . . الخ Toulon, Nice) ؛ ولكن كلتا المنطقتين تحوى مجموعة متشابهة من اللهجات . وذلك لأن سكان المنطقة الشمالية يختلفون فى أصولهم الشعبية عن سكان المنطقة الجنوبية ، ولكن كلتا المنطقتين تضم من السكان مجموعة متجانسة فى هذه الأصول . ـ ولهجات المناطق الوسطى بفرنسا تختلف بعضها عن بعض اختلافاً غير يسير ، وذلك لتعدد الأصول الشعبية التى ينتمى إليها سكان هذه المناطق[٥] .

---

(١) انظر آخر ص ٢٠٦ والتعليق الثالث فيها .

(٢) انظر ص ١٦١ وتوابعها .

(٣) نقول « بعض الأسباب » لأن لهذه الظاهرة أسبابا أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسبابا اجتماعية ونفسية وجغرافية . . . الخ) .

(٤) انقرض الآن معظم هذه اللهجات وحلت محلها الفرنسية الحديثة .

(٥) V.Dauzat; Vie du Langage p. 47

غير أنه من الخطأ المبالغة فى أثر هذا العامل والعامل السابق له كما حاول ذلك بعض الباحثين. ولا أدل على أن أثرهما ليس بالدرجة التى تصورها هؤلاء من أن الطفل من أية أمة وفى أى عصر يستطيع بسهولة أن يجيد لغة أمة أخرى أو عصر آخر عن طريق التقليد إذا أحيط فى دور طفولته بأفراد يتكلمون هذه اللغة، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى أول هذه الفقرة.

(٤) الأخطاء السمعية

سقوط الأصوات الضعيفة ونظرية روسلو ومييه Rousselot, Meillet

يعتمد الطفل فى محاكاته للغة أبويه على حاسة السمع، كما سبق شرح ذلك فى الفصل الثانى من هذا الكتاب[1]. ولما كانت هذه الحاسة عرضة للزلل فى إدراكاتها، كان لزاما أن يجانب الطفل السداد فى بعض ما يحاكيه وأن تختلف لغته بعض الاختلاف فى ناحيتها الصوتية عن لغة أبويه.

وتنقسم الأخطاء اللغوية الناجمة عن هذا السبب إلى قسمين:

١ – أخطاء خاصة مقصورة على بعض الأفراد كالأخطاء الناجمة عن ضعف السمع أو اختلال أجهزته وما إلى ذلك. وليس لمثل هذه الأمور شأن كبير فى تطور اللغة، لأن آثارها مقصورة على أصحابها، تبقى معهم وحدهم فى حياتهم وتختفى بموتهم.

٢ – أخطاء عامة يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة وتمتاز بها لغتهم عن لغة الطبقة السابقة لهم. وذلك كالأخطاء السمعية الناشئة عن ضعف بعض الأصوات. فقد يحيط بالصوت بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج، فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئاً حتى يصل فى عصر ما إلى درجة لا يكاد يتبينه فيها السمع. فحينئذ يكون عرضة للسقوط. وذلك أن معظم الصغار فى هذا العصر لا يكادون يتبينونه فى نطق الكبار، فينطقون بالكلمات مجردة منه، ولا يفطن الآباء لسقوطه فى لغة أبنائهم لنفس السبب الذى من أجله لم يفطن الأبناء لوجوده فى لغة آبائهم.

ولا يخفى ما لهذا القسم من الأخطاء من أثر بليغ فى تطور اللغة من ناحيتها الصوتية.

---

(١) انظر صفحتى ١٠٨، ١٠٩.

فإليه يرجع السبب فى سقوط كثير من الأصوات فى مختلف اللغات الإنسانية وخاصة فى اللغات الهندية - الأوروبية .

ويرجع أكبر قسط من الفضل فى توضيح هذا العامل وبيان آثاره إلى الأستاذين روسلو ومييه Rousselot, Meillet ، ولذلك تنسب إليهما نظريته (١) .

(٥) تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض

يحدث بين الأصوات المتجاورة والمتقاربة فى الكلمة من ظواهر التفاعل أنواع كثيرة يؤدى كل نوع منها إلى نتائج ذات بال فى التطور الصوتى . ومن أهم ما سجله الباحثون بهذا الصدد الأمور الآتية :

١ — التفاعل بين الأصوات الساكنة (ونعنى بها ما يقابل أصوات اللين) .

يحدث أحياناً بين الصوتين المتجاورين فى الكلمة مثل ما يحدث بين المواد المحملة بالكهرباء ، فتجاور مادتين من هذه المواد يحدث بينهما تجاذباً إذا كانتا مختلفتين فى نوع كهربائهما ، بأن كانت إحداهما موجبة والأخرى سالبة ، وتنافرا إذا كانتا متحدتين فيه ، بأن كانت كلتاهما موجبة أو سالبة . وكذلك يفعل أحيانا التجاور أو التقارب بين الصوتين .

(ا) فإذا تجاور صوتان مختلفان فى مخارجهما أو تقاربا انجذب أحياناً كل منهما نحو الآخر ، فينتهى بهما الأمر إلى واحدة من النتائج الأربع الآتية :

فتارة يلتصق أحدهما بالآخر ، فتنتقل الأصوات التى كانت تفصل بينهما إلى ما بعدهما (ظاهرة النقل المكانى Métathèse (٢)) ؛ كما حدث لحرفى b, r فى كلمة berbis إذ تحولت إلى brebis وفى كلمة abeuvrer إذ تحولت إلى abreuver .

وتارة يتحول أحدهما إلى صوت من نوع الصوت الآخر (ظاهرة التشاكل

---

(١) انظر فى ذلك : Dauzat ; les Patois p. 118 ; Meillet, Linguistique générale p. 79 ; Delacroix, Le Langage et la Pensée p. 180 et suiv.

وانظر فى ترجمة روسلو ومييه آخر ص ٤٦ وأول ص ٥١ .

(٢) ليس « النقل المكانى Métathèse » مقصوراً على الحالة التى نحن بصدد الكلام عنها ، بل يطلق اصطلاحا على كل حالة ينتقل فيها صوت أو أكثر من موضعه فى الكلمة إلى موضع آخر كما سيأتى بيان ذلك فى صفحة ٢١٨ رقم ٤ .

assimilation [١]): فيتحول الأول إلى نوع الصوت الثانى كما حدث فى cercher إذ تحولت إلى chercher ، وكما حدث فى الكلمة العربية « شمس » إذ تحولت فى بعض اللهجات العامية إلى «سمس» ؛ أو يتحول الثانى إلى نوع الصوت الأول كما حدث فى gamba, render إذ تحولا إلى gamma, renner [٢]؛ وكما حدث فى الكلمة العربية « شمس » إذ تحولت فى بعض لهجات الصعيد إلى « شمش » .

وأحياناً يمتزجان معا ، فيتكون من امتزاجهما صوت ثالث به صفات من كليهما ؛ كما حدث فى جميع الكلمات التى تجاور فيها صوتا y , L ، إذ تحول هذان الصوتان فى الفرنسية إلى صوت واحد يجمع بين صفتيهما وهو صوت l,mouillé .

وأحيانا يتلاشى أحدهما فى الآخر : فيبقى الثانى وحده ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية accapter إذ تحولت فى الفرنسية إلى acheter ؛ أو يبقى الأول وحده ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية cliave إذ تحولت فى الإيطالية إلى chiave (ينطق بها Kyave) .[٣]

(ب) وإذا تجاور صوتان متحدان أو تقاربا فإنهما يتنافران أحيانا ، فينتهى بهما الأمر إلى واحدة من النتائج الثلاث الآتية :

فتارة يتحول صوت أحدهما إلى صوت مغاير للآخر (ظاهرة التباين dissimilation)[٤].
ويقع هذا على ضربين : فأحيانا يتحول أولهما كما حدث فى orphanınus, peregrinum إذ تحولا فى الفرنسية إلى orphelin, pelerin ؛ وأحيانا يتحول ثانيهما ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية cribrum إذ تحولت فى الفرنسية إلى crible ، وكما حدث لصوتى اللام المشددة فى اللاتينية إذ تحول صوتها الثانى إلى ياء فى معظم الكلمات الإسبانية (castella تحولت إلى castilla وينطق بها castilya)[٥] .

وتارة يسقط أحدهما فى النطق كما حدث فى معظم الأصوات المشددة فى اللاتينية

---

(١) استخدمنا كلمة assimilation فى معناها الواسع الذى يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ، لأنها لا تطلق فى معناها الاصطلاحى الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

(٢) تحول الصوت الأول إلى نوع الصوت الثانى هو الغالب فى هـذه الحالة ; V. Dauzat La Vie du Langage p. p. 57, 79.

(٣) انقراض الأول وبقاء الثانى هو الغالب فى هذه الحالة V. Dauzat, op. cit. 57,78

(٤) استخدمنا كلمة dissimilation فى معناها الواسع الذى يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ، لأنها لا تطلق فى معناها الاصطلاحى الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

(٥) تحول الأول إلى صوت مغاير للثانى هو الغالب فى هذه الحالة V. Dauzat, op. cit. 57,79

إذ تحولت فى النطق الفرنسى والبروفنسى Provençal والإسبانى إلى أصوات مخففة[١].
وكما حدث فى معظم الأصوات المشددة فى العربية إذ تحولت فى لهجات كثير من بلاد الشرقية إلى أصوات مخففة (فيقال مثلا : «كلْمى ، أمْها ، عمْها ، منْ كلْ بدْ» ، بدلا من : «كلّمى ، أمّها ، عمّها ، من كلّ بدّ»).

وتارة يتساقطان معا ويحل محلهما صوت واحد غريب عنهما . كما حدث فى صوتى اللام المشددة فى اللاتينية ، إذ تحولا فى الجسكونية Gascon إلى تاء t فى حالة وقوعهما فى آخر الكلمة وإلى راء r فى حالة وقوعهما بين حرفى لين (فالكلمتان اللاتينيتان bellum, bella تحولا فى الجسكونية إلى bèt, bera)[٢] .

٢ — التفاعل بين أصوات اللين .

وتجاور صوتى لين أو تقاربهما فى الكلمة يجعلهما كذلك عرضة للتغير والانحراف .

فتارة يلتصقان بعد تباعدهما ، فتسقط الأصوات التى تفصلهما ، ويتكون منهما صوت لين مركب diphtongue كما حدث فى الكلمة اللاتينية regina إذ تحولت فى الفرنسية القديمة إلى reïne[٣].

وتارة يتباعدان بعد التصاقهما ، فيقحم بينهما صوت ساكن (أى غير لين) لتسهيل النطق بهما كما حدث فى الكلمة الفرنسية القديمة Pooir إذ تحولت فى الفرنسية الحديثة إلى pouvoir

وتارة يتحول أحدهما إلى صوت لين آخر إذا كانا متحدين ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية v i c i n u s إذ تحولت فى لغة التخاطب عند الرومان إلى v e c i n u s .

وتارة يخرج أحدهما عن فصيلته خروجا تاما ، فيتحول إلى صوت ساكن[٤] . (ونعنى به ما يقابل أصوات اللين) ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية plattea إذ تحولت

---

(١) وهذا فيما عدا اللام المشددة V. Dauzat, op. cit. 79 . ونقول «فى النطق» لأن معظمها لا يزال محتفظا بشكله القديم فى الرسم .

(٢) V. Dauzat, op. cit, 79

(٣) تحولت هذه فى الفرنسية الحديثة إلى reine التى ينطق بها rène خضوعا لقانون «التناوب بين أصوات اللين» الذى سنتكلم عنه فى صفحتى ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٤) يتحول إلى ذلك فى الغالب الصوت الأول منهما كما يظهر من الأمثلة التى سنذكرها .

plattsa (١)، وكما حدث فى بعض اللهجات العامية للمقاطعات الفرنسية : اوفرنى وفورز ودوفينى Auvergne, Forez, Dauphiné إذ تحولت فيها الكلمات التى من قبيل fialo. tialo إلى fsalo,tsala .

(٦) موقع الصوت فى الكلمة

وموقع الصوت فى الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف .

١ — وأكثر ما يكون ذلك فى الأصوات الواقعة فى أواخر الكلمات ، سواء أكانت أصوات لين أم أصواتا ساكنة (ونعنى بالساكنة ما عدا أصوات اللين) .

(ا) أما أصوات اللين فقد لوحظ أن وقوعها فى آخر الكلمة يجعلها فى الغالب عرضة للسقوط ، ويؤدى أحياناً إلى تحولها إلى أصوات أخرى .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات اللين القصيرة (المسماة بالحركات وهى الفتحة والكسرة والضمة) التى تلحق أواخر الكلمات . ففى جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربيـــة (عاميات مصر والعراق والشام وفلسطين والحجاز واليمن والمغرب . . . الخ) قد انقرضت هذه الأصوات جميعها ، سواء فى ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء . فينطق الآن فى هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر (فيقال مثلا : « رجعْ عمرْ للمدرسهْ بعدْ ما خفْ من عياه » بدلا من رجعَ عمرُ إلى المدرسةِ بعدَ ما خفَّ من إعيائه ») . ولعل هذا هو أكبر انقلاب حدث فى اللغة العربية ، فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها من أطرافها ، وجردها من العلامات الدالة على وظائفها فى الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأسا على عقب .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث فى اللغة العربيـــة بصدد أصوات اللين الطويلة (الألف والياء والواو) الواقعة فى آخر الكلمات . فقد تضاءلت هذه الأصوات فى عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض ، سواء فى ذلك ما كان منها داخلا فى بنية الكلمة ، (رمى ، يرمى . . . الخ) وما كان خارجاً عنها (ضربوا ، ناموا ... الخ) . فيقال مثلا فى عامية المصريين: « رامِ وعيسَ ومصطفَ أبُ حسين سافرُ يوم الخميس لجرجَ » بدلا من : « رامى وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا » .

---

(١) تحولت هذه فى الفرنسية إلى place

وما حدث فى اللغة العربية حدث مثله فى كثير من اللغات الأخرى . فمعظم أصوات اللين المتطرفة فى اللغة اللاتينية قد انقرضت فى اللغات المنشعبة عنها (١) . ففى الإسبانية سقط من هذه الأصوات صوتان وهما I,E (٢)، وفى البروفنسية provençal والفرنسية القديمة لم يكد يبق شىء منها (٣) . وبعض هـــذه الأصوات قد تحول إلى أصوات لين أخرى كما حدث بصوت «a» إذ تحول فى الفرنسية القديمة إلى «e» canta, chante; lenta, lente; fava, fève (٤) .

(ب) ووقوع الصوت الساكن (ونعنى به ما يقابل صوت اللين) فى آخر الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحول أو السقوط .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفتين (٥) . فقد انقرضت هذه الأصوات فى معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ، كما يظهر ذلك من الموازنة بين العبارات العربية المدونة فى السطر الأول ونظائرها فى عامية المصريين المدونة فى السطر الثانى :

محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبون ؛ الهواء شديد ؛ انتظرته ساعة كاملة

محمدْ ولدْ مطيعْ ؛ الأولاد بِيلعبُوْ ؛ الهوَ شديد ؛ انتظرتُ ساعَ كَامْلَ

ومن هذا القبيل كذلك حذف آخر الكلمة التى يوقف عليها فى عامية كثير من المناطق المصرية كبعض مناطق بنى سويف والشرقية ورشيد وغيرها فيقال مثلا : «إنت ياولَ» بدلا من «أنت ياولد» «فين أخوك محمو» بدلا من «أين أخوك محمود» ، «إدِّيلُ خمْسا غْرو» بدلا من «أدّله خمسة قروش» (٦).

---

(١) يستثنى من ذلك الايطالية فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات .

(٢) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة بقى فيها أحد هذين الصوتين .

(٣) انقرضت جميعها فى الواقع ما عدا صوت a الذى سيأتى الكلام عنه وما عدا بعض حالات شاذة .

(٤) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة . وقد حدث هذا التطور فى المدة المحصورة بين نهاية القرن الثامن وأوائل القرن الرابع عشر كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، انظر رقم ٤ بصفحة ٢٠٢ ، وانظر Dauzat, op. cit. 142

(٥) التاء المربوطة حكمها فى ذلك حكم الهاء المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور فيما بعد .

(٦) سار على هذا الاسلوب كذلك بعض اللغات العربية الفصيحة ، كلغة طيء وقد جرت عادة المؤلفين من العرب بتسميته قطعة طيء (أى قطع اللفظ قبل تمامه) فكان يقال مثلا فى لغتهم «يا أبا الحك» بدلا من يا أبا الحكم . ولم يكن هذا مقصوراً لديهم على المنادى بل كان عاما فى جميع الكلمات .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى كثير من اللغات الأخرى . فمعظم الأصوات الساكنة المختتمة بها الكلمات اللاتينية قد انقرضت فى النطق الفرنسى أو تحولت إلى أصوات ساكنة أخرى أضعف منها أو إلى أصوات لين .

أما الانقراض فلم يكد ينجو منه إلا القليل من أنواع هذه الأصوات (plunbum تحولت فى الفرنسية إلى plomb التى ينطق بها plon بدون صوت الباء الأخير ؛ campus تحولت فى الفرنسية إلى champ التى ينطق بها chan بدون صوت p الأخير ...[١] الخ . ومن ذلك أيضاً حذف علامة الجمع s فى النطق الفرنسى ، وبذلك أصبح المفرد وجمعه المختتم بصوت s سيان فى النطق ولا يختلفان إلا فى الرسم) .

وأما تحولها إلى أصوات ساكنة ضعيفة فقد حدث فى كثير من الكلمات المنتهية بأصوات مدوية sonores مثل أصوات .v.d b إذ تحولت فى الفرنسية القديمة هـــذه الأصوات القوية إلى أصوات ضعيفة صامتة sourds مثـــل أصوات .f.t.p (navem, grandem تحولتا فى الفرنسية القديمة إلى nef, grant) . وقد جرت عادة العلماء أن يطلقوا على هـــذه الظاهرة اسم «توهين الصوت الساكن الأخير» assourdissement des consonnes sonores finales[٢] .

وأما تحولها إلى أصوات لين فقد حدث على الأخص فى حرف اللام l المتطرفة (vocalisation de l final)[٣] .

هذا ، وقد أحدث سقوط الأصوات اللينة والساكنة الواقعة فى أواخر الألفاظ انقلابا كبيراً فى عالم اللغات . فقد كان من آثاره انقراض « طريقة الإعراب» فى كثير من اللغات التى كانت تسير عليها كالعربية واللاتينية وما إليهما[٤] .

٢ — ووقوع الصوت فى وسط الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف .

---

(١) V. Dauzat, op. cit. 75,76

(٢) حدث مثل ذلك أيضا فى الألمانية الحديثة إذ تحول فيها مثلا grob, tod إلى Grop, tot انظر Dauzat, op. cit. 75 .

(٣) حدث ذلك فى الفرنسية وفى البروفنسية حوالى القرن الثانى عشر الميلادى V. Dauzat, op. cit. 75

(٤) « طريقة الإعراب » هى الطريقة التى تعتمد فى بيان نوع الكلمة ووظيفتها فى الجملة على ما يلحق آخرها من أصوات . ولا يزال لهذه الطريقة آثار كثيرة فى بعض لغات التخاطب كالألمانية وما إليها .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد الهمزة الساكنة الواقعة فى وسط الثلاثى . فقد تحولت إلى ألف لينة فى عامية المصريين وغيرهم (فيقال : راس ، فاس ، فال ، ضانى . . . ، بدلا من : رأس ، فأس ، فأل ، ضأن . . . الخ) .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث بصدد الياء والواو الساكنتين فى وسط الكلمة فى مثل عين ويوم . فقد تحولتا فى بعض المناطق المصرية وغيرها إلى صوتين من أصوات اللين : فأولهما تحول إلى صوت يشبه صوت è فى اللغة الفرنسية (عين ، خيل ، بين ، زينب . . . الخ) ، وثانيهما تحول إلى صوت يشبه صوت ô الفرنسى (يوم ، نوم ، فوز ، لوم . . . الخ) .

ومن ذلك تحريك الحرف الساكن إذا وقع فى وسط كلمة ثلاثية فى كثير من لهجات البلاد العربية (عامية الشرقية ، وبعض عاميات الصعيد ، ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر ، ولهجة العراق . . . الخ) ؛ فيقال مثلا : اِسِم ، رَسِم ، مَصِر ، جُرُن ، بَدِر ، فَحِل ، فِجِل . . . الخ ، بدلا من اسْم ، رسْم ، مصْر ، جرْن ، فحْل ، فجْل . . . الخ [1] .

وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة من هذا القبيل فى اللغات الهندية — الأوروبية .

فمن ذلك ما حدث بصدد صوت اللين القوى tonique الواقع قبيل آخر الكلمة ، وخاصة إذا كان حراً voyelle libre أى متبوعاً بصوت ساكن واحد أو بصوتين من إحدى المجموعات الآتية : br, cr, dr, tr ، فقد تحول هذا الصوت فى معظم حالاته فى اللغات اللاتينية والجرمانية واليونانية القديمة إلى صوت لين مركب (diphtongue) . وأشد أصوات اللين اتجاهاً إلى هـــذا التحول صوتان هما è, ô ؛ وأقل منهما ميلا إلى ذلك صوتا é, o ؛ وأقلها جميعاً ميلا إلى هذا التحول صوتا u, i ، فإنه لم يكد يبدو فيهما هذا الميل إلا فى اللغات الجرمانية (scinan تحولت فى الألمانية scheinen وينطق بها chaïnen ، وفى الإنجليزية إلى shine وينطق بها chaïne) [2] .

ومن ذلك ما حدث للصوت الساكن الواقع بين صوتى لين . فموقعه هذا قد أدى به أحياناً إلى السقوط وأحياناً إلى الانحراف عن مخرجه الأصلى والتحول إلى صوت آخر . فصوت الباء b قد تحول فى لغة التخاطب اللاتينية إلى صوت v (faba تحولت

(١) هذه كذلك لهجة قديمة من لهجات بعض القبائل العربية .

(٢) ظهر هذا الميل كذلك فى بعض اللهجات العامية الايطالية V. Dauzat, op. cit. 70

إلى fava) . (١) وصوت السين s قد تحول فى اللاتينية إلى راء r (arbosis تحول إلى arboris) . وصوت الدال d فى الكلمات اللاتينية قد تحول إلى ذال z فى البروفنسية (٢) وسقط فى الفرنسية والإسبانية : latin : videre ; provençal : vezer; français veoir, voir; espagnol : veer, ver . وصوتا اللام والنون l, n الواقعان بين صوتى لين قد سقطا فى اللغة البرتغالية فى العصور الوسطى (populus تحول إلى povo ; rationem تحول إلى razoe . . الخ) . والأصوات الصامتة consonnes sourdes : p. t. k. . . . etc الواقعة بين صوتى لين قد تحولت فى اللاتينية الحديثة حوالى القرن السادس إلى أصوات مدوية consonnes sonores قريبة منها (b. d. g. . . . etc). وإلى هذا الحد وقف تطور هذا النوع فى الإسبانية والبروفنسية. أما فى الفرنسية الحديثة فقد حدث تحول آخر إذ انقلب صوت الباء b إلى v وسقط صوتا الدال والجيم d. g. ، كما يظهر ذلك من الأمثلة الآتية (٣) :

latin : ripa, amata. securus .
esp. et prov. : ribera (riba), amada, segur (o)
français ; rive , aimée ; sûr

٣ — ووقوع الصوت فى أول الكلمة يجعله كذلك عرضة للانحراف . فمن ذلك ما حدث فى بعض المفردات العربية المفتتحة بالهمزة ، إذ تحولت همزتها فى بعض اللهجات العامية إلى فاء أو واو (« أذن » تحولت فى عامية المصريين إلى « ودن » ، و « أين » تحولت إلى « فين » ، أو إلى « وين » فى عامية القبائل العربية النازحة إلى مصر وفى عامية العراق والحجاز ؛ و « أدَّى » تحولت فى بعض المواضع فى عامية المصريين إلى « ودَّى » فيقال مثلا « وَدَّاه المدرسة » بمعنى « أدى به إلى المدرسة » أى أوصله إليها) (٤) .

(١) لم يشذ عن ذلك إلا عدد يسير من الكلمات .

(٢) كان ينطق بصوت z فى البروفنسية كما ينطق بالذال العربية (th فى الانجليزية) .

(٣) انظر فى هذا الموضوع Dauzat, op. cit. 74. 75- .

(٤) ليس هذا مقصوراً على اللغات العامية ، بل يوجد له نظير فى بعض اللهجات العربية الفصحى ، فى لغة لأهل اليمن تبدل الهمزة واواً فى مثل « آتيته » ، فيقال مثلا واتيته على الأمر مواتاة وهى المشهورة على ألسنة الناس .

٤ — وقد تتبادل الأصوات مواقعها فى الكلمة ويحل بعضها محل بعض ، فيتقدم المتأخر منها ويتأخر السابق . وتسمى هذه الظاهرة « بالنقل المكانى » (Métathèse) كما حدث فى abeuvrer, berbis إذتحولا إلى abreuver, brebis ؛ وكماحدث فى الكلمة العربية « أرانب » إذ تحولت فى عامية القاهرة وغيرها إلى « أنارب » .

(٧) تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض

وفيما عدا الحالات السابقة قد لوحظ أن الأصوات المتحدة النوع تتناوب ويحل بعضها محل بعض . وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة بهذا الصدد بعضها خاص بأصوات اللين وبعضها يتعلق بالأصوات الساكنة .

١ — أما تناوب أصوات اللين فلم تكد تخلو منه لغة من اللغات الإنسانية .

فنى اللغة العربية حدث تناوب واسع النطاق بين أصوات اللين القصيرة (التى يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة) . ويمثل هذا التناوب انقلاباً من أهم الانقلابات التى اعتورت هذه اللغة . فقد كان من آثاره أن انحرفت أوزان الكلمات وانقلبت أشكالها رأسا على عقب ، حتى لا نكاد نجد فى اللهجات العامية كلمة واحدة باقية على وزنها العربى القديم . فالفتحة قد استبدل بها الضمة أحيانا والكسرة فى كثير من الأحوال (فبدلا من : يَعوم ، يَسجد ، يَسمع ، عَثَر ، خَلَص ، سَكَت ، كَبير ، ألكتاب . . . الخ ؛ يقال فى عامية المصريين : يُعُوم ، يُسجد ، يِسمع ، عِتِر أو عُتُر ، خِلِص أو خُلُص ، سِكِت أو سُكت ، كِبير ، إلكتاب ... الخ) . ـ والكسرة قد استبدل بها الضمة أحيانا والفتحة فى كثير من الأحوال (فبدلا من : يلطِم ، يضرِب ، يسرِق ، عِند . . . الخ ؛ يقال فى عامية المصريين : يلطُم ، يضرَب ، يسرَأ ، عَند . . . الخ) . ـ والضمة قد استبدل بها الفتحة أحيانا والكسرة فى معظم الحالات (فبدلا من : مُحمد ، ثُعبان ، أُنثى ، عُثة ، يقتُل ، يذُم ، ظُفْر . . . الخ ؛ يقال فى عامية المصريين : مَحمد ، ، ِتعبان ، إنتاية ، ِعتة ، يئتِل ، يزِم ، ِضفر . . . الخ) .

وحدث كذلك تناسخ فى أصوات اللين الطويلة نفسها ، وخاصة فى الألف اللينة إذ أميلت فى لغات بعض القبائل العربية القديمة ، وتمال الآن فى كثير من لهجات المغاربة وفى لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر وفى بعض اللهجات فى بلاد الشرقية .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى اللغات الأوروبية .

فمن ذلك تحول أصوات اللين المركبة diphtongue إلى أصوات لين بسيطة فى كثير من هذه اللغات . فاللغة الفرنسية مثلاقد تحول فى نطقها معظم أصوات اللين المركبة إلى أصوات لين بسيطة ، وإن كانت لا تزال ترسم حسب حالتها القديمة (ai, ei, au, eau, eu..etc) ؛ وعلى هذه الظاهرة يقع قسط كبير من التبعة فى صعوبة الرسم الفرنسى وعدم مطابقته للنطق [١] . ـ وما حدث فى اللغة الفرنسية بهذا الصدد حدث مثله فى سائر اللغات الأوروبية وخاصة الإسبانية والإيطالية والألمانية والإنجليزية [٢] .

ومن ذلك أيضا تحول صوت a إلى صوت i فى عدد كبير من مفردات اللغة اليونانية وفى بعض مواطن فى اللغتين السلتية والفرنسية . وقد لوحظ أن هذا التحول يتم بالتدريج ، فينحرف صوت a إلى صوت آخر قريب منه ، وهذا إلى ثالث . . وهكذا حتى يصل إلى i ؛ ولوحظ كذلك أنه يقطع لهذه الغاية أحد طريقين : طريق قصير وهو a,è, é, i ؛ وطريق طويل وهو a, o, ô, ou, u, i . ولم يحدث مطلقاً أن قطع فى تطوره سبيلا آخر غير هذين الطريقين ، أو تخطى مرحلة من المراحل المرسومة فى كليهما ، أو غيّر شيئا فى ترتيبها السابق بيانه .

٢ — وأما تناسخ الأصوات الساكنة فقد حدث كذلك فى جميع اللغات الإنسانية .

فكثير من الأصوات الساكنة فى اللغة العربية قد تناسخت فى اللهجات العامية ، وحل بعضها محل بعض . فالسين قد تحولت إلى صاد فى بعض المواطن (« ساخن » تحول إلى «صاخن» فى عامية الشرقية وغيرها) ؛ والصاد إلى سين فى كثير من الألفاظ فى عامية القاهرة وغيرها (فبدلا من يصدق ، مصير ... الخ ، يقال : يسَدَّق ، مسير) ؛ والضاد إلى ظاء فى عامية المغرب وخاصة طرابلس ، وفى لهجة العراق ، وفى لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر [٣] (فبدلا من : وضوء ، يضيع ، يضرب ، يضم . . الخ يقال : وظوء ، يظيع ، يظرب ، يظم ... الخ) ؛ والعين إلى نون فى بعض الكلمات فى لهجة العراقيين (فيقال مثلا : « ينطى » بدلا من « يعطى ») [٤] ؛ واللام إلى ميم فى بعض الكلمات فى عامية القاهرة

(١) V. Daunzat, op. cit. 64, 65.

(٢) V. Dauzat, op. cit. 63, 64.

(٣) نعنى بها القبائل الحاضرة التى تسكن فى مختلف مديريات مصر وخاصة فى الفيوم وبنى سويف والمنيا والبحيرة والشرقية والقليوبية (الفوايد ، الرماح ، الحرابى ، أولاد على ، خويلد ، الضعفاء ، سمالوس . . . الخ) .

(٤) تكاد تكون هذه الظاهرة مقصورة لديهم على العين المتبوعة بطاء ، وهذه كذلك هى لهجة هذيل .

(« امبارح » بدلا من « البارحة »[١]) ؛ والميم إلى نون أحيانا فى عامية المصريين (فيقال « فاطنة » بدلا من « فاطمة ») . . . وهلم جرا .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى اللغات الهندية — الأوروبية.

فمن ذلك تحول صوت w فى اللغة اللاتينية (وكان ينطق به كما ينطق به الآن فى الإنجليزية ، وكما ينطق بالواو فى العربية) إلى صوت v . فقد أخذ الصوت الأول ،منذ مبدأ العصور الوسطى ، يدنو شيئاً فشيئاً من الصوت الأخير حتى استبدل به فى كثير من الكلمات فى معظم اللغات المنشعبة عن اللاتينية[٢] .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث فى صوت k المتبوع بصوت a فى الكلمات اللاتينية . فقد تحول فى اللغة الفرنسية فى معظم مواطنه إلى ch (canem, caballum تحولا فى الفرنسية إلى chien, cheval)[٣] .

ومن ذلك أيضا ما حدث فى اللغات الجرمانية من تناوب بين المجموعات الثلاثة الآتية من الأصوات : f, th, kh, p. t, k, b, d, g . فإن كل صوت من أصوات المجموعة الأولى قد تحول إلى ما يقابله فى الترتيب من أصوات المجموعة الثانية ، وأصوات المجموعة الثانية تحولت بهذا النظام إلى أصوات الثالثة ، وأصوات الثالثة إلى أصوات الأولى . فبالموازنة بين الكلمات الجرمانية وأصولها فى اللغات الهندية — الأوروبية القديمة ونظائرها فى اللاتينية والإغريقية يظهر أن الأصوات الآتية المدونة فى السطر الأول قد تحولت فى اللغات الجرمانية إلى الأصوات المدونة تحتها فى السطر الثانى :

b, d,	g	p,	t,	k		f (ph) th	kh	
p, t,	k	f (ph)	th	kh	(gh)	b	d	g

كما يظهر ذلك من الأمثلة الآتية :

(Sanscrit)	(Latin)	(Anglais)
pitar	pater	father
	frater	brother
	dentis	touth
	genu	knee
	pedis	fout

---

(١) هذه كذلك لغة حمير ، وقد جاء بها الحديث « ليس من امبر أمصيام فى امسفر » .

(٢) V. Dauzat, op. cit. 65,66.

(٣) .VDelacroix, Langage et Pensée, 144.

وقد حدث فى بعض اللغات الجرمانية فى العصور الوسطى تطور ثان فى الأصوات الجديدة التى نجمت عن التطور الأول، فتحولت هذه الأصوات نفسها إلى ما يقابلها فى الجدول السابق . وحدث فى اللغة الألمانية فى العصور الحديثة تطور ثالث فى الأصوات التى جاء بها التطور الثانى وفقا لنفس الخطة المرسومة آنفا، وقد أدى ذلك إلى رجوع بعض هذه الأصوات إلى الأصل القديم الذى كانت عليه قبل التطور الأول. فالتاء مثلا t فى كلمة frater قد تحولت إلى ذال th فأصبحت bruthrer ؛ ثم تحولت هذه الذال إلى دال d فأصبحت bruder ؛ وهذه الدال قد تحولت فى الألمانية الحديثة إلى تاء فأصبحت bruter ، وبذلك عاد هذا الصوت بعد هذه التطورات الثلاثة إلى الأصل القديم الذى كان عليه قبل التطور الأول . وهذا هو ما اصطلح علماء اللغة من الألمان على تسميته « بالدورة الثلاثية » (١) .

---

(١) V. Dauzat, 66–69

الفصل الثامن

الدلالة وتطورها

La Sémantique

ذكرنا فى فاتحة الفصل السابق أن أهم ظواهر اللغة ترجع إلى ناحيتين رئيسيتين : الظواهر المتعلقة بالصوت ، والظواهر المتعلقة بالدلالة ، وأن كلتا الناحيتين فى تطور مطرد وتغير مستمر ، وأنها فى تطورها وتغيرها تتأثر بعوامل شتى وتخضع لطائفة كبيرة من القوانين .

وقد فرغنا فى الفصل السابق من دراسة الناحيـــة الأولى ، وهى المتعلقة بالصوت وتطوره ، وسنقف هذا الفصل على دراسة الناحية الثانية وهى المتعلقة بالدلالة .

(١) أنواع التطور الدلالى

ترجع أهم ظواهر التطور الدلالى إلى ثلاثة أنواع :

(أحدها) تطور يلحق القواعد المتصلة بوظائف الكلمات وتركيب الجمل وتكوين العبارة . . . وما إلى ذلك كقواعد الاشتقاق والصرف (المورفولوجيا) والتنظيم (السنتكس) . . . وهلم جرا . وذلك كما حدث فى اللغات العامية المنشعبة من اللغة العربية إذ تجردت من علامات الإعراب [١] وتغيرت فيها قواعد الاشتقاق [٢] واختلفت مناهج تركيب العبارات [٣] .

(وثانيها) تطور يلحق الأساليب ، كما حدث فى لغات المحادثة العامية المنشعبة عن العربية إذ اختلفت أساليبها اختلافاً كبيراً عن الأساليب العربية الأولى ، وكما حدث للغة الكتابة فى عصرنا الحاضر إذ تميزت أساليبها كذلك عن أساليب الكتابة القديمة

---

(١) يوقف فى جميع هذه اللهجات بالسكون فى جميع الكلمات المعربة بالحركات ، وتلتزم حالة واحدة فى الكلمات المعربة بالحروف (المثنى ، جمع المذكر السالم ، الأسماء الخمسة . . . الخ فيقال مثلا أخوك مجتهد ، ضربت أخوك ، سلم لى على أخوك . . .) . فوظيفـــة الكلمة فى العبارة لا تفهم فى لغاتنا العامية إلا من مجرد السياق أو من ترتيبها بالنسبة لبقية عناصر الجملة .

(٢) تغيرت وجوه التصريف العربية تغيراً كبيراً فى اللغات العامية ، حتى لا تكاد تعثر فيها على فعل باق على حالته العربية الصحيحة من هذه الناحية .

(٣) فمن ذلك مثلا نعت المثنى بصيغة الجمع وتأخر الاشارة فى تركيب الجملة عن المشار إليه . . . وهلم جرا .

تحت تأثير الترجمة والاحتكاك بالآداب الأجنبية ورقى التفكير وزيادة الحاجة إلى الدقة فى التعبير عن حقائق العلوم والفلسفة والاجتماع . . . وهلم جرا .

(وثالثها) تطور يلحق معنى الكلمة نفسه ، كأن يخصص معناها العام فلا تطلق إلا على بعض ما كانت تطلق عليه من قبل ، أو يعمم مدلولها الخاص فتطلق على معنى يشمل معناها الأصلى ومعانى أخرى تشترك معه فى بعض الصفات ، أو تخرج عن معناها القديم فتطلق على معنى آخر تربطه به علاقة ما وتصبح حقيقة فى هذا المعنى الجديد بعد أن كانت مجازاً فيه ، أو تستعمل فى معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول . . . وهلم جرا .

(٢) خواص التطور الدلالى ومناهجه

للتطور الدلالى بمختلف أنواعه خواص كثيرة تشبه فى جملتها خواص التطور الصوتى التى أشرنا إليها فى الفصل السابق [١] . ومن أهم هذه الخواص ما يلى :

١ — أنه يسير ببطء وتدرج . فتغير مدلول الكلمة مثلا لا يتم بشكل فجائى سريع ، بل يستغرق وقتاً طويلا ويحدث عادة فى صورة تدريجية ، فينتقل إلى معنى آخر قريب منه ، وهذا إلى ثالث متصل به . . وهكذا دواليك ، حتى تصل الكلمة أحياناً إلى معنى بعيد كل البعد عن معناها الأول . فكلمة bureau مثلا كانت تطلق فى المبدأ على صنف خاص من الأقمشة (Étoffe de bure) ثم أطلقت على غطاء مائدة المكتب لاتخاذه غالباً من هذا الصنف ، ثم أطلقت على مائدة المكتب نفسها ، ثم أطلقت على مقر العمل والإدارة لملازمة المكتب لهما . فلا علاقة مطلقاً بين أول مدلول لهذه الكلمة وهو القماش الصوفى وآخر مدلول لها وهو مقر العمل والإدارة ؛ على حين أن العلاقة وثيقة بين كل معنى من المعانى التى اجتازتها والمعنى السابق له [٢] .

٢ — أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلى لا دخل فيه للإرادة الإنسانية : فسقوط علامات الإعراب فى اللهجات العربية الحاضرة ، وتغير أوزان الأفعال [٣] وتأنيث بعض

---

(١) انظر صفحات ٢٠١ — ٢٠٣ .

(٢) هذه الخاصة صحيحة فى تطور معانى الكلمات وتطور الأساليب . أما تطور القواعد فكثيرا ما يحدث بدون تدرج .

(٣) فيقال مثلا فى عامية بعض المناطق المصرية «كِبِير ، يِكْبَر» بدلا من « كَبِر يَكبَر » أو « كَبُر ، يكبُر » ومثل هذا يقال فى معظم الأفعال .

الكلمات المذكرة ، وتذكير بعض الكلمات المؤنثة [١] ، وجمع صفة المثنى [٢] ، وتأخر الإشارة عن المشار إليه [٣] ، وتزحزح كثير من المفردات عن مدلولاتها الأولى إلى معان جديدة . . . كل ذلك وما إليه قد حدث من تلقاء نفسه فى صورة آلية لا دخل فيها للتواضع أو إرادة المتكلمين .

٣ — أنه جبرى الظواهر ، لأنه يخضع فى سيره لقوانين صارمة لا يد لأحد على وقفها أو تعويقها أو تغيير ما تؤدى إليه . وإليك مثلا حالة اللغة العربية . فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن وتحريف ، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين ، فإن ذلك كله لم يحل دون تطورها فى القواعد والأساليب ودلالة المفردات إلى الصورة التى تتفق مع قوانين التطور اللغوى ، فأصبحت على الحالة التى هى عليها الآن فى اللهجات العامية .

غير أن علماء اللغة لم يصلوا بعد إلى الكشف عن جميع القوانين التى يسير عليها التطور الدلالى ، وما كشفوه منها لم يصل بعد فى دقته وضبطه وعمومه إلى مستوى القوانين المتعلقة بالتطور الصوتى ، كما أشرنا إلى ذلك وإلى أسبابه فى مقدمة هذا الكتاب [٤] .

٤ — أن الحالة التى تنتقل إليها الدلالة ترتبط غالبا بالحالة التى انتقلت منها بإحدى العلاقتين اللتين يعتمد عليهما تداعى المعانى [٥] ونعنى بهما علاقتى المجاورة والمشابهة [٦] . فتارة يعتمد انتقال الدلالة على علاقة المجاورة المكانية ، كتحول معنى « ظعينة » (معناها فى الأصل المرأة فى الهودج) إلى معنى الهودج نفسه وإلى معنى البعير [٧] ، وتحول

---

(١) فيقال مثلا فى عامية بعض المناطق المصرية : راس كبيرة وبطن كبيرة بدلا من رأس كبير وبطن كبير .

(٢) فيقال مثلا فى عامية المصريين « كتابين كبار » بدلا من « كتابان كبيران » .

(٣) فيقال مثلا فى عامية المصريين « الكتاب ده » و « الكتابين دول » بدلا من « هذا الكتاب » و « هذان الكتابان » .

(٤) انظر صفحة ١٧ .

(٥) من المقرر فى علم النفس أن حضور معنى يدعو إلى الذاكرة بعض المعانى المرتبطة معه بعلاقة المجاورة أو المشابهة .

(٦) هذا هو تفصيل مايقصده علماء اللغة إذ يقررون أن تطور الدلالة خاضع لقانون التماثل Loi de l'analogie.

(٧) المزهر للسيوطى الجزء الأول ٢٠٧ .

معنى «ذقن» فى عامية المصريين إلى معنى اللحية [١] . وتحول معنى bureau من غطاء المكتب إلى المكتب نفسه ، وكتأنيث الرأس فى عامية بعض المناطق المصرية (انتقل إليه التأنيث من الأعضاء المؤنثة المجاورة له وهى العين والأذن) . . . وهلم جرا . - وتارة يعتمد على علاقة المجاورة الزمنية ، كتحول معنى العقيقة (هى فى الأصل الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أمه) إلى معنى الذبيحة التى تنحر عند حلق ذلك الشعر [٢] ، وكتذكير كلمة été (فصل الصيف) التى كانت مؤنثة فى الأصل لمجاورة مدلولها مجاورة زمنية لمدلول كلمة مذكرة وهى printemps [٣] . - وتارة يعتمد على علاقة المشابهة ، كتحول معنى «الأفن» (وهو فى الأصل قلة لبن الناقة) إلى معنى قلة العقل والسفه ؛ وتحول معنى «المجد» (وهو فى الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف) إلى معنى الامتلاء بالكرم . . . وهلم جرا [٤] .

٥ — أن التطور الدلالى فى غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان . فمعظم ظواهره يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص . ولا نكاد نعثر على تطور دلالى لحق جميع اللغات الإنسانية فى صورة واحدة ووقت واحد .

٦ — أنه إذا حدث فى بيئة ما ظهر أثره عند جميع الأفراد الذين تشملهم هذه البيئة . فسقوط علامات الإعراب فى لغة المحادثة المصرية مثلا لم يفلت من أثره أى فرد من المصريين .

* * *

ومن هذه الخواص يتبين فساد كثير من النظريات القديمة بصدد هذا التطور .

---

(١) الذقن فى الأصل هو مجمع عظمى الحنك ، ولا يخفى أن هذا الموضع مجاور للشعر النابت فى الوجه .

(٢) المزهر للسيوطى ج ١ ص ٢٠٧ .

(٣) كانت الفصول فى الفرنسية القديمة من حيث التذكير والتأنيث على النحو التالى : الربيع (مذكر) ، الصيف (مؤنث) ، الخريف (مذكر) ، الشتاء (مذكر) . ثم انتقل تأنيث الصيف إلى الخريف ، وانتقل فيما بعد تأنيث الخريف إلى الشتاء ؛ فأصبحت الفصول جميعها مؤنثة ماعدا الربيع . ولكن تذكير الربيع لم يلبث أن انتقل فيما بعد إلى الصيف ، وتذكير الصيف رد إلى الخريف والشتاء نوعهما المذكر القديم ؛ فاصبحت جميع الفصول مذكرة فى الفرنسية الحالية V.Dauzat, op. cit, 106 .

(٤) قد يعتمد انتقال الدلالة من حالة إلى حالة على علاقة التضاد بين الحالتين (إطلاق الكلمة مثلا على ضد مدلولها القديم) . والتضاد فى الواقع مظهر من مظاهر التشابه ، إذ لا يوجد تضاد إلا بين شيئين يشتركان فى صفة عامة كالطويل والقصير والأسود والأبيض . أما الأمران اللذان لا يشتركان فى صفة ما فلا يوجد بينهما تضاد كالأحمر والطويل مثلا . (انظر كلمة عن التضاد فى اللغة العربية بكتابنا «فقه اللغة» الطبعة الثانية صفحات ١٦٠ — ١٦٥) .

فليس بصحيح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن هذا التطور يحدث نتيجة لأعمال فردية اختيارية يقوم بها بعض الأفراد وتنتشر عن طريق المحاكاة [١] .

وليس بصحيح ما ذهب إليه أعضاء المدرسة الإنجليزية وبعض الباحثين من الفرنسيين كالعلامة بريال Bréal ، إذ يرون أن التطور الدلالى يسير باللغة نحو التهذيب والكمال ويسدّ ما بها من نقص ويخلصها مما لا تدعو إليه الحاجة [٢] . وذلك أن اتجاهات كهذه لا يمكن أن تتحقق إلا فى تطور اختيارى مقصود تقوده الإرادة الإنسانية فى سبيل الإصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الذى نحن بصدده تطور تلقائى آلىّ لا دخل فيه للإرادة الإنسانية فلا يتصور أن يتقيد فى اتجاهه بالسبل التى تقول بها هذه النظرية .

وإن موازنة بين الحالة التى كانت عليها اللغـــة العربية فيما يتعلق بدلالة ألفاظها وقواعدها فى الإعراب وغيره ، وما آلت إليه فى اللغات العامية الحاضرة لأكبر دليل على ما نقول . فمن الواضح أن هذا التطور لم يتجه دائماً نحو التهذيب والكمال ، بل أدى فى معظم مظاهره إلى اللبس فى دلالة الكلمات والخلط بين وظائفها وأنواعها ، وجرّد اللغة مما بها من دقة وسموّ ، وهوى بها إلى منزلة وضيعة فى التعبير . وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى كثير من اللغات . وإليك مثلا قواعد اللغة اللاتينية التى انقرضت فى اللغات المنشعبة عنها . فإن معظم هذه القواعد كبير الفائدة فى بيان وظيفة الكلمات وتحديد مدلولاتها وتعيين العلاقات التى تربط عناصر العبارة بعضها ببعض ؛ وقد أدى انقراض هذه القواعد فى اللهجات المنشعبة عن اللاتينية إلى كثير من اللبس والاضطراب .

حقاً إن هـــذه المذاهب تصدق على بعض مظاهر التطور الدلالى الخاص بلغات الكتابة . فتطور لغات الكتابة يعتمد فى كثير من نواحيه على عوامل أدبية مقصودة ترمى إلى تنقيح اللغة وتهذيبها والسير بها فى سبيل الكمال ، كما أشرنا إلى ذلك فى الفقرة الرابعة من الفصل السادس [٣] .

---

(١) قال بهذا المذهب الفاسد جماعة من العلماء على رأسهم سايس وسويت وجيسبرسن وتارد Sayce, Sweet, Jespersen, Tarde .

(٢) انظر آخر ص ٤٤ وأول ٤٥ ، وانظر كذلك Dauzat, op. cit. 99, 100

(٣) انظر على الأخص صفحات ١٩٦ ـ ٢٠٠ .

(٣) عوامل التطور الدلالى

عرضنا فى الفصول السابقة لطائفة كبيرة من عوامل التطور فى القواعد والأساليب، وأشرنا فى شىء من التفصيل إلى مختلف آثارها فى كثير من اللغات الإنسانية [١]، ولكن لم يتح لنا فيما سبق أن نوفى البحث فى عوامل النوع الثالث من أنواع التطور الدلالى، وهو التطور فى معانى الكلمات. ولذلك سنقصر عليها دراستنا فى هذه الفقرة.

***

لهذا النوع من التطور عوامل كثيرة من أهمها الطوائف الآتية:

١ — عوامل تتعلق باستخدام الكلمات. فمدلول الكلمة يتغير تبعاً للحالات التى يكثر فيها استخدامها.

فكثرة استخدام العام مثلا فى بعض ما يدل عليه يزيل مع تقادم العهد عموم معناه ويقصر مدلوله على الحالات التى شاع فيها استعماله. ولدينا فى اللغة العربية وحدها آلاف من امثلة هذا النوع. فمن ذلك جميع المفردات التى كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها فى الإسلام فى معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية: كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والسجود.. وهلم جرا. فالصلاة مثلا معناها فى الأصل الدعاء [٢] ثم شاع استعمالها فى الإسلام فى العبادة المعروفة لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدعاء، حتى أصبحت لا تنصرف عند إطلاقها إلى غير هذا المعنى؛ والحج معناه فى الأصل قصد الشىء والاتجاه إليه، ثم شاع استعماله فى قصد البيت الحرام، حتى أصبح مدلوله الحقيقى مقصورا على هذه الشعيرة.. وقس على ذلك جميع أفراد هذه الطائفة. ومن ذلك أيضا كلمة «الرث» فقد كانت تطلق على الخسيس من كل شىء، ثم قصر مدلولها على الخسيس مما يفرش أو يلبس لكثرة استخدامها فى هاتين الطائفتين؛ وكلمة «المدام» فهى فى الأصل كل ما سكن ودام، ثم شاع استعمالها فى الخمر لدوامها فى الدن أو لأنه يغلى عليها حتى تسكن، فأصبحت لا تنصرف إلى غير هذا المعنى.

وكثرة استخدام الخاص فى معان عامة عن طريق التوسع تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم. فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية كلمات: البأس والورد

---

(١) انظر على الأخص صفحات ١٧٩ — ١٨٥، ١٩٦ — ٢٠٠، ٢١٤ — ٢٢٢.

(٢) وقد جاء على الأصل قوله تعالى: «وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم».

والرائد والنجعة والحوة . . . وهلم جرا . فالبأس فى الأصل الحرب ، ثم كثر استخدامه فى كل شدة فا كتسب من هذا الاستخدام عموم معناه ؛ وأصل الورد إتيان الماء وحده ثم صار إتيان كل شىء ورداً لكثرة استخدامه فى هذا المعنى العام ؛ والرائد فى الأصل طالب الكلأ ثم صار طالب كل حاجة رائداً ؛ والنجعة فى الأصل طلب الغيث ثم عممت فى الاستخدام فأصبح كل طلب انتجاعا ؛ والحوة فى الأصل شية من شيات الخيل وهى بين الدهمة والكمتة ثم توسع فى استعمالها حتى صار كل أسود أحوى ، فيقال ليل أحوى وشعر أحوى . ومن ذلك فى اللغة الفرنسية كلمة salaire : فقد كان معناها فى الأصل — كما تدل على ذلك بنيتها — ما يصرف للجندى من نقود فى نظير ما يحتاج إليه من ملح الطعام ، ثم شاع استعمالها فى كل أجرة حتى نسى معناها الأصلى ؛ وكلمة arriver : فقد كانت تدل فى الأصل — كما تشير إلى ذلك بنيتها — على الوصول إلى الشاطىء ، ثم شاع استعمالها فى كل وصول ، فاستقر معناها على هذا الوضع العام .

وكثرة استخدام الكلمة فى معنى مجازى تؤدى غالباً إلى انقراض معناها الحقيقى وحلول هذا المعنى المجازى محله . فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية كلمات المجد والأفن والوغى والغفران والعقيقة . . . وهلم جرا . فالمجد معناه فى الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف ، ثم كثر استخدامه مجازا فى الامتلاء بالكرم حتى انقرض معناه الأصلى وأصبح حقيقة فى هذا المعنى المجازى ؛ ولهذا السبب نفسه انتقل معنى « الأفن » من قلة لبن الناقة إلى نقص العقل ؛ وانتقل معنى «الوغى» من اختلاط الأصوات فى الحرب إلى الحرب نفسها ؛ ومعنى « الغفر » و « الغفران » من الستر إلى الصفح عن الذنوب ؛ ومعنى « العقيقة » من الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أمه إلى ما يذبح عند حلق ذلك الشعر .

وكثرة استخدام الكلمة فى العبارات المنفية ينزع عنها معناها الأصلى ويكسبها معنى العموم والإطلاق ، فتصبح أشبه شىء بأداة من أدوات النفى : فمن ذلك فى العربية كلمات أحد وديار وقط وأبدا ... وما إليها ، وفى الفرنسية كلمات pas, rien : personne .. etc.

واستخدام الكلمة فى فن ما بمعنى خاص يجردها فى هذا الفن من معناها اللغوى ويقصرها على مدلولها الاصطلاحى . ويدخل فى هذا مصطلحات الآداب والفلسفة والقانون والاجتماع والعلوم والفنون . . . وما إلى ذلك . ومن ثم نرى أن الكلمة

الواحدة تستعمل فى الشعر بمعنى، وفى الرسائل بمعنى آخر، وفى السياسة بمعنى ثالث، وفى القانون بمعنى رابع، وفى الفنون الحربية بمعنى خامس، وفى الطبيعة بمعنى سادس، وفى الطب بمعنى سابع . . وهلم جرا . وقد عرضنا لهذا الموضوع بشىء من التفصيل فى الفصل الخامس من هذا الكتاب [١] .

٢ — عوامل تتعلق بمبلغ وضوح الكلمة فى الذهن . فكلما كان مدلول الكلمة واضحاً فى الأذهان قل تعرضه للتغير، وكلما كان مبهما غامضاً مرناً كثر تقلبه وضعفت مقاومته لعوامل الانحراف . ويساعد على وضوح مدلول الكلمة عوامل كثيرة من أهمها أن تكون مرتبطة بفصيلة من الكلمات معروفة الأصل ، ويعمل على إبهامها عوامل كثيرة من أهمها أن لا تكون لها أسرة معروفة الأصل متداولة الاستعمال .

٣ — عوامل تتعلق بأصوات الكلمة . فثبات أصوات الكلمة يساعد على ثبات معناها، وتغيرها يذلل أحياناً السبيل إلى تغيره . وذلك أن صلتها بالأسرة التى تنتمى إليها وبالأصل المشتقة منه تظل وثيقة وواضحة فى الذهن ما دامت محتفظة بصورتها الصوتية، وقوة هـــذه الصلة تساعد على ثبات مدلولها . على حين أن تغير صورتها الصوتية يضعف صلتها فى الأذهان بأصلها وأسرتها ويبعدها عنهما، وهذا يجعل معناها عرضة للتغير والانحراف . فالوصف اللاتينى **vivus** مثلا ظل محتفظا بمعناه الأصلى (الحى ، ضد الميت) طوال المدة التى احتفظ فيها بأصوات بنيته ، وذلك لقوة ارتباطه عن طريق هذه البنية بأفراد أسرته **vivere, vita . . . etc** . ولكنه لم يلبث ، بعد أن تغيرت صورته الصوتية فى الفرنسية إلى **vif** أن أخذ ينحرف شيئاً فشيئاً عن مدلوله القديم حتى بعد عنه وأصبح يدل الآن على الوصف بالقوة والحدة والنشاط . وذلك لأن تغير صورته الصوتية قد باعد ما بينه وبين أفراد أسرته (**vivre, vivant . . . etc**)، فعرض مدلوله لهذا الانحراف . ومن هذا القبيل كذلك كلمة **sage** ؛ فإن انحراف صورتها الصوتية إلى هذا الوضع قد عزلها عن أفراد فصيلتها (**savoir, savant . . . etc**) وعرّض مدلولها للتغير، فانحرف من معنى العالِم إلى معنى الهادئ المطيع .

٤ — عوامل تتعلق بالقواعد . فقد تذلل قواعد اللغة نفسها السبيل إلى تغير مدلول الكلمة، وتساعد على توجيهه وجهة خاصة . فتذكير كلمة « ولد » مثلا فى العربية (ولد

(١) انظر صفحتى ١٦٧ ، ١٦٨ .

صغير) قد جعل معناها يرتبط فى الذهن بالمذكر ، ولذلك أخذ مدلولها يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع حتى أصبحت لا تطلق فى كثير من اللهجات العامية إلا على الولد من الذكور . وكذلك كلمة homo فى اللاتينية . فقد كانت تطلق فى الأصل على الإنسان رجلا كان أم امرأة ، ولكن تذكيرها ربط مدلولها فى الذهن بنوع الذكور ، فأخذ يدنو شيئا فشيئا من هذا النوع حتى أصبحت فى كثير من اللغات المنشعبة عن اللاتينية لا تطلق إلا على الرجال .

٥ — عوامل تتعلق بانتقال اللغة من السلف إلى الخلف . فكثيراً ما ينجم عن هذا الانتقال تغير فى معانى المفردات . وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذى يفهمها عليه الجيل السابق . ويساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام بعض المفردات فى غير ما وضعت له عن طريق التوسع أو المجاز . فقد يكثر استخدام الكلمة مثلا فى جيل ما فى بعض ما تدل عليه ، أو فى معنى مجازى تربطه بمعناها الأصلى بعض العلاقات ، فيعلق المعنى الخاص أو المجازى وحده بأذهان الصغار ، ويتحول بذلك مدلولها إلى هذا المعنى الجديد . وإليك مثلا كلمة saoul الفرنسية ، فقد كان معناها فى الأصل « الشبعان » من الطعام ؛ ثم كثر استخدامها فى عصر ما فى النشوان من الخمر عن طريق المجاز والتهكم وللتحرج من استخدام الكلمة الصريحة فى هذا المعنى وهى ivre. فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار فى هذا الجيل ، وتحول إليه مدلول هذه الكلمة فأصبحت صريحة فيه (١) وانقرض معناها القديم .

وإلى هذا العامل يرجع أهم الأسباب فى تحول الكلمات إلى معان كانت مجازية فى الأصل وفيما يعترى المدلولات فى نطاقها من سعة أو ضيق . بل إن طائفة من العلماء على رأسها العلامة هرزوج Herzog قد رجعت إلى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور فى الدلالة (٢) .

٦ — وكثيراً ما يتغير مدلول الكلمة على أثر انتقالها من لغة إلى لغة . فقد يخصص مدلولها العام وتقصر على بعض ما كانت تدل عليه فى لغتها الأصلية ، وقد يعمم مدلولها الخاص ، وقد تستعمل فى غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين ، وقد تنحط إلى درجة

---

(١) لا تقل الآن كلمة saoul عن كلمة ivre فى صراحتها فى التعبير عن النشوان ، إن لم تزد عنها فى ذلك.

(٢) V. Meillet, dans «L'Année Sociologique » T. 9; p. p. 6, 7; et Herzog : der Romanischen Philologie

وضيعة فى الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره، وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه، كما سبقت الإشارة إلى ذلك وإلى أسبابه وأمثلته فى الفصول السابقة (١).

٧ — وقد يكون العامل فى تغيير معنى الكلمة أن الشىء نفسه الذى تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة به . . . وما إلى ذلك. فكلمة « الريشة » مثلا (plume) كانت تطلق على آلة الكتابة أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ، ولكن تغير الآن مدلولها الأصلى تبعا لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة فى صور خاصة . والقطار كان يطلق فى الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم فى السفر ، ولكن تغير الآن مدلوله الأصلى تبعاً لتطور وسائل المواصلات فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية . و « البريد » كان يطلق على الدابة التى تحمل عليها الرسائل ، ثم تغير الآن مدلوله تبعاً لتطور الطرق المستخدمة فى إيصال الرسائل فأصبح يطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية فى العصر الحاضر . و « بنى الرجل بامرأته » كانت تستخدم كناية عن دخوله بها ، لأن الشاب البدوى كان إذا تزوج يبنى له ولأهله خباء جديد ؛ ولا تزال تستخدم هذه العبارة كناية عن نفس المعنى مع أن الزفاف لا علاقة له فى نظمنا الحاضرة بالبناء. وقد جرت العادة فى بعض العصور بفرنسا أن يقضى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة عقوبتهم فى أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية ، ومن ثم جاءت عبارة envoyer aux galères وجاء وصف galérien . ولكن تغير الآن مدلولها تبعاً لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها .

٨ — عوامل تتعلق باختلاف الطبقات والجماعات . فكثيراً ما ينجم عن اختلاف الناس فى طبقاتهم وفئاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجها عن معانيها الأولى . ويؤدى إلى ذلك ما يوجد بين الجماعات الناطقة باللغة الواحدة من فروق فى الخواص الشعبية والجسمية والنفسية وفى شئون السياسة والاجتماع والثقافة والتربية ومناحى التفكير والوجدان ومستوى المعيشة وحياة الأسرة والتقاليد والعادات . . . ، وفى الظروف الطبيعية والجغرافية المحيطة بكل جماعة منها ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين

(١) انظر صفحات ١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٧٦ .

بها، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم . . . وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الأمور وما إليها من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها الأولى وتوجه معانيها فى كل طبقة وفى كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها كما تقدم شرح ذلك بتفصيل فى الفصل الخامس من هذا الكتاب [١] .

***

ويدخل فى موضوع التطور الدلالى نشأة كلمات لم تكن موجودة فى اللغة من قبل وهجر كلمات كانت مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضاً تاما .

أما نشأة كلمات فى اللغة فتدعو إليها فى الغالب مقتضيات الحاجة إلى تسمية مستحدث جديد مادى أو معنوى (مخترع جديد ، نظام حديث فى الشئون الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها ، نظرية جديدة علمية أو فلسفية . . . وهلم جرا) . ويتم ذلك بإحدى الوسائل الآتية :

١ ــ إنشاء الكلمة إنشاء على الوجه الذى بيناه بتفصيل فى آخر الفصل السادس بصدد موضوع التجديد فى اللغة [٢] . وهذه الوسيلة لا تكاد تستخدم إلا فى لغات الكتابة وخاصة فى إنشاء المصطلحات العلمية وما شاكلها [٣] .

٢ ــ انتقال الكلمة من اللغة أو اللهجة إلى لغة أو لهجة أخرى على الوجه الذى شرحناه فى الفصول الرابع والخامس والسادس [٤] .

٣ ــ إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات المهجورة فى اللغة على الوجه الذى شرحناه فى أواخر الفصل السادس [٥] .

٤ ــ تفرع الكلمة فى صورة تلقائية أو مقصودة من الكلمات المستخدمة فى اللغة .

---

(١) انظر على الأخص صفحات ١٥٨ ، ١٥٩ ، وآخر ١٦٨ ــ ١٧٢ .

(٢) انظر صفحتى ١٩٧ ، ١٩٨ وأول ١٩٩ .

(٣) تستخدم أحيانا هذه الوسيلة كذلك فى اللهجات الاجتماعية كما سبقت الاشارة إلى ذلك فى أول ص ١٧٢ .

(٤) انظر فى الفصل الرابع صفحات ١٤١ــ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ــ ١٥٣ . وفى الفصل الخامس صفحات ١٦٣ ــ ١٦٦ ، وفى الفصل السادس صفحات ١٧٥ ــ ١٧٩ .

(٥) انظر ص ١٩٧ .

ويتم ذلك عن طريق الاشتقاق بأوسع معانيه ، أو تكوين كلمة من كلمتين أو أكثر ، أو تسمية شيء جديد باسم مكانه أو مخترعه ، أو نحت أفعال من بعض الأسماء الجامدة أو أسماء الأعلام لعلاقة ما . . . وهلم جرا [١] .

وأما انقراض الكلمة من الاستعمال فترجع أسبابه إلى عوامل كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — انقراض مدلول الكلمة نفسه أو عدم استخدامه . ويصدق هذا على الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية . . . التى انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها . فمن ذلك فى الفرنسية veste, casaquin, cabas. carosse, soupentes, briquet, pacotille, corvette. frégate, brulot, boulet, arpent, écu, liard toise ... etc [٢].

وقد انقرض كذلك فى اللغة العربية كثير من الكلمات الدالة على نظم جاهلية قضى عليها الإسلام كالمرباع والصرورة والنوافج . . . وهلم جرا [٣] .

٢ — انعزال الكلمة وعدم ارتباطها بفصيلة من الكلمات معروفة الأصل متداولة الاستعمال . فانعزال الكلمة ، أى عدم اتصالها بأسرة معروفة ، لا يقف أثره عند تعريض مدلولها للانحراف عن وضعه الأصلى على الوجه الذى سبق شرحه [٤] ، بل كثيراً ما يعرضها هى نفسها للفناء . ـ فما أشبه الكلمات بأفراد الحيوانات الاجتماعية : يظل الواحد منها قويا منيع الجانب ما اندمج فى أفراد قطيعه وقوى تضامنه معه ، ويتعرض للأذى والهلاك كلما انعزل عنه أو وهنت العلاقات التى تربطه به . ـ ولهذا السبب كادت تنقرض من لغة التخاطب الفرنسية كلمات : besicles, binocle. missive, visage miroir وحل محل كل منها كلمة معروفة الاشتقاق قوية الصلة بأفراد أسرتها : lunettes, lorgnon, lettre, figure, glace .

---

(١) من أمثلة نحت الأفعال من أسماء الأعلام كلمة تبغدد فلان إذا صار مترفا فانها مأخوذة من « بغداد » ، ومن أمثلة ذلك فى اللغات الأوروبية كلمة to boycott . وأصل ذلك أن مالكا ارلنديا يسمى Boycott كان غير مرضى عنه فى أثناء حركة من الحركات الشعبية الوطنية ، فقوطع من جميع جيرانه وزملائه ، وأخذ من اسمه فعل to boycott المستخدم الآن فى المقاطعة السياسية والاقتصادية وما إليها . وقد انتقل هذا الفعل من الانجليزية إلى معظم اللغات الأوروبية (الفرنسية boycotter والألمانية boycotten . . . الخ) V. Meillet. op. cit. p. 29 .

(٢) V. Dauzat, op. cit. 228 et suiv.

(٣) المرباع ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية . والصرورة هو الذى يدع النكاح تبتلا أو الذى يحدث حدثا ويلجأ إلى الحرم . والنوافج الابل تساق فى الصداق .

(٤) انظر صفحة ٢٣٠ رقمى ٢ ، ٣ .

٣ — ثقل الكلمة على اللسان أو عدم تلاؤم أصواتها مع الحالة التى انتهى إليها تطور أعضاء النطق . فإن هذا العامل لا يقف أثره عند تعريض أصواتها للانحراف عن مخارجها الأولى على الوجه الذى سبق شرحه (١)، بل قد يعرضها هى نفسها للانقراض . وإلى هذا يرجع السبب فى انقراض كثير من الكلمات العربية من لغات التخاطب العامية فى العصر الحاضر .

* * *

هذا ، وكثير من الكلمات التى تنقرض من لغات المحادثة تأوى إلى ركن شديد فى ميادين الشعر أو الأمثال أو الآداب أو العلوم أو الفنون فتتوطد لها فيه أسباب المنعة والبقاء .

انتهت طبعته الثانية فى { شوال سنة ١٣٦٣ هـ
أكتوبر سنة ١٩٤٤ م

---

(١) انظر آخر ص ٢٠٤ وتوابعها .

أهم المراجع

أولا – أهم المراجع العربية

١ – ابن السكيت (يعقوب الجمحى) كتاب الألفاظ

٢ – ابن جنى (أبو الفتح عثمان) الخصائص

٣ – ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) المقدمة

٤ – ابن خلكان (أحمد بن محمد بن إبراهيم) وفيات الأعيان

٥ – ابن دريد (محمد بن الحسن) جمهرة الكلام . طبع فى الهند

٦ – ابن رشيق (أبو على الحسن بن رشيق القيروانى) العمدة فى صناعة الشعر ونقده

٧ – ابن سلام (أبو عبد الله محمد بن سلام) طبقات الشعراء

٨ – ابن سيده (على بن إسماعيل) المخصص

٩ – ابن سينا (الرئيس أبو على الحسين) أسباب حدوث الحروف . مطبوع

١٠ – ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) العقد الفريد

١١ – ابن فارس (أبو الحسين أحمد) الصاحبي فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها

١٢ – ابن قتيبة أدب الكاتب

١٣ – ابن منظور (جمال الدين بن مكرم) لسان العرب

١٤ – أبو البقاء (الحسينى الكفوى) الكليات

١٥ – أحمد تيمور باشا معجم اللغة العامية مع تذييل فى الأمثال العامية (مخطوط بالخزانة التيمورية) وقد نشر بعض نماذج منه بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، فى المجلد السادس

١٦ – أحمد عيسى (الدكتور) التهذيب فى أصول التعريب

١٧ – الأزهرى (محمد بن أحمد بن الأزهر) تهذيب اللغة . منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم ٩ لغة

١٨ — الأسكافى (محمد بن عبد الله) مبادىء اللغة
١٩ — الأصفهانى (أبو الفرج على بن الحسين) كتاب الأغانى
٢٠ — الأصمعى (عبد الملك بن قريب) غريب الحديث (انظر كذلك رسائله فى طوائف خاصة من الألفاظ والمعانى بآخر ص ٥٨ وبصفحة ١٨٨ من كتابنا « فقه اللغة ») .
٢١ — الأنبارى (أبو بكر محمد بن القاسم) : كتاب الأضداد
٢٢ — البستانى (بطرس) محيط المحيط
٢٣ — البستانى (بطرس) قطر المحيط
٢٤ — البستانى (بطرس) دائرة المعارف
٢٥ — البستانى (عبد الله) البستان
٢٦ — البغدادى (عبد القادر) خزانة الأدب
٢٧ — التبريزى (يحيى بن على) تهذيب كتاب الألفاظ لابن السكيت (المذكور برقم ١)
٢٨ — التهانوى (محمد على بن على) كشاف اصطلاحات الفنون
٢٩ — الثعالبى (أبو منصور عبد الله بن محمد) فقه اللغة
٣٠ — الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين
٣١ — الجرجانى (على بن محمد) التعريفات
٣٢ — الجزائرى (الشيخ طاهر) التقريب إلى أصول التعريب
٣٣ — الجواليقى (أبو منصور موهوب بن أحمد) المعرب من الكلام الأعجمى طبعته أخيراً « دار الكتب المصرية » فى مجلد يقع فى ٤٥٦ صفحة من القطع الكبير مع بعض شروح وتعليقات للأستاذ أحمد محمد شاكر ومقدمة للدكتور عبد الوهاب عزام .
٣٤ — الجوهرى (اسماعيل بن حماد) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) .
٣٥ — الخفاجى (شهاب الدين أحمد بن محمد) شفاء العليل فيما ورد فى كلام العرب من الدخيل .
٣٦ — الخليل بن أحمد العين
٣٧ — الدسوقى تهذيب الألفاظ العامية
٣٨ — الرازى (محمد بن أبى بكر بن عبد القادر) مختار الصحاح
٣٩ — الزمخشرى (أبو القاسم محمود) أساس البلاغة

٤٠ — السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها
٤١ — الشدياق (أحمد فارس) سر الليال فى القلب والإبدال
٤٢ — الشرتونى (سعيد) أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد
٤٣ — العسكرى (أبو هلال) المعجم فى بقية الأشياء
٤٤ — العسكرى كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر
٤٥ — الفيروزابادى (محمد بن يعقوب) الروض المألوف فيما له اسمان إلى ألوف
٤٦ — الفيروزابادى القاموس المحيط
٤٧ — الفيومى (أحمد بن محمد بن على المقرى) المصباح المنير
٤٨ — القالى (أبو على) الأمالى وذيل الأمالى والنوادر
٤٩ — الكرملى (انستاس) مجلة لغة العرب
٥٠ — المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) كتاب الكامل فى اللغة والأدب
٥١ — الهمذانى (عبد الرحمن بن عيسى) الألفاظ الكتابية
٥٢ — اليازجى (ابراهيم) نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد
٥٣ — جرجى زيدان الفلسفة اللغوية
٥٤ — جرجى زيدان تاريخ اللغة العربية
٥٥ — جرجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية
٥٦ — طه حسين الأدب الجاهلى
٥٧ — على العنانى ومحمد عطية الإبراشى وليون محرز كتاب الأساس فى الأمم السامية ولغاتها وقواعد اللغة العبرية وآدابها
٥٨ — على العنانى ومحمد عطية الإبراشى وليون محرز كتاب المفصل فى قواعد اللغة السريانية وآدابها والموازنة بين اللغات السامية
٥٩ — على عبد الواحد وافى فقه اللغة
٦٠ — على عبد الواحد وافى فى التربية
٦١ — مجلة الزهراء لمنشئها الأستاذ محب الدين الخطيب
٦٢ — مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق
٦٣ — مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية
٦٤ — محب الدين الخطيب اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب

٦٥ — معلوف (الأب لويس) المنجد (معجم لغوى)
٦٦ — ولفنسن . (الدكتور اسرائيل) تاريخ اللغات السامية
٦٧ — ياقوت معجم الأدباء

ثانيا — أهم المراجع الأفرنجية

1 — Baldwin : Le Developpement mental chez l' enfant et dans la race « trad. fr. »
2 — Bally : Le Langage et la Vie.
3 — Bally : Précis de Stylistique
4 — Berry : An Experimental study of Imitation
5 — Bloch:Les Premiers stades du Langage de l'enfant « J.de Psych. 1921»
6 — Boas : Handbook of American Idian Languages, 2 vols, Washington
7 — Brandenburg : Language development
8 — Bréal : Essai de Sémantique
9 — Bréal : Mélange de Mythologie et de Linguistique
10 — Brockelmann : Précis de Linguistique Sémitique "trad. fr."
11 — Claparède : Psychologie de l' Enfant . . . etc.
12 — Clodd : Story of the Alphabet "New york"
13 — Crammont : Mélanges Meillet
14 — Darmesteter : La Vie des Mots
15 — Darwin : L'Expression des Emotions "trad fr."
16 — Darwin : L'Origine des Espèces "trad fr."
17 — Dauzat : Les Patois
18 — Dauzat : La Philosophie du Langage
19 — Dauzat : La Vie du Langage
20 — Dauzat : Etudes Linguistique sur la Basse-Auvergne
21 — Delacroix : Le Langage et la Pensée
22 — Dumas et collaborateurs : Traité de Psychologie
23 — Durkheim : La Règle de la Méthode Sociologique
24 — Durkheim : Les Formes élémentaires de la Vie Religieuse
25 — Durkheim : La Prohibition de l'Inceste; dans "L'Année Sociologique' T. I.
26 — Gennep (Van) Essai d'une théorie des Langues Speciales (dans Revue des Etudes éthnographiques et sociologiques)
27 — Cillieron et Roques : Etude de Géographie Linguistique
28 — Ginneken : Principes de Linguistique psychologique

29 — Grammont : La Dissimilation
30 — Grégoire : Petit Traité de Linguistique
31 — Guillaum : L' Imitation chez l' enfant
32 — Hermann - Paul : Etudes sur les changements phonétiques
33 — Hovelacque : La Linguistique
34 — Jespersen : Language; its nature, development, and origin
35 — Jespersen : The Progress of Language.
36 — Kohler : L' Intelligence des Singes Supérieurs "trad. fr."
37 — Larousse du xxe Siécle
38 — Leroy : Le Langage
39 — Levy-Bruhl : Les Fonctions mentales dans les Sociétiés primitves
40 — Malinowski : Primitive Language
41 — Mallery : Sign-Language among the North American Indians
42 — Marichelle : L'Enseignement de la Parole aux sourd—muets
43 — Meillet : Comment les mots changent de sens (dans l' Année Sociologique, T - Ix, P. P. 3-33)
44 — Meillet : Les Dialectes Indo-Européens
45 — Meillet Introduction à l'Etude Comparative des Langues Indo-Européennes
46 — Meillet : Les Langues dans l'Europe Nouvelle
47 — Meillet : Linguistique Historique et Linguistique générale
48 — Meillet et Cohen (groupe de linguistes sous la direction de Meillet et Cohen) : Les Langues du Monde
49 — Muller (Max) : The Science of Language
50 — Muller (Max): New Lectures on the Scienc of Language
51 — Paulhon : La Double Fonction du Langage
52 — Pawlowitch : Le Langage enfantin
53 — Piaget : Le Langage et la Pensée chez l'Enfant
54 — Renan: Histoire générale des Langues Sémitique
55 — Renan : L'Origine du Langage
56 — Ribot : L'Evolution des Idées Générales
57 — Roudet : Éléments de Phonétique générale
58 — Rousselot : Introduction à l' Etude des Patois
59 — Rousselot : Les Modifications Phonétiques du Langage
60 — Rousselot : Principe de Phonétique expérimentale
61 — Roustan : Psychologie
62 — Sapir (E) : Language (New York)
63 — Saussure (De): Cours de Linguistique Générale
64 — Sayce : Introduction to the Science of Language (2 vols).
65 — Sayce : Principles of Comparative Philology
66 — Sechehay : Programme et Méthode de la Linguistique théorique
67 — Sweet : History of English Sounds
68 — Sweet : The Practical Study of Language

69 — Taine : Observations sur l'Acquisition du Langage par les Enfants (Revue Phil. 1876)

70 — Tarde : Lois de l'Imitation

71 — Tomas (Antoine) : Essai de Philologie Française

72 — Tomas (Antoine) : Mélange d' Etymologie Françaisc

73 — Tylor : Early History of Mankind

74 — Tylor : Origin of Civilisation

75 — Vannier : L'Esprit et les Mœurs d'une nation d' après sa Langue

76 — Vendryès : Le Langage

77 — Vendryès : Reflexion sur les lois phonétiques

78 — Whitney : Language and the Study of Language

79 — Wright : Lectures on the comparative grammar of the Semitic Languages

فهـــرس

استدراك

صفحة	سطر	خطأ مطبعى	صوابه
٧	٢٢،٢٣	وبتنسيقها . . . أطلق عليها	وتنسيقها . . . أطلق عليه
٢١	٥	أراد يضمهم	أفراد يضمهم
٦٣	١٥	فى بعض العشائر	يستخدمها أفراد العشائر
٦٣	١٦	يستخدمها الشعوب	فى بعض الشعوب
٩٧	٢٥	من الفوج الأول التى	من الفوج الأول من الكلمات التى
١٠٦،١٠٧	آخر سطر فيهما	صفحة ١٠٤	صفحة ١٠٥
١١٠	٦	أصوات الطبيعة	أصواته الطبيعية
١٢٤	١	فى الفينية اللغات اللاپونية	اللغات اللاپونية
١٢٤	١١	Manléon	Mauléon
١٥٢	٩	أوسع ثروة الحرب فيها	أوسع ثروة فيها
١٥٨	الأول فى التعليق	أول اتفاق من	أول اتفاق من نوعه
٢١٦	٨	سيان	سيين